

مَحَاضِرُ تَارِيخِ الْأَسْرَائِلِ



تأليف الدكتور
الشيخ محمد الحضري بك، المستشار بوزارة المعارف
ومدير تاريخ الاسرى بالامانة المصرية

بالتعاون مع

مطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بصره
لصاحبها: مصطفى محمد

الطبعة الرابعة : سنة ١٣٥٤ هجرية

(جميع الحقوق محفوظة)

طبعة ايداع
شأن أمم سنة ١٤٠٠ هجرية

فهرست الجزء الأول

من محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

صفحة	صفحة
المحاضرة الرابعة ٣٤	المحاضرة الأولى ٣
الملك بالشام ٣٤	مباحث التاريخ الإسلامي ٣
الإمارة بالحجاز ٣٥	مايلزم المؤرخ ٣
الحكم عند الأعراب في بواديهم ٣٧	جزيرة العرب ووصفها ٤
المحاضرة الخامسة ٣٩	أقسام الجزيرة الطبيعية ٧
الأخلاق ٣٩	الوصف الطبيعي لجزيرة العرب ٨
لغة العرب ٤٤	جو البلاد ١٠
المحاضرة السادسة ٤٨	مجاج الجزيرة ١٠
الكتابة عند العرب ٤٨	الشعوب العربية ١١
علوم العرب ٤٩	شعب قحطان ١١
دين العرب ٥٢	المحاضرة الثانية ١٤
المحاضرة السابعة ٥٨	شعب عدنان ١٤
النسب ٥٨	مساكن العدنانية ١٥
محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ٦١	بدو العرب وحضرم ١٦
السيرة الأدبية قبل النبوة ٦٥	تجارة العرب ١٦
المحاضرة الثامنة ٦٧	صناعة العرب ١٧
البعثة والدعوة ٦٧	أحوال العرب ١٧
المحاضرة التاسعة ٧٧	حال العرب الاجتماعية ١٧
مقاطعة قريش لبني هاشم والمطلب ٧٧	المحاضرة الثالثة ٢٥
هجرة الطائف ٧٩	حال العرب السياسية ٢٥
العروض على القبائل وإجابة الأنصار ٨٠	ملك اليمن ٢٥
	الملك بالحيرة ٢٩

صفحة	صفحة
١١٧	٨١ بيعة الانصار
١١٧	٨٤ الهجرة
١١٨	٨٥ المحاضرة العاشرة
١١٩	٨٥ التشريع المكي
١٢٣	٩٣ المحاضرة الحادية عشرة
١٢٣	٩٣ لم شرع القتال
١٢٤	٩٦ العهود والمواثيق
١٢٤	٩٨ أسرى الحرب
١٢٨	٩٩ حياة المدينة
١٢٩	١٠٠ المحاضرة الثانية عشرة
١٢٩	١٠٠ الأعمال الحربية
١٣١	١٠٠ ودان
١٣٣	١٠١ بواط
١٣٤	١٠١ العشيرة
١٣٤	١٠١ سفوان
١٣٥	١٠٢ بدر الكبرى
١٣٨	١٠٨ الكدر
١٣٨	١٠٨ السوق
١٣٨	١٠٨ ذى أمر
١٤٠	١٠٨ الفرع
١٤٨	١٠٩ قينقاع
١٤٨	١٠٩ كعب بن الأشرف
١٥٤	١١٠ المحاضرة الثالثة عشرة
١٥٧	١١٠ أحد
١٥٧	١١٦ يوم الرجيع
١٥٨	١١٦ حديث بئر معونة

صفحة	صفحة
المحاضرة الحادية والعشرون ١٩٦	١٥٨ الخلافة
عمر بن الخطاب ١٩٦	١٥٨ بيت الخلافة
كيف انتخب ١٩٦	١٦٢ شكل الانتخاب
ترجمة عمر بن الخطاب ١٩٧	١٦٨ المحاضرة التاسعة عشرة
أول خطاب لعمر ١٩٨	١٦٨ انتخاب أبي بكر
الفتوح في عهد عمر ١٩٩	١٧٠ أول خطاب لأبي بكر
في بلاد الفرس ٢٠٠	١٧١ ترجمة أبي بكر
أمر القادسية ٢٠٣	١٧١ أخلاق أبي بكر
المحاضرة الثانية والعشرون ٢٠٥	١٧٣ أخبار الردة
تمام القادسية فتح المدائن ٢٠٥	١٧٦ طلحة الرشيدى
المحاضرة الثالثة والعشرون ٢١٥	١٧٧ بنو تميم ومالك بن نورة
جلولاء ٢١٥	١٧٨ بنو حنيفة ومسيلة
تمصير الكوفة ٢١٧	١٧٩ اليمن والاسود العنسى
فتح الجزيرة ٢١٨	١٨٠ البحرين والحطيم
فتح الأهواز ٢١٩	١٨١ المحاضرة العشرون
غزو فارس من البحرين ٢٢٠	١٨١ ظهور الأمة العربية
فتح رامهرمس والسوس وتستر ٢٢١	١٨٢ دولة الفرس
فتح نهاوند ٢٢٢	١٨٣ الرومان
فتح أصبهان ٢٢٤	١٨٣ غزو الروم
فتح أذربيجان ٢٢٤	١٨٤ غزو الفرس
فتح الرى ٢٢٥	١٩٤ إدارة البلاد في عهد أبي بكر
فتح الباب ٢٢٥	١٩٥ رزق الخليفة
فتح خراسان ٢٢٦	١٩٦ أرزاق الجند
فتوح أهل البصرة ٢٢٦	١٩٦ أرزاق العمال
	١٩٦ وفاة أبي بكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد فقد عهد إلى مجلس إدارة الجامعة المصرية أن أقوم بإلقاء محاضرات على طلابها في تاريخ الأمم الإسلامية فقامت بما عهد إلى به على قدر ما منحت في العزيمة والوقت ، وقد رأت إدارة الجامعة أن تجمع هذه المحاضرات وتخرج للناس حتى يكون النفع بها عاما فبذلت الجهد في تحريرها وتهذيبها حتى يسهل على قرائها الاستفادة منها ، وها هي ذى تعرض على المؤرخين ورجال العلم ، وأرجو أن أكون قد وفقت لتذليل صعوبة كبرى وهي صعوبة استفادة التاريخ العربى من كتبه .

هذا وإني أعلن شكرى الوافر وثنائى العظيم على مجلس إدارة الجامعة لما نلت من ثقته حتى اعتمد علىّ فى أداء هذه المهمة وأخص بثنائى وإخلاصى رجل المهمة والعزيمة الأمير الجليل (١) أحمد فؤاد باشا رئيس إدارة الجامعة الذى بثاقب نظره وقوة عزمته أزهر هذا المعهد العظيم وأينعت ثمراته ونراه كل يوم يخطو إلى الامام . فأسأل الله سبحانه أن يوفقه ويستدده فى القول والعمل إنه نعم المجيب ؟
محمد الخضرى

(١) نودى بجملائه ملكا على مصر فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ سدد الله خطاه وأبقاه ذخرا لأمة خاصة والإسلام عامة وأقرعته بولى عهده المحبوب سؤالا ميرا فارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المحاضرة الأولى

في التاريخ الإسلامي

مباحث التاريخ الإسلامي - ما يلزم المؤرخ - جزيرة العرب
ووصفها - شعب قحطان ومقاماته

إذا ذكر الإسلام اتجهت النفس إلى ذلك الدين الذي جاء به سيدنا محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب فأصلح به من شأن الشعوب العربية وألف بين قلوبها وهياها لأن تسيح إلى ما جاورها من الأقاليم وتؤسس سلطانا واسعا يرتكز على دعامة ذلك الدين فتورخ الإسلام يرجع بحته إلى ثلاثة أمور يستتبع بعضها بعضا الأول - الدين الإسلامي وكيف تأسست قواعده وتقررت مبادئه والمصاعب التي وقعت في طريقه حتى غلبها الثبات والصبر

الثاني - تأثيره في النفوس العربية حتى استعدت لبط ساطانها على ما جاورها من الأقاليم وما كان منها في سبيل ذلك من الحروب والأعمال حتى عظم قدرها واتسع سلطانها منقادا إلى سلطان الدين

الثالث - ما كان من انتقال هذا السلطان عن الأمم العربية إلى غيرها من الأمم التي دانت بالإسلام وما كان للدين من التأثير في قيام دولة وسقوط أخرى وفي حضارة الأمم التابعة لسلطانه

ولما كان مهد هذا الدين هو بلاد العرب ومحل التأثير به لأول مرة هم العرب لم يكن لنا بد من ذكر مقدمة إجمالية في تخطيط بلاد العرب وذكر الشعوب العربية وحالم قبل مجيء الإسلام لتكون أمامنا منهم صورة تفهمنا مقدار استعدادهم للتأثر بذلك الدين إلا أننا نستخدم كلمة صغيرة في أول واجب على من يدرس تاريخ أمة أو فرد كثير ممن اشتغلوا بالتاريخ كانت عواطفهم تتحكم في حوادثه تحكما تضيق به الفائدة من دراسة التاريخ فإن عاطفة الحب تجعل كل ما ليس بحسن حسنا وتجتهد في تأويل

الحوادث بوجه ليس فيه غضاضة حتى ما أدى منها إلى سقوط فاعله وخيبته . وعاطفة الكرامة تدعو إلى ضد ذلك فتجعل الحسن قبيحا وتستنبط من الخير شرًا ولم يخلص من هذا الشر العظيم الذي يطمس معالم التاريخ ويضيع الفائدة من نجارب الأمم إلا نفر قليل جدا . وإذا نظرنا إلى أنفسنا نجد ما لا تحسب على شيء من الحوادث التي تشعر بها حكما بحسب ما تستحق فرب فعل صدر من نجه فنحمله محلا حسنا جميلا والفعل نفسه يصدر من نبغضه فنحمله على أسوأ محامله : نحكم على متصدق بالتبذير لأنه تذكر الفقراء والمعوزين في حال رغبته ولأنابه بتلك الصدقة من آخر ، بل نسبه بأنه مرء يحب الشهرة الكاذبة : والتجرد من هذه العواطف في دراسة التاريخ أمر صعب المنال لا يصل إليه الإنسان إلا بعد عقبات شديدة لا بد له من اجتيازها إن كان المراد تمثيل الأمم والحكومات بما كانت عليه لا بما تحب أن يكون فلا بد أن نجعل أمام أعيننا أنا سندرس تاريخ أمم إن كانت أخطأت في بعض تصرفاتها فليس علينا من تبعه ذلك الخطأ شيء ، وليس لنا إلا أن نعرفه ونستفيد منه وإن كانت أصابت المحجة فإن ذلك لا ينفعنا إذا لم يكن لنا مثل أعمالهم لذلك يحتاج دارس التاريخ إلى سعة صدر تحتمل كل ما يرد على تاريخ قومه من نقد حتى لا تبقى حقائق الأشياء محجوبة بسحب عاطفتي الحب والبغض

جزيرة العرب

يطلق العرب على قطعة الأرض التي نشأوا فيها «جزيرة العرب» مع أنها لم تتم إحاطتها بالماء كما قال ياقوت (١) في معجم البلدان نقلا عن هشام (٢) بن محمد السائب عن ابن عباس (٣) إنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من

(١) هو ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي الأصل أسر من بلاده صغيراً فتعلم ببغداد ساح سياحات مهمة وألف كتباً نافعة في التاريخ والتقويم منها معجم البلدان ومعجم الشعراء ومعجم الأدباء وغير ذلك من الكتب المفيدة وكان ثقة في النقل توفي سنة ٦٢٦ بظاهر مدينة حلب (٢) نسبة عربي له كتاب الجهرة في النسب وله مصنفات كثيرة كلها في أخبار العرب توفي سنة ٢٠٤ (٣) هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب جد الملوك من بني العباس . من فقهاء الصحابة الممتازين بتفسير القرآن توفي في خلافة ابن الزبير سنة ٦٨

جميع أقطارها وأطرافها فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر وذلك أن
الفرات (١) أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين (٢) ثم انحط على أطراف
الجزيرة وسواد العراق حتى وقع بناحية البصرة (٣) والآلة (٤)
وامتد إلى عبادان (٥) وأخذ البحر في ذلك الموضوع مغرباً مطيقاً ببلاد العرب منعطفاً
عليها فأقى منها على سفوان (٦) وكاظمة (٧) إلى القطيف (٨) وهجر (٩) وأسياف
البحرين (١٠) وقطر (١١) وعمان (١٢) والشحر (١٣) ومال منه عنق إلى حضرموت (١٤)
وناحية أيين (١٥) وانعطف مغرباً منصباً إلى دهلك (١٦) واستطال ذلك العنق فطمعن

(١) نهر عظيم ينبع من بلاد أرمينية ويمر على كثير من المدن العظيمة حتى إذا قارب
البصرة اتحد بدجلة وصبا معاً في خليج عمان من بحر الهند (٢) قنسرين مدينة جنوبى حلب
وكانت اسماً لكورة عظيمة من ضمنها مدينة حلب فتحت سنة ١٧ هـ
(٣) مدينة عظيمة على مجتمع دجلة والفرات قريباً من المصب في خليج عمان مصرت
أيام عمر بن الخطاب سنة ١٤ هـ

(٤) بلدة على شاطئ الهيرين في زاوية الخليج الذي يدخل مدينة البصرة
(٥) مدينة في الجزيرة المتكونة عند مصب دجلة في خليج عمان منسوبة إلى عباد
ابن الحصين وكثيراً ما ينسب أهل البصرة بإضافة ألف ونون إلى آخر المنسوب إليه
(٦) ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة وهو أول منزلة بجادة البصرة إلى البحرين
(٧) جوق على سيف البحر وهي المنزلة الثانية في جادة البصرة إلى البحرين (٨) مدينة
بالبحرين وهي قصبتها (٩) مدينة بالبحرين وقيل وهي اسم كورة من كور البحرين
قصبتها الصفا (١٠) اسم جامع لبلاد على ساحل خليج بين البصرة وعمان وكانت هي
وعمان في أيام بنى العباس عملاً واحداً . وسيف البحر ساحله (١١) قرية على سيف
الخط بين عمان والعقير وهذه بخذاء هجر (١٢) كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند
وتسمى إلى البحرين وقصبتها مدينة صهار (١٣) صقع على ساحل بحر الهند بين حضرموت
وعمان (١٤) ناحية واسعة في شرقي عدن وجولها رمال الأحقاف ومدينتها الكهري
شباب (١٥) مخلاف باليمن منه عدن (١٦) جزيرة في بحر اليمن وهو مرتقى بين بلاد اليمن
والحبشة وكانت منى في زمن بني أمية

في تهائم اليمن بلاد فرسان^(١) وحكم^(٢) والأشعريين^(٣) وعك^(٤) ومضى إلى جدة^(٥) ساحل مكة والجار^(٦) ساحل المدينة ثم ساحل الطور^(٧) وخليج ايلة^(٨) وساحل رايه^(٩) حتى بلغ قلزم^(١٠) مصر وغالط بلادها وأقبل النيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً للبحر حتى دفع في بحر مصر والشام ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين^(١١) فزبعتلان وسواحلها وأتى صور^(١٢) ثم سواحل الأردن^(١٣) وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى غالط الناحية التي أقبل منها القرات منحطاً على أطراف قنسرين والجزيرة^(١٤) إلى سواد العراق

وهذا التحديد وإن كان سهل علينا فهم تسمية البلاد العربية بالجزيرة يقتضى أن ولايات الشام كلها معدودة من جزيرة العرب وهذا غير مرضى عند المؤرخين فإنهم

- (١) جزيرة من جزائر اليمن بالقرب من ساحله الجنوبي
- (٢) قبيلة قحطانية تنسب إلى حكم بن سعد من قضاة ثم من حمير ينسب إليهم
- (٣) قبيلة قحطانية تنسب إلى الأشعري بن ادد من كهلان بن سبا
- (٤) قبيلة قحطانية تنسب إلى عك بن عدنان من الأزدي ثم من كهلان (٥) فرضة على ساحل بحر القلزم بينها وبين مكة مرحلة
- (٦) فرضة على ساحل بحر القلزم وهي جنوبي ينبع (٧) شبه جزيرة في شمال خليج القلزم وهي كورة مصر (٨) مدينة على ساحل بحر القلزم وهي آخر حدود الحجاز وكانت منزلة للجماعة بين مصر ومكة (٩) كورة من كور مصر البحرية (١٠) مدينة كانت على منتهى الخليج المبتدئ من المنذب وبها سمي الخليج والمسافة بينها وبين الفرما التي كانت على بحر الروم مقدار القناة والأولى في مكان السويس والثانية في مكان بورسعيد (١١) آخر كورة من كور الشام من ناحية مصر قصبها البيت المقدس ومرفؤها يافا ولها من ناحية مصر رفح وهو الحد بين مصر والشام ومن موانئها عسقلان (١٢) مدينة من أعمال الأردن على ساحل بحر الروم بينها وبين عك ستة فراسخ (١٣) كورة من كور الشام منها طبرية وصور وعك وما بين ذلك والأردن نهر يصب في بحيرة طبرية (١٤) وهي الجزيرة بين دجلة والفرات وتسمى جزيرة أفر

يحتون بلاد العرب من الشمال بالجزيرة وبلاد الشام وفلسطين فهذان غارجان عنها وإن كان العرب قد سكنوا قبل الإسلام جزءاً مهماً من بلاد سوريا كما سكنوا جزءاً من الجزيرة وعلى ذلك لا بد من القول أن هناك تسامحاً في إطلاق لفظ الجزيرة في البلاد العربية

أقسام الجزيرة الطبيعية :

قسم العرب جزيرتهم إلى خمسة أقسام بحسب طبيعتها وهي :
تهامة - الحجاز - نجد - اليمن - العروض

فأما تهامة ويقال لها الغور فهي الأراضي التي على شاطئ بحر القلزم ممتدة عرضاً إلى سلسلة جبل السراة وسموها تهامة لشدة حرها وركود ريحها من التهم وهو شدة الحر وركود الريح : يقال تهم الحتر إذا اشتد وسموها غوراً لانخفاض أرضها ، وأما الحجاز فهو سلسلة جبل السراة الممتدة من أقصى اليمن إلى الشام في عرض أربعة أيام ^(١) يزيد كسريوم في بعض المواضع وقد ينقص مثلها في أخرى فبدأ هذه السراة من أرض اليمن أرض المعافر وهي قبيلة قحطانية كانت تسكن شرقي عدن ثم تمتد حتى تبلغ الشام وتقطعها الوديان في بعض جهاتها ، وإنما سميت حجازاً لأنها حجزت بين الغور ونجد

وأما نجد فهو مادون ذلك الجبل إلى شرقيه يبتدى جنوباً من أدنى حدود اليمن وينتهي إلى السماوة وينتهي من الشرق إلى العروض وأطراف العراق وسمى نجداً لارتفاع أرضه

وأما اليمن فهو ما كان جنوبي نجد إلى ساحل بحر الهند ويمتد شرقاً إلى حضرموت والشحر وعمان وفيه التهامم والنجد

وأما العروض فينتظم بلاد اليمامة والبحرين وما والاها وفيه نجد وغور لقربه من البحر وانخفاض مواضع منه ومسائل أودية فيه وسمى عروضا لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق

(١) اليوم أربعة وعشرون ميلاً أو ثمانية فراسخ والفرسخ ٤٤٤٤ م لأن محيط الأرض عند خط الاستواء تسعة آلاف فرسخ وهو ٤٠٠٠٠ ك وتكون الأربعة أيام ١٤٢ ك تقريباً

الوصف الطبيعي لجزيرة العرب :

أرض جزيرة العرب كثيرة الجبال الجرداء المختلفة اللون ومنها الحار
جمع حرة وهي الجبال السوداء التي كأنها فحم محترق ويتخلل هذه الجبال
كثير من الوديان أهدتها السيول ليجرى فيها ماؤها والصحارى الرملية
المتراصة الأطراف

فما كان من أرضها قريبا من هذه الوديان أخصب وأنبث الكلاب والمرعى فتتمكن
أهله من الإقامة فيه حيث يجدون ما يشربون ويسيمون فيه أنعامهم وما بعد عنها أقفر
ولم يصلح للسكنى

وأعظم واد ببلاد العرب الدهناء وهو الوادى الذى فى بلاد انى تميم بيادية
البصرة يمر فى بلاد بنى أسد فيسمونه منعجا ثم فى غطفان فيسمونه الرمة ، وهو
أول نجد . ويصب فى الرمة أودية أخرى أكبرها وادى الجريب والعرب تقول
على لسان الرمة

كل بنى فانه يحسبى ء إلا الجريب فانه يروينى

ثم يمر فى بلاد طيء فيسمونه حائلا وهو واد فى جبل طيء ثم يمر فى بلاد كلب
فيسمونه قراقر ، ثم فى بلاد تغلب فيسمونه سمودى وإذا انتهى اليهم عطف إلى بلاد
كلب فيصير إلى النيل وهو نهر يتخارج من العرات الكبير يخترق بلدة اسمها النيل فى
سواد الكوفة ومتى أخضبت الدهناء ربت العرب جميعا لسعتها وكثرة شجرها ،
طيبة التربة ، طيبة الهواء

وببلاد اليمن كثيرة الوديان منها ما يقطع السراة حتى ينتهى إلى البحر ومنها ما هو
على عكس ذلك الاتجاه

فن أعظم الوديان المتجهة إلى البحر وادى مور وهو ميزاب تهامة الأعظم ويتلوه
فى العظم وبعد المأتى وادى زيد ، ومن أعظم الوديان المتجهة إلى الشرق ميزاب اليمن
الشرقى وهو يضارع مورا ويصب فيه كثير من الوديان وهو الذى يفضى إلى موضع
السدسد مأرب ويسقى بعدها أرض الجنتين وأرض السبئين

وهناك وديان كثيرة فى الجوف بين الجبلين

العرب تسمى المواضع التى يستنقع فيها الماء رياضا وهو جمع روضة وذلك الاسم

خاص بما يكون في الأرض الواطئة فإن كانت في أعلى البراق (١) والقفاف (٢) فهي السلقان واحدها سلق وإذا جاءت المياه أنبتت ضروباً من العشب والبقول لا يسرع إليها الهيج والذبول وإذا أعشبت تلك الرياض وتتابع عليها الوسمي (٣) ربتت العرب ونعمها وربما كانت الروضة واسعة يكون تقديرها ميلاً في ميل فإذا عرضت جداً فهي قيعان وقيعة واحدها قاع وأصغر الرياض مئة ذراع وكل روض يفرغ إما في روض وإما في واد. وحدائق الرياض ما أعشبت منها والتف وقد ذكر ياقوت من رياض العرب ١٣٦ روضة في جهات مختلفة وهي المعروفة بأسماء أصحابها

ولهم مياه يسمونها الاحساء والحساء جمع حسي وهو موضع رمل تحته صلابة فإذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة أن يفيض ومنع الرمل السائم أن تنشمه فإذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء .

ولما كانت مياه هذه الأودية لا تستحاج الجزيرة كان الجذب أغلب عليها ولا سيما أن كثيراً من مياهها يفيض في باطن الأرض فلا يمكنهم الانتفاع به إلا بصناعات ومعاناة لم يكونوا من أهلها إلا ما كان من بلاد اليمن التي أمكنها فيما مضى أن تتحكم في مجارى الوديان فتوجهها إلى جهة ثم تبنى سداً محكماً يحجز الماء خلفه في أرض صلابة للانتفاع به حين الحاجة فلا يتسرب إلى رمال الصحراء ويفيض في الأرض ولهذا عدت اليمن قديماً من البلاد المخصبة المستعمدة لأن تزرع فيها المزروعات الدورية وتنتبت فيها الأشجار الباسقة حتى أطلقوا عليها اسم العرب الخضراء

أما ما عداها فإن شمال الحجاز تقل به هذه الوديان وجل اعتماد أهلها على العيون الضئيلة التي لا تروى إلا الشارب مع الجهد وربما جادهم الغيث فنتبت الكلاب في بعض سهولهم القريبة من الوديان - وأما نجد والعروض ففيهما وادي الدهناء وما يصب فيه من صغار الأودية ، ولكن الانتفاع بجميع مائه غير ميسور لأن الكثير من

(١) البرقة أرض ذات ألوان مختلفة وجمعها البراق وقد ذكر ياقوت ١٠٠ برقة من براق الجزيرة (٢) القفاف جمع قف وهو ما ارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلاً (٣) وسمى أول مطر يصيب الأرض والثاني يسمونه الولي

مائه يفيض في الرمال وربما تأخر المطر فاشتدت الحال بمن يقيم عليه من القبائل
ومن هنا قلنا كان العرب في بواديهم يبقون في مكان واحد وإنما يتبعون مواقع
القطر أنى كان لتربيع أنعامهم وتفرج كرتها
وحاجة العرب الدائمة إلى الرحيل أكسبتهم النشاط والخفة إلى العمل لما استدعيه
ذلك من كثرة شد الرحال والتسيار

ولما كانت قلة الماء وعدم انتظامه يستدعيان - بحكم الضرورة - عدم الاعتماد
على ما تنتبه الأرض من المزروعات الدورية التي لا تصلح للإنسان كان جل اهتمام
أهل البادية على إنعامهم ولاسيما الإبل منها يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسبون
جوهرها وتحمل أثقالهم في تلك الصحارى المقفرة إلى ما يرومون من الجهات أما بلاد
اليمن فإنها كانت تزرع لكثرة المياه هناك والتمكن من الانتفاع بها والمدن بها أكثر
من أى جهة أخرى في الجزيرة لأن تمدن المدن في غير السواحل البحرية يعتمد على
المياه الوفيرة وسهولة الحصول عليها

جو البلاد

أما ما كان من الجزيرة تهاياً مجاورشواطئ البحر فالحرارة فيه شديدة مع الرطوبة لمكان
البحر وأبخرته منها وكذلك يشتد الحتر في الجبال إذا صهرتها الشمس بحرارتها خصوصاً
الحرار منها السوادلونها ويشتد بالجبال البرد في الشتاء حتى ضربت العرب بشدته الامثال
أما نجد فما كان منها مجاوراً للأودية ومسائل المياه فإن الهواء يكون به معتدلاً
وما بعد عنها حره أكثر

وجو اليمن وهو أوفه معتدل في فصل الشتاء والخريف ، أما الربيع ففيه المطر الكثير
والرطوبات التي تستمر زمناً طويلاً ويشتد به الحر في فصل الصيف

مجاج الجزيرة

في هذه الجزيرة طرق من الحواضر الكبرى إلى مكة وغيرها وكل طريق منها يسمى
محجة ومعرفة هذه المحاج مفتاح لما استغلق من عبارات أصحاب التقويم من العرب
فإنهم إذا عرفوا بقرية أو جهة جعلوا المحجة أساساً لذلك التعريف فيقولون هي على
جادة البصرة أو الكوفة أو عن يمن السائر إلى البصرة أو الكوفة فإن لم يكن للمطلع علم
بذلك كانت جدواه قليلة

وقد فصل هذا الجواد أبو محمد الحسن بن أحمد الحمداني المتوفى سنة ٣٢٤ في كتابه وصف جزيرة العرب وبين منازلها وما بين كل منزلتين من الأميال ودرجة عرض كل منزلة وأوضحها أيضاً عبيد الله بن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك . ومن أعظم هذه الجواد جادة بغداد منها إلى مكة مارة على المدينة وبها ٣٤ منزلة وطولها ٨٣٠ ميلاً ، وجادة الكوفة إلى مكة وهي تفارق الأولى من معدن القرة في الشمال الشرق من المدينة وهي بعد ٩٨ ميلاً منها

وجادة البصرة إلى مكة مارة بالمدينة وهي تتحد مع جادة الكوفة في معدن القرة الذي يلي منزلة النجاج وجادة البصرة إلى مكة ولا تمر بالمدينة ومنها في الجنوب جادة صنعاء النجدية وعدد منازلها ٢٢ ومقدار أميالها ٤٢٠ : وجادتها التهامية وعدد منازلها ٢٢ كالأولى

ومنها محجة عدن تلتقي مع محجة صنعاء في منزلة اسمها عثر بعد سير ١٦ منزلة ولحضرموت محجتان منها العليا وتتقابل مع محجة صنعاء في صعدة ومنها السفلى وتتقابل مع محجة صنعاء في تبالة وتمر على نجران ومنها محجة البصرة إلى البحرين على ساحل خليج عمان (انظر الخريطة)

(الشعوب العربية)

العرب قبائل شتى ترجع في نسبها إلى شعبين عظيمين الأول شعب قحطان والثاني شعب عدنان

فأما شعب قحطان فهذه بلاد اليمن وقد تشعبت قبائله وبطونه من سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان فكان منه بطون حير وأشهرهم زيد الجمهور وقضاة والسكاسك ومنه بطون كهلان وأشهرهم همدان وأنمار وطيه ومدحج وكندة ولخم وجذام والأزد الذين منهم الأوس والخزرج وأولاد جفنه ملوك الشام : وكانوا يسمون مقاماتهم باليمن مخاليف والواحد منها مخلاف ويضاف إلى اسم القبيلة التي اختلفت به ذكر منها ياقوت ٣٦ مخلافاً

وكان الملوك المتقدمون قد فكروا في الاستفادة بمياه السيول التي تنقذ في بالوديان فيذهب الكثير منها هباء في جوف الأرض أوفى البحر فأقاموا بآبار سدأ

وصفه ياقوت نقلا عن شيخ من أهل صنعاء قال هو بين ثلاثة جبال يصب ماء السيل إلى موضع واحد وليس لذلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة فكان الأوائل قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة الرصاص فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من مياه السيول فيصير خلف السد كالبحر ، فكانوا إذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه إذا أرادوا ويظهر أنه لما تطاولت الأزمان على ذلك السد أهمل من شأنه فتصدعت جوانبه ولم يحمل هجمات السيول المتواردة عليه والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه فانكسر وفاضت المياه على ما أمامه من القرى والمزارع فأتلفها وكان ذلك سنة ١٢٠٠ ق م كما قاله العالم سيديو وهنا اختلفت كلمة المؤرخين من العرب فهم من يقول إن هجرة أهل مأرب كانت قبل أن يهدم السد ، لأن كاهنة أخبرت رئيس القوم بما سيحدث فصدموا وهاجر بأهله وولده ومن تبعه من عشيرته ومنهم من قال إن الهجرة إنما كانت بعد أن خرب السد وأتلف الأرض والمزارع ولم يمكنهم إعادة السد كما كان فتعرضت البلاد لهجمات السيل ولم تعد تصلح للزراع كما كانت

ونحن نرجح الرأي الأخير لسببين

الأول أن مفارقة البلاد عند النفس عدل مفارقة الروح وكلاهما أمر مكروه شنيع فيبعد جداً أن يقدم عليه شخص هو وأولاده وعشيرته لمجرد خير لا يقطع أملاً خصوصاً أنه سائر إلى بلد لم يخبره

الثاني أن الكتاب لما نص علينا هذه القصة في السورة الرابعة والثلاثين قال (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل حط وأثل وشيء من سدر قليل) فهذا واضح في أن سيل العرم أصابهم وبدل من شكل أرضهم وهم يقيمون بها وعن سار على هذا الرأي العالم سيديو

كانت هجرة أهل مأرب بناء على رأى كبيرهم وسيدهم عمران بن عمرو من بقايا سيد ولد الأزد من كهلان خرج هو وإخوته ومن معهم من عشائرهم من ولد الأزد يرتادون مواضع من الجزيرة تصلح لسكاهم فصاروا ينتقلون في بلاد اليمن ويرسلون الرواد ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال

فمطف ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز فأقام بين الثعلبية وذى قار يتبع هو ومن معه من أهله وولده مواقع القطر ولما كبر ولده وقوى ركنه سار نحو المدينة ونها ناس من بني إسرائيل متفرقون في نواحيها فاستوطنوها وأقاموا بها وغلبوا أهلها بعد عليها فابتنوا الآطام وغرسيخيل ، والنو من أبناء ثعلبة هذا الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة وتخرج عنهم عند خروجهم من مأرب حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - بمن معه وافتحوا الحرم وأجلوا عنه سكانه من جرم

عطف عمران بن عمرو مفارقا لقومه نحو عمان وقد كان انقرض من بها طسم ووجد يس فنزلها وأستوطنها هو وبنوه وهم أزد عمان

وسارت قبائل نصر بن الأزد - وهم قبائل كثير - نحو تهامة وهم أزد شنوءة وسار جفنة بن عمرو إلى الشام وأقام بها هو وبنوه وهو أبو الملوك الغساسنة نسبة للغسان وهو ماء كان بنو مازن بن الأزد نزلوا عليه فنسب هؤلاء اليه

ومن ترك اليمن من كهلان ثم من بني أدد بن زيد قبيلة لحم بن عدى الذين معهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة وأول من اتخذها منهم منزلا - عمرو ابن عدى بن نصر الذي ملك بعد جزيمة الوضاح

ومنهم طيء . ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجليلين أجأ وسلى لما رأوه هناك من الخصب وهذان الجبلان في الشمال الشرقي من المدينة ويخترقهما وادى الدهناء ولهما ذكر كثير في أشعار العرب الطائيين لماهما من المنعة والحصانة وبهما كانوا يستهينون بسلطان الملوك من بني نصر : قال شاعرهم عارق الطائي

ومن مباح عمرو بن هند رسالة * إذا استحقبتها العيس تنضى من البعد
أي وعدني والرمل بيني وبينه ؟ * تأمل رويدا ما أمامة من هند
ومن أجأ حولي رهان كأنها * قبائل خيل من كبيت ومن ورد
ومنهم قبيلة كلب بن وبرة من قضاة أقامت بيادية السمارة وهي في آخر شمال نجد
وتنصل بأطراف العراق ويخترقها وادى الدهناء

هكذا تفرقت هذه القبائل اليمانية واحتلت أخصب الأراضى العربية الشمال والغرب
وتبقى باليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم وكان لحمير السيادة على البلاد
ومنهم الملوك والأقيال .

المحاضرة الثانية

شعب عدنان وتفرقه - معيشة العرب من بدو ومن حضر
حال العرب الاجتماعية

شعب عدنان

أما شعب عدنان فهده مكة وماجاورها من أرض الحجاز وتهامة فإن عدنان -
باجماع كلمة المؤرخين من العرب - ينتهى نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم الذى جاء مكة
وساكن جرم وصاهرهم والكتاب ينسب اليه وإلى أبيه بناء البيت الحرام (ولاذيرفع
إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ولم تزل
أبناء إسماعيل بمكة تتناسل هناك حتى كان منه عدنان وولده معد ومنه حفظت العرب
العدنانية أنسابها ، ويقال لبطون هذا الشعب المعدية والنزارية

وقد تفرقت بطونه من نزار بن معد فنه أباد وربيعة ومضر وهذان هما اللذان
كثرت بطونهما

وكان من ربيعة قبائل كثيرة لها شهرة وذكر عظيم فى تاريخ العرب حيث كانوا
يتاصون مضر فى الشرف والرفعة ، ومنهم كان أكثر الخوارج فى الإسلام
ومن ربيعة عبد القيس ابن أفضى ومنها بكر وتغلب ابناوائل . ومن بكر حنيفة
وعجل ابناالجيم

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين قيس عيلان بن عيلان بن مضر ، وبطون الياس
ابن مضر

وقيس عيلان بطونها كثيرة ، فمنهم بنو ساهم بن منصوره وبنو هوازن وبنو غطفان
ومن غطفان ذبيان وعبس ابنا بنغيض وأشجع بن ريث وغنى بن أدصر
واقترقت أولاد إلياس فمنهم بطون تميم بن مرة وهذيل بن مدركة وبنو أسد بن
خزيمة : وبطون كنانة بن خزيمه ، ومن كنانة قريش وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر
ابن كنانة

وقد انقسمت قريش إلى قبائل شتى من أشهرها جمع وسهم ابناصيص بن كعب

وعدي بن كعب ومخزوم بن يقظة بن مرة وتيم بن مرة وزهرة بن كلاب وعبدالدار
ابن قصي وأسد بن عبد العزى بن قصي وعبد مناف بن قصي

وكان من عبد مناف أربع فصائل : هبشمس ونوفل وعبدالمطلب وهاشم . وبيت
هاشم هو الذي كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب بن هاشم ، والعباسيون
أولاد عباس بن عبد المطلب والعلويون أولاد علي بن أبي طالب بن عبد المطلب

مساكن العدنانية

لما تكاثروا أولاد عدنان رأوا أن البلاد التي نبتوا بها لم تعد تكفيهم فأخذوا يهجرونها
متتبعين مواقع القطر ومناكب العشب

فهاجرت عبدالقيس - من ربيعة وبطون من بكر بن وائل - إلى البحرين فأقاموا
بها وكان معهم بطون من تميم ومنهم كان أمير هذه الجهة من قبل الفرس حين مجيء
الإسلام وذلك الأمير هو المنذر بن ساوى من بني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم
وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن علي بن بكر إلى اليمامة فنزلوا بحجر قصبه اليمامة وكان
أميرهم عند مجيء الإسلام هوذة بن علي الحنفي الذي يقول فيه الأعرابي

من ير هوذة يسجد غير منثب إذا تعمم فوق التاج أو وضعا

له أكاليل بالياقوت فصلها صواغها لا ترى عيبا ولا طبعا

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول لم يتزوج معدى قط وإنما كانت التيجان لليمن فسأله
أبو هبيدة عن هوذة فقال إنما كانت خرزات تنظم له وكان هوذة يجير لطيمة كسرى
في جنبات اليمامة

وأقامت سائر بكر بن وائل في طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة
إلى البحر فأطراف سواد العراق فالابتلة فهيت وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ومنها
بطون كانت تسكن بكرأ وسكنت بنو تميم ببادية البصرة وأقامت بنو سليم بالقرب
من المدينة من وادي القرى إلى خيبر إلى شرقي المدينة إلى حد الجبلين ، إلى ما ينتهي
إلى الحرة فتلك ديارهم لا يخاطبهم إلا بضم الألف

وسكنت ثقيف بالطائف وهو ازن في شرقي مكة بنواحي أوطاس - وهي على

الجادة بين مكة والبصرة

وسكنت بنو أسد شرق تيماء وغربي الكوفة بينهم وبين تيماء ديار بختر من طيء
وبينهم وبين الكوفة خمس ليال

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران وبقي بتهامة بطون كنانة وأقام بمكة
وضواحيها بطون قريش إلا أنهم متفرقون لأنجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصي بن
كلاب لجمعهم وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم

بدو العرب وحضرم

ينقسم العرب - بالنسبة إلى مساكنهم - إلى حضروم سكان المدن . وبدو : وهم
الذين يقيمون في البادية . إنما مساكنهم بيوتهم الشعرية لا يصفو عيشهم إلا في ذلك
الجو الفسيح - لا يحجب فيه عنهم السماء ولا الهواء وغذاؤهم اللبن ولحم الجزور :
وقد يطلق المؤرخون عليهم خاصة اسم الأعراب ، وهو ما استتبعه . ويغلب على خلق
هؤلاء الناس البساطة وجفاء القول وذلك هو ما يسمى بالعنجهية

أما الحضرم : فهم سكان المدن وقد كان بالجزيرة مدن كثيرة أكثرها ببلاد اليمن
فكان فيها مأرب وصنعاء ويقول عنها اليمنيون أنها أقدم مدينة على وجه الأرض :
وفيها زيد وعدن وصعدة ومخا وشبام وغير ذلك ، وفي شمال اليمن مكة : وهي تهامة
والطائف والمدينة وهما حجازيتان وخيبر : وفي نجد حائل وفي العروض حجر -
قصة اليمامة - والقطيف بالبحرين وأهل المدن لا يظنون عن مقامهم لا في صيف ولا في شتاء

تجارة العرب

كانت للعرب تجارات يتبادلون بها حاجهم وكانت لهم أسواق شهيرة يجتمعون فيها
من كل صوب لشراء ما يبيعون ويبيع ما تحصلون عليه من نتائج بلادهم وكانت لسكسرى
والنعمان لطائم يرسلها إلى نواحي الجزيرة لتباع فيها يحميها من غارات الأعراب كبير
من كبار العرب تحمل البز والثياب وما يحتاجه العرب : وكان لقريش رحلتان تجاريتان
إحدهما للشام في زمن الصيف . والآخرى لليمن في زمن الشتاء : وبلاد اليمن كانت
تتجر بمحاصلات أرضها مع الحبشة والهند وبلاد فارس ولهم مرافق تجارية كبيرة ولم
يعرف للأمة العربية نقود كان بها التعامل ، وإنما كانوا يتعاملون بنق د الدولتين
المجارتين لها وهما الفرس والروم

صناعة العرب

أما الصاعات فكانوا أبعد الامم عنها حتى أن البدو مهم كانوا يحتقرونها ويعيبون المحترف بحرفة وإذا تأملنا ما كان يلهم به جرير للمرزوق وكلاهما من نيم لانجده أكثر من أن أحد أبناء الفرزدق كان محترفاً بحرفة هي جلاء السيوف وكان المعديون يعيبون أهل اليمن بدباغة الجلود لأن القرظ لما كان كثيراً في جهة صنعاء استعملوه في دبغ الجلود واستعمالها فيما تصلح من العمال وغيرها ، وكذلك حياكة الثوب ويقول قائمهم هم ابن داغ جلد وناج برد ، وكان نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل - وكاوا يرجمون في صناعة النساء إلى عمال من الروم أو الفرس كما يعلم ذلك من نساء الكعبة في زمن قريش وبناء الخورق في زمن العمان : وأمهر من اشتغلوا بالصناعات هم أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام وكلهم من عرب قحطان

(أحوال العرب)

قد حصرنا أحوال هذه الأمة التي تمثلها لنا أكبر تمثيل في الأحوال الاجتماعية والأدبية والسياسية والدينية ، ونعني بالاجتماعية ما كان للفرد منهم من العلاقة بأهله وولده وبنى عمه دنيا : ثم ما كان من العلاقة بين القبائل المختلفة ونعني بالأدبية ما كان لهم من الأحلاق التي توارثها خلفهم عن سلفهم فعرفوا بها ، ونعني بالسياسة ما كان لهم من الاستقلال بحكم أنفسهم أو التسعة لغيرهم ونعني بالدينية بيان معتقداتهم وما كانوا يعظمونه من بوث العبادة

حال العرب الاجتماعية

الرجل في أهله - ونريد بالأهل خصوص الزوج
يظلم العربي من زعم أنه كان يظن إلى المرأة نظرة استخفاف أو إهانة فإننا إذا كنا نستقي تلك المعاملات من شعرهم الذي هو ديوان أخبارهم نرى الأمر على العكس من ذلك فقد كان الرجل إذا أراد أن يتمدح بماله في نظر العرب المقام السامى من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاه إلا المرأة التي إن رقى في نظرها فقد رضى الناس كلهم عنه ، وترى ذلك اضخاً حلياً في أشعار حاتم الطائي شيخ الكرام وعنترة العنسي شيخ الشجعان ثم انظر إلى أي شجاع من العرب هـ ، كان ، لا

يوما فيكتب في إحدى الجرائد قلت لامرأتى واستشرت امرأتى في زواج بقتى فكان منى
ومنها كيت وكيت لوقال هذا القابله النفوس بالاستنكار لأنه ليس من مألوف عادات القوم
من ذلك يمكننا أن نقول إن علاقة الرجل العربى بأهله كانت على درجة من الرقى
أكثر مما يخيل إلينا وكان لها من حزية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر وسيطر
بكم كثير من آثارها الكبيرة فى الإسلام وهى مما يزيدنا تأكداً من هذا الرأى إلا أن
الرجل كان يعتبر - بلا نزاع - رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها وكان الرجل يرتبط
بالمرأة بعقد الزواج بعد رضاه أو لياثها ولم يكن من حقها أن تفتن عليهم بذلك وهذا
الزواج هو ما عليه جمهورهم

وكانت عندهم أنواع من اجتماع الرجل بالمرأة قاصرة على ذوى الدعارة من الشبان
الذين لا يخلو منهم زمان أو مكان لم يكونوا يطلقون عليها إلا السفاح واتخاذ الأخدان
ولم يكن ذلك أمراً مستحسننا عند جمهورهم إذ المعروف عن العربى من غيرته على أهله
ومحافظته على شرفه - يبعد ذلك

فمن الخطأ بعد ذلك أن يقال إن الزواج كان عندهم على أنواع ويدرج فى ضمن هذه
الأنواع تلك المساحات

وكانوا يعددون بين الزوجات إلا أنه لم يكن هناك حد معروف إليه ينتهى الأمر
فى هذا التعدد فقد ورد فى الصحيح أن غيلان الثقفى أسلم وتحتة عشرة نسوة
وكانوا يطلقون والطلاق بيد الرجل إلا أنه كان هناك نساء امتزن بشرف قومهن
فكنن يشترطن عند التزوج أن تكون الفرقة بأيديهن

وكانت عندهم اجتماعات تعقدها شفار السيوف وأسنه الرماح فكان إذا قابل أحد
منهم آخر معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من قبيلة لها معها حاف تقاتلا فإذا قهر
صاحب الظعينة أخذت منه سبية فاستحلها بذلك الغالب ولكن الأولاد الذين تكون
هذه أمهم يلحقهم العار فى مدة حياتهم ولذلك كان من مفاخر الرجل منهم أن تكون أمه
حرة نسبية لا سبية جلية وإن كان قد بذ غيره بشجاعته اعتمدوا على هذه الشجاعة
فى نفي العار عنه كما قال عنتره :

إنى امرؤ من خير عبس منصباً شطرى وأحى سائرى بالمنصل
وكان كبراء العرب يترفعون عن ذلك خشية إلحاق العار بأولادهم وهم يريدون

لهم الشرف حتى كانوا إذا أمنوا على أولادهم ذكروا في أول ذلك أنهم تخيروا أمهاتهم
وكانوا يقولون العرق دساس

وكانوا يجرمون أنواعا من الاجتماعات : كزواج البنت والأخت والعمة والحالة
ومن غرائب ما يحكونه عن اقيط بن زرارة أحد أشراف بني تميم أنه تزوج بنته
دختنوس ولعله يكون قد تأثر بمذاهب الإباحيين لمجاورته للفرس والصحيح عند
المؤرخين أنه إنما كان يحبها ويتيمين برأيها ولذلك كانت تسكون معه في غزواته
أمام معاملتهم لأبنائهم فكانت معاملة من يربي الولد ليكون له درعا حصينة يتق
بها العدو ولذلك كانوا يتخيرون لهم شر الأسماء من كلب وأسد وثور وفهر وما شاكل
ذلك وكان لهم من الحق على الأولاد ما يعبر عنه قول أحدهم

وإنما أولادنا يئنا أكبادنا تمشي على الأرض

وعرف عن بعض رجال من العرب أنهم كانوا يشدون بناتهم «وإذا بشر أحدهم
بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم» يتوارى من القوم من سوء ما يبشر به أيمنسه
على هون أم يدسه في التراب ، ولم يكن هذا في جميع العرب بل كان في بعض بطون من
تميم وأسد ولم يكن بالطبع إلا في طبقة محدودة منهم لأن ذلك إنما كان يفعله من يفعله
منهم خشية الفقر وإلى ذلك الإشارة في قول السكناج (ولا تقتلوا أولادكم خشية
إملاق نحن نرزقهم وإياكم)

وكان هناك من أشراف تميم قبل الإسلام من كره الوأد وعابه وكان يشتري
البنات ممن يريدون وأدهن بنوق تذهب عنهن الفقر والخوف منه وعرف ذلك عن
غالب بن صعصعة جد الفرزدق

ولا يمكننا بعد ذلك أن نعد هذا الوأد من الأخلاق المنتشرة التي تعد على الأمة
العربية بل إنما تعد على أولئك الأفراد الذين اجترأوا عليها

أما معاملة الرجل لأخيه وبني عمه دنيا فيبينها هذه الجملة التي قالوها نصر أخاك
ظالماً أو مظلوماً ، وكانوا يسرون عليها بمعناها الحقيقي من غير التعديل الذي جاء
به الإسلام لأن الإسلام فسّر نصر الظالم بكفه عن ظلمه أمامه فكانوا ينصرون
لأخوانهم وبني عمهم نصراً حقيقياً على كل حال في صوابهم وخطئهم وعدلهم وظلمهم
والذي يتأخر منهم عن هذا الانتصار تقابله السنة الشعراء بما يغض من كرامته

وينقصه من قدره وربما أصاب الذم القبيلة جمعا من جراء حادثة لم يقوموا فيها
بنصر أحدهم كما قال شاعرهم

لو كنت من مازن لم تستبح لإبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذا لقام بنصرى معشر خشن عند الحفيظة إن ذو لوثه لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا
لكن قوسى - وإن كانوا ذوى عدد - ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لحشيتيه سوام من جميع الناس إنسانا

وإذا دخلت قبيلتان منهم فى حلف كان لكل فرد من إحدى القبيلتين النصره على
أفراد القبيلة الأخرى ، وهذا الحلف قد يعقده الأفراد وقد يعقده رؤساء القبائل
والأمر واحد فى الحلفين

بينما هذه حالهم فى بنى أبيهم دنيا وفى حلماهم إذا بك تراهم حينما تتشعب البطون قدنافس
بعضهم بعضاً فى الشرف والثروة فتجد القبائل يجمعها أب واحد ، وكل واحدة قدوقعت
لاختها بالمرصاد تنتهز الفرصة للغض منها والاستيلاء على موارد رزقها وترى العداء قد
بلغ منها الدرجة التى لا تطاق كما كان بين بطنى الأوس والخزرج وبين عبس وذبيان وبين
بكر وتغلب وبين عبد شمس وهاشم وكما تراهم فى الجملة بين ربيعة ومضر وبين قيس وكنانة
وبين القحطانية والنزارية فكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها
العصية حياة ونمواً وكانت مفقودة تماماً بين القبائل المختلفة فكانت قواهم متفانية فى
حروبهم والسبب فى ذلك يرجع إلى أمرين :

الأول - التنافس فى مادة الحياة بين بنى الأب الواحد فإننا نعلم أن حياة العرب
كانت على مراعيهم التى يسمون فيها أنعامهم وعلى مناهلهم التى منها يشربون وهى
محل نزاع دائم لأنه لم يكن يوجد عند العرب حقوق ملكية محترمة فى الكلاب والماء
وأكثر ما يبتدىئ ذلك النزاع بين رعاة الإبل القائمين بشأنها فإنهم قد يتنازعون فىمن
يرد الماء أولاً أو فى نفس المراعى فيتجاوزهم النزاع إلى ساداتهم فلا يجدون من
الافتراق بدأ فيزح أحد الأخوين عن داره مرغماً إلى مكان آخر هو وأولاده ومن

يلوذ به ولا يكون ذلك إلا بعد أن يشعر الراحل بقوة منازعه فينزح وفي النفس أثر من الغضب يورثه الآباء للأبناء فيتناقلون بينهم أحاديث عن أسباب الخلاف والظلم بحسبها النقل ، وإذا تقارب مكان البطنين كان العداة أبقى : وهذا أمر نشاهده في ديارنا بين البلدين اللذين كان أصلهما واحداً ثم انفصل قسم من أهله عن الباقيين : رأيت بلداً من مديرية المنوفية يذهب جميع من فيه مذهب الإمام مالك في عبادتهم ، وجميع البلاد المحيطة بهم يذهبون مذهب الإمام الشافعي ، فاستغربت ذلك وسألت ذوى الأسنان منهم عن سببه فأخبروني أن أهل هذا الكفر كانوا من أهل ذلك البلد الذي يجاوره ، فلما حصل النزاع والخلاف وغلب أهل الكفر على أمرهم استقلوا بأنفسهم وتركوا البلد وما فيه حتى مذهب أهليه

السبب الثاني - تنازع الشرف والرياسة وأكثر ما يكون ذلك إذا مات أكبر الإخوة وله ولد صالح يكون موضع أبيه فينازع أعمامه رئاسة العشيرة ، ولا يسلم أحد منهما الآخر فيورثهما ذلك تباغضاً تزيده الأيام شدة ، وقد يفارق رئيس أحد البيتين الديار مضمراً في نفسه ما فيها من العداوة والبغضاء ، وقد يبقيان متجاورين وفي هذه الحال يكون التنافر أشد كما كان بين الأوس والخزرج سكان المدينة وكما كان بين هاشم وأميه بمكة وبين عبس وذيبيان من قيس وبين بكر وتغلب من ربيعة ودارم ويربوع من تميم

ولذلك نرى الحروب الهائلة والأيام المعدودة إنما كانت بين القبائل المتقاربة في الأنساب ، المتقاربة في الامكنة

ولم يكن لهم نظام يلجأون إليه في الحكم بين المتنافرين في الرئاسة والشرف إنما كانوا في بعض الأحيان يلجأون إلى حكم منهم قد عرف بأصالة الرأي ويقدم كل من المتنازعين بين يديه بمساعدة مرديه ما يشرفه في النفوس ويعظم أمره من نحر الجزر وإطعام الطعام وكانت تكون المصيبة أشد إذا حكم الحكم لأحد الفريقين لأن ذلك إنما كان يزيد نار العداة ضراما

وإذا كان الحكم عارفاً بدخائل العرب سوى بينهما في الفضل والشرف كما فعل قاضيهم حينما حكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ابني العم فإنه قال لها أنتما كركبتي البعير وهذا حكم لا يحسم النزاع ولا يعدم كل منهما أن يجده شاهرأبليه ويزيد

في نفسه نكرة الجاهلية كما فعل الأعشى في هذه القضية فإنه قال القصائد الرنانة يفضل بها عامراً ويزعم أن الحكم قضى له وبما كان يزيد في هذه النيران شدة السنة الشعراء فقد كان هم الواحد منهم أن يرفع عقيرته بكلمة شعرية يعتد بها مفاخر قبيلته ومثالب القبيلة الأخرى وإذا زل أحد أفراد القبيلة زلة عدوها على القبيلة بأسرها ووسمها بتلك السمة حتى إذا قرأنا مجموعة من أشعار هؤلاء الغاوين وجدنا العرب كلها مثالب ونقائص لأن كل شاعر يعتد بمثالب القبيلة التي تعادى قبيلته المعترف لها بالتبريز في السيادة وفيها اليوتات الكريمة قد وسمت على لسان شاعر بما يستحي الإنسان من إنشاده ولم تسلم من ذلك الشريعة واحدة

وهي وجد النفور بين جماعتين أو بين شخصين لا يحاج شوب نار الحرب بينهما إلى أسباب قوية لا يمكن حلها بل أيسر النزاع بين فردين من أفراد القبيلتين كاف لشوب نار الحرب وتيتم الاطفال وتأييم النساء لذلك كانت الجزيرة دائمة الحروب والمنازعات قلما يخلو منها زمان أو مكان وإذا رجعت إلى أسبابها المباشرة وجدتها في بعض الأحيان تافهة كما كان في حروب الفجار وفي البعض الآخر تراها أموراً يمكن حلها على أسهل الوجوه كالحروب بين عيس وذبيان وبين بكر وتغلب ولكن الأسباب الحقيقية سابقة على ذلك هي النفور المأصل في القلوب لما ذكرناه



المحاضرة الثالثة

حال العرب السياسية

كان حكام الجزيرة - من هذه الجهة - قسمة القسم الأول منهم ملوك متوحون إلا أنهم يرجعون إلى ساطان أعظم منهم فهم في الحقيقة غير مستقلين والقسم الثاني : رؤساء عشائرهم ما للملوك من الحكم والامتياز إلا أنهم ليسوا أرباب تيجان وهؤلاء قد يكونون على تمام الاستقلال وقد تكون لهم تسمية ملك متوج

القسم الأول

الملوك المتوجون

ملك اليمن

إذا نظرنا إلى المولد بإرجاع التاريخ إلى الأزمان المترامية إلى الوراء وتحديد ما أودعها - السنين والأيام - منها من تدهنات لا نشعر أن هذا يدور هذه التحديدات على مجرد خيالات وظنون لا تعنى من الحق شيئاً

يقولون إن قحطان بن عابر المعبّر عنه في البوراء يقظان هو أول من سكن اليمن من بني سام بن نوح وكانت الأرض خلاء ويتبع هذا الكلام أنه كان ملكاً متوجاً لبس التاج سنة ٢٠٣٠ ق م فتكون النتيجة أنه كان ملكاً على نفسه أو على أولاده ثم ملك بعده ابنه يعرب وهو من أعظم ملوك العرب ولا يدرون أن الذي يعطونه هذا اللقب لاتزيد رعيته عن ثلاثين من إخوته وبنيه

والمسعودي صاحب مروج الذهب المتوفى سنة ٣٤٦ يقول فيه إن أول من يعد

من ملوك اليمن سبأ وهو الفرع الثالث لقحطان ويذكر أنه ملك ٤٨٤ سنة ثم يحكون أقاصيص عن ملوك اليمن وضحامة ساطانهم وهي بالخرافات أشبه فيروون عن الرايش بن قيس أحد ملوكهم أنه غزا الهند ثم رجع إلى اليمن وعاد فذهب إلى بلاد طي. ثم على الأنبار والموصل ثم أرسل أحد أتباعه إلى أذربيجان فغزا وغنم.

سلطانه إلى ما يجاوز مخالفه ثم يرجع الأمر إلى ما كان عليه إذا ضعفت قوة المتغلب في حياته أو ضعفت قوة أعقابه

وكانت حير وكهلان في قحطان بمنزلة ربيعة ومضر في عدنان شعبان يتنافسان في الملك والسطوة وقد قسموا البلاد بينهم مخاليف لكل بطن أو عدة بطون مخلاف يتسع ويضيق حسب قوة القبيلة وضعفها ولكل مخلاف رئيس من القبيلة يحكمه غير أن مخلاف صنعاء كان أضخم هذه المخاليف وأخصبها فكان رؤساؤه يدعون بالملوك وقد يعظم فهم الرجل بعد الرجل فيوسع سلطانه إلى ما وراء مخالفه بما يتاح له من القوة فإذا أمكنه بسط سلطانه على حضرموت والشحر سموه تبعاً لا يستحق هذا اللقب غيره ، حتى إذا ضعفت تلك القوة في أيام هذا المتغلب أو في أيام أبنائه عاد الأمر إلى ما كان عليه ورجع سلطان المخاليف الأخرى إلى ذوى السيادة فيها وكانوا يسمون بالأقبال والواحد قيل

ومن هذا يظهر ما بين الملك والملك من السنين الطويلة فيغتر بعض المؤرخين ويجعل للسابق مدة حكمه والفترة التي كانت بينه وبين الملك الذي يليه فربما جعلوا حكم الملك . . . سنة وأكثر كما قدمناه عن المسعودي
ومن أشهر ملوك اليمن بلقيس ملكة سبأ وقد ورد حديثها في التوراة بلقب ملكة سبأ وفي القرآن بهذا اللقب أيضاً

فذكرت التوراة أنها وفدت على سليمان بن داود ملك إسرائيل ورأت عظمة ملكة وسمعت حكته . والقرآن ذكر هذه الوفادة وفي سياق الحكاية ما يدل على أن ملك اليمن لم يكن بملك الضخامة التي تبعث صاحبها على غزو البلاد النائية والاستيلاء عليها فقد خافت الملكة لما جاءت رسالة سليمان حيث قالت (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) وقال سليمان لما أرسل إليها مهتداً (ارجع إليهم فلنأتيتهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) وملك سليمان عليه السلام لم يكن يتجاوز فلسطين وما حوالها من تلك الأصقاع : فهذا الخوف من ملكة اليمن وذلك التهديد من ملك فلسطين مع ما بينهما من البعد الشاسع ؛ وهو طول جزيرة العرب يجعلنا نفهم مقدار القوة التي كان عليها ملوك اليمن إذ ذاك . ومن اشتهر من ملوكهم يوسف ذونواس وكان يهودياً

قرأى أن بعض رعيته بنجران يدينون بالدين المسيحي اتباعا لدعاة أرسلهم الامبراطور الروماني منذ سنة ٣٤٣ م فلم يكن من ذى نواس إلا أن مثل بهم حرقا بالنار سنة ٥٣٤ هـ ولما علم بذلك امبراطور الرومان (جوستين) أمر النجاشي صاحب الحبشة المتدين بالنصرانية أن ينتقم من ذوى نواس فبعث إليه قائدا حبشيا اسمه أرياط فتغلب على صنعاء ولما رأى ذلك ذونواس أغرق نفسه في البحر خشية العار وظل أرياط حاكما على صنعاء من قبل ملك الحبشة ثم اغتاله قائد من قواده اسمه أبرهة وحكم بدله بعد أن استرضى ملك الحبشة فرضى عنه وأبرهة هو الذى جند الجنود لهدم الكعبة وكان يريد أن يصرف الناس عنها إلى بيت بناه بصنعاء فأصابه هو وجنده بمكة ما أصابهم من الأمراض الثقيلة وقد بينها ابن هشام (١) في سيرته بأنها الحصبة والجدرى : وروى أن هذا كان أول حصولها بمكة فعاد منه زمان وتوفي بعد عودته وأشار القرآن إلى هذه الحادثة في سورة الفيل وحكم بعد أبرهة يكسوم ابنه ثم ابنه الثانى مسروق

كان فى ذلك الوقت من أولاد ملوك اليمن القحطانيين من يتطلع إلى نيل الملك ولا يقعه إلا العجز وهو سيف بن ذى يزن الحميرى فرأى من الضرورى أن يستنجد بأحد الملوك العظمين ملك الروم أو ملك الفرس : ولكنه أخفق فى استنجاهه بملك الروم فاستنجد ملك الفرس وهو كسرى أنوشىر : ان فوعده كسى خيرا ثم شغل عنه حينئذ من الزمن فمات سيف (٢) فذهب ابنه معد يكرب إلى كسرى يستنجزه وعده فأشار على كسرى كبراء دولته أن يعين معد يكرب لما كان لهم من الأمل فى امتلاك اليمن فأهدره بجند يقوده أحد الاساورة واسمه وهرز فركوا هرا كهم من الأبله وقطعوا خراج عمان حتى أتوا شواطئ حضرموت فنزلوا من إحدى فرضها وتوجهوا إلى صنعاء وقد تبعهم كثير من القحطانيين فقاتلهم الحبشة فانتصروا وهرز ومن معه على الحبشة وأجلوهم عن البلاد

وحينئذ توجه وهرز معد يكرب ملكا على اليمن وأبقى معه جندا من الفرس كانوا يسمون بعد بالأبناء وينسب إليهم فيقال ابناوى

(١) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميرى المتوفى سنة ٢١٨ جمع سيرة محمد بن إسحق

رئيس أهل المغازى المتوفى سنة ١٥١ وسيرته من أجمع السير وأضبطها وعليها معول من كتب بعد فى السير (٢) بعض المؤرخين يروى أن سيفها هو الذى ملك اليمن لا ابنه

وقد وفدت الوفود على ابن ذى يزن يهنئونه بعودة الملك ، وعن وفد عليه عبدالمطلب ابن هاشم شيخ مكة وكبيرها وهو جد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم كان معد يكرب قد أتى معه من الحبشة جمعا يخدمونه ويمشون في ركابه فاغتالوه ذات يوم وبموته انقطع الملك من بيت ذى يزن إلا أنه لما علم كسرى بقتله أرسل وهرز ملكا على اليمن من قبله وما زالت الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم بادان الذى كان على عهد الفتح الإسلامى لبلاد اليمن وكان باذان ممن أجاب إلى الإسلام فجاء الإسلام وصنعاء لإيالة فارسية يحكمها كسرى بعامل من عماله يؤدى له الخراج ولم يكن ملكة عاما بل كان هناك أقبال آخرون يحكمون في مخاليفهم وكتب إليهم النبي صلى الله عليه وسلم كتباً مستقلة بصفاتهم أقبالا كما كتب إلى السمان قيل ذى رعين ومعاقر وهمدان وكما كتب إلى الحارث بن عبد كلال وأخيه . وكان لكندة بحضرة موت رؤساء مستقلون يشبهون الملوك

الملك بالحيرة

بعد أن انهزم دارامك الفرس أمام الاسكندر المقدوني في سنة ٣٣٢ ق . م انحطت المملكة الفارسية عن درجة عظمتها السامية وتولاها ملوك يعرفون في تاريخ الفرس بملوك الطوائف وكان للاسكندر أغراض في هذه التجزئة وهى أن يسجل على بلاد الفرس ضعفاً أبدياً لا يتمكنون معه إعادة الكثرة على أملاك اليونان وقد نجح في هذه الفكرة فإن ملوك الطوائف لم تكن لهم تلك القوة المجتمعة التى كانت للفرس من قبل واستمر ملوك الطوائف يحكمون البلاد الفارسية مجزأة بينهم إلى سنة ٢٣٠ م وهو الوقت الذى نبغ فيه أردشير بن بابك وشكل الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفة بالدولة الساسانية أو دولة الآكاسرة

وفي عهد ملوك الطوائف كانت هجرة العرب من اليمن بعد سيل العرم واحتلوا جزءاً مهماً من ريف العراق كان قبل ملكاً للدولة الفارسية ثم لحقهم بعد استقرارهم من هاجر من ولد عدنان فزاحمهم في تلك الجهات وسكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية فلما نبغ أردشير وجدد المملكة الفارسية وأدخل جميع مخالفيه من الفرس تحت طاعته وأعاد تلك القوة التى كانت لهم من قبل رجع إلى العرب المقيمين على تخوم ملكه فاستولى عليهم وصاروا من رعيته وكان هداسيبا في رحيل جمع من قضاة إلى الشام . رد نله

أهل الحيرة والانبار . وفي عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الواضح على الحيرة وسائر من بادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر وكان أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة ويمنعهم من الإغارة على تخوم ماكة إلا بأن يملك عليهم رجلا منهم له عصبية تؤيده وتمنعه ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم وليكون عرب العراق أمام حرب الشام الذين اصططعهم ملوك الرومان وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جنود الفرس يستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية وكان يطلق على تلك الكتيبة دوسر (يظهر أنها تعريب دوشير وترجمته أسدان وهما شارة راية الفرس)

ولجذيمة هذا خبر ظريف مع آل أذينة ملوك العرب بشمال الجزيرة ومشارف الشام فإنه غزا ملكهم المسمى عمرو بن الظرب وقتله وكان له بنت تسمى الزباء احتالت عليه حتى جاءت به إلى بلادها وقتلته وكان له ابن أخت اسمه عمرو بن عدى فأراد أن يأخذ منها بالثأر فأعمل الحيلة إلى ذلك بواسطة أحد المكرة من قومه المسمى قصيراً فسار قصير إليها حتى عرف مداخل مدينتها وما عملته في قصرها للهرب عند الحاجة ثم استأذنها ليحجى بتجارة من العراق فذهب وأمر عمرأ أن يسير معه بجند ولما قاربوا مدينتها أدخلوا الرجال في الغرائر على الإبل ودخلوا مدينتها بهذه الحيلة ولما أدركت جلية الأمر ذهبت لتدخل المكان الذي أعدته لهربها فأدركها عمرو فصت سما وقالت بيدي لا بيد عمرو ؛ ولما وقعت أجهز عليها عمرو

وهذه الحكاية مع غرائبها يشكر صحتها المؤرخون من الإفرنج ؛ ويقولون إن الزباء هذه كانت ملكة على تدمر من قبل الرومانيين ولت الملك بعد وفاة زوجها أذينة من بين السميدع الذين سكنوا بلاد العراق وبراى الشام وحوران وانتهى أمر الزباء بأن حاربها الرومان في عهد القيصر أووليانس وقهروها وأخذوها أسيرة إلى رومية حيث قضت هناك نحبا وذلك في المدة بين سنتي ٢٧٠ ، ٢٧٣ م وموت جذيمة كان حوالي سنة ٢٦٨ م

وبعد موت جذيمة ولي أمر العرب عمرو بن هدى بن نصر اللخمي وهو أول ملوك اللخمين بالحيرة وهدتهم من سنة ٢٦٨ م إلى سنة ٦٣٢ م وهي السنة التي فتح فيها خالد بن الوليد مدينة الحيرة وعلى ذلك تكون هدمتهم سنة ٣٦٤ إلا أن الملك قد انقطع

فيها عنهم مرتين كما تراه بعد . وكان ابتداء ملك عمرو في عهد سابور بن أدشير ولم تزل الملوك من بني نصر تتوالى على الحيرة حتى ولى الفرس قباذ بن فيروز وكان قد ظهر في زمنه مذهب الإباحية في بلاد الفرس على يد أحد فلاسفتهم المدهو مزدك فوجد المذهب رواجاً وتبعه خلق كبير ومنهم الملك قباذ فأرسل إلى ملك العرب بالحيرة وهو المنذر بن ماء السماء يدعو إلى أن يكون على ذلك المذهب فأبى عليه ذلك حمية وأنفة ولما رأى ذلك قباذ عزله عن ملك الحيرة وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر السكندی الذي كان أميراً على قبائل بكر بن وائل وقد ملكه بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكي

ولم يزل ملكاً حتى مات قباذ وخلفه كسرى أنوشروان وكان يكره هذا المذهب جداً ويراه مضرراً للبلاد وبأنساب أهلها وتربية أبنائها فقتل مزدك وكثيراً من دان بهذا المذهب من الفرس وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة وطلب الحرث بن عمرو وكان بالأنبار وبها منزله فهرب بأولاده وماله وهجانه فتبعه المنذر بالخييل من تغلب وإياد وبهراء فلاحق بأرض كلب فنجا وانتهبوا ماله وهجانه وأخذت تغلب ٤٨ نفساً من بني حجر آكل المرار وفيهم عمرو ومالك ابنا الحارث فقدموا بهم على المنذر فقتلهم في ديار بني مرينا وهم الذين يعينهم عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته
وأبوا بالتهاب وبالسبأيا ٥ وأبوا بالملوك مصفدينا
ولم يزل حارث في دار كلب حتى مات

ولما كان بالحيرة جاءه أشراف من نزار وطلبوا منه أن يولى أمرهم بعض ولده فملك ابنه -حجرا على بني أسد بن خزيمه وعطفان وملك ابنه شرحبيل على بكر بن وائل بأسرها وملك ابنه معديكرب على قيس عيلان وملك ابنه سلمة على تغلب والنمرين قاسط وبني سعد من نعيم . ولم يكن هذا الملك بالشئ الموطد لأن قبائل البدو لا تتحمل وما يستدعيه ولذلك قامت بنو أسد على حجر بن عمرو وقتلوه بعد أن ظهر له منهم عسفه وشدته وكان من نتيجة قتله أمر ابنه امرئ القيس وقيامه لاخذ النار عن قتلوا أباه وكان يريد أن يملكهم قسراً فأب بالفشل بمد خطوب طويلة كانت عليه في ذهابه إلى ملك الروم واستنجاده به على قلة أبيه
ولما عاد الملك إلى المنذر بن ماء السماء استمر في عقبه حتى كان النعمان ابن المنذر

المكثي بأبي قابوس صاحب النابغة الذبياني وهو الذي غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدى العبادي انتقاماً منه بحبسه أباه حتى مات فلما أحكم زيد الأمر واشتد غضب كسرى على النعمان وأرسل إليه يطلبه يخاف النعمان عاقبة الأمر وأيقن أنه هالك إن توجه إلى المدائن فذهب يتنقل في أحياء العرب يريد منهم أن يحمره من كسرى فأبت عليه القبائل ذلك ولم يزل متنقلاً حتى ورد ذا قار ونزل على بني شيان سرا فلقى هاني بن مسعود الشيباني وكان سيداً منيعاً والبيت من ربيعة في آل ذي الجدين لقيس بن مسعود أخى هاني وكان كسرى أطعمه الأبله فكره النعمان أن يرفع إليه أهله لذلك وعلم أن هاني يمنع مما يمنع منه أهله وولده فأورداه أهله وماله وتوجه إلى كسرى فحبسه حتى مات وولى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائي وهو من أشرف طي وأمره أن يرسل إلى هاني بن مسعود فيطلب منه تسليم ما عنده فأبى ذلك هاني حمية وآذنوا الملك بالحرب وأمر إياس أن يسير إليهم بالجنود ومعه مرزابة كسرى وكتائبه ولما دنت الفرس من بني شيان قال لهم هاني "يا معشر بكر لا طاقة لكم بحرب كسرى فاركبوا إلى الفلاة فأسرع الناس إلى ذلك فقام حنظلة ابن ثعلبة العجلي وقال يا هاني أردت نجاةنا فألقيتنا في النهلكة وردت الناس وقطع ورضن الهوادج وضرب على نفسه قبة وأقسم أن لا يفر حتى تفر القبة فرجع الناس وانتظروا مجيء الفرس حتى جاءتهم . وكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها بنو شيان وانهزمت الفرس هزيمة منكرة وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم وهو بعد ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم بقليل فإنه عليه السلام ولد ثمانية أشهر من ولاية قبيصة على الحيرة

وكان مع إياس قائد من قواد الفرس وبعد موته ولى كسرى على البلاد حاكماً فارسياً كما فعل في بلاد اليمن بعد موت معديكرب

وفي سنة ٦٣٢ عاد الملك إلى آل الحخم فتولى منهم المنذر الملقب بالمغرور وكانت ولايته إلى أن قدم عليه خالد بن الوليد ثمانية أشهر وهو آخر من بقي من بني نصر بالعراق جاء الإسلام وملك العرب بالحيرة ضعيف جداً كما كان في اليمن لأن الملك كان عاملاً للفرس يأتمر بأمرهم ويؤدى لهم الخراج وإذا شاء ملوك الفرس أبقوه وإن شاءوا عزلوه . ولم يكن ساطراً على فئات البدو سلطاناً تاماً وإنما كان اسماً

لأن العرب كثيراً ما كانوا يخالفون أمره بل ويقومون في وجهه محاربين وكان
أحياناً ينتصر عليهم إذا قاموا في أمم كنهم وأحياناً يخفق لأنهم يتركون منازلهم
ويجتمعون بباديتهم فلا يمكنه أن يتبعهم

وما يدل على مقدار سلطانهم على رؤساء العشائر العربية أن عمرو بن المنذر بن
ماء السماء وأمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندي قال يوماً لجلسائه هل تعلمون
أحدنا من العرب يأنف أن تخدمه أمى قالوا ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم
التغلبى فإن أمه ليلى بنت مهلهل وعمها كليب وائل وزوجها كلثوم وابها عمرو فسكت
عمرو على ما فى نفسه ثم أرسل إلى ابن كلثوم يستزيره ويأمره أن تزور أمه هنداً
بنت الحارث أم الملك فقدم ابن كلثوم فى فرسان من قومه تغلب ومعه أمه ليلى فنزل
على شاطئ الفرات وضرب ابن هند خيامه بين الحيرة والفرات وصنع لأهل ملكته
طعاماً وجلس هو وابن كلثوم ووجهاء الدولة داخل السرادق وليلى أم عمرو مع هند
فى القبة وقد قال ابن هند لأمه إذا فرغ الناس من الطعام فنهى خدمك عنك فإذا
دنا الطرف فاستخدمى ليلى ومرىها أن تناولك الشىء بعد الشىء ففعلت ما أمرها به
ابنها فلما استدعى الطرف قالت هند لليلى ناولينى ذلك الطبق قالت لتقم صاحبة الحاجة
إلى حاجتها فألحت عليها فقالت ليلى : واذلاه يا آل تغلب فسمها عمرو بن كلثوم
فتار الدم فى وجهه والقوم يشربون وقام وتناول سيف ابن هند وهو معلق فى
السرادق وليس هناك سيف غيره فأخذه وضرب به رأس ابن هند فقتله وقال فى
ذلك شاعر التغلبين :

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا
فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلنا
وقال ابن كلثوم فى معلقته :

بأى مشيئة عمرو بن هند
بأى مشيئة عمرو بن هند
تهددنا وتوهدنا رويدا
فإن قناتنا يا عمرو أعبت
تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
نكون لقلبك فيها قطينا
متى كما لأمك مقتوننا
على الأعداء - قبلك - أن تليسا

المحاضرة الرابعة

الملك بالشام — الإمارة بالحجاز — الحكم عند العرب

الملك بالشام

في العهد الذي سار فيه عرب اليمن إلى ريف العراق كان من قضاة قبائل سارت إلى مشارف الشام وسكنت بها لأنها أرض خصبة يمكنهم أن يعيشوا فيها وكانوا من بني سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجهم بن سعد بن سليح ويقال لهم الضجاعة نسبة إلى أبيهم ضجهم وكانت هذه البلاد تحت ملك الرومان بعد غزوات الإسكندر المقدوني وفوحاته فاصطنعهم الرومان لينعوا عرب البرية من العيث وليكونوا عدة ضدانرس وولواهم ملكا ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهولة وقد مكثت الضجاعة عهدا طويلا يلون أمر العرب حتى أقبل عليهم بنو جفنة الغسانيون بمن معهم من دشائهم يقدمهم جفنة بن عمرو مزيقيا فغالب السليحيين على ما بيدهم واتصر عليهم قوله الروم ملكا على عرب الشام الذين كانوا يقيمون بنواحي الشام وكان هذا العصر عصر اضطراب في المملكة الرومانية ويسمى في تاريخهم مدة الفوضى العسكرية وانتهت سنة ٢٨٦ م

ولم تنزل الملوك تتوالى من آل جفنة على الشام وما يليه من بادية العرب بصفتهم عمال الملوك الروم حتى جاء الإسلام وكانت واقعة اليرموك سنة ١٣ من الهجرة وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جلة بن الأييم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان في جفنة بالشام مدينة اقتبسوها من الروم فبنوا كثيرا من المصانع والأديرة لأنهم كانوا يدينون بالدين المسيحي وكان حسان بن ثابت كثيرا ما يمدحهم لأنه ينتمى إلى أصلهم وهو الأزد وله فيهم المدح الجليلة منها قوله

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

يفشون حتى ماتهم كلابهم لايسألون عن السواد المقبل
وكان لآل جفنة مواقف معدودة انتصروا فيها للروم على الفرس وصدوا عنهم
ملوك الحيرة من آل نصر ، فكان بين البيتين أيام هائلة منها يوم عين أباغ (وهي
واد وراء الانبار على طريق الفرات - إلى الشام) كان بين المنذر بن ماء السماء وبين
الحرث الأعرج بن أبي شمر جبلة وهو من أعظم ملوك الغسانيين وكانت الغلبة في
هذا اليوم لآل جفنة مع أن المنذر هو الذي بدأ بالشر لأنه كان يريد من خصومه
أن يدفعوا له الفدية بمعنى أنهم يعترفون له بالقوة عليهم وفي هذا سقوطهم أمام الروم
الذين اصطنعهم

وكان من نتيجة هذا اليوم أن الأسود بن المنذر لما ولي بعد أبيه أراد الانتقام
له لجهاز جيشا تحت قيادته وسار إلى أن أتى مرج حليمة وهناك قابلته جيوش الغسانيين
وكان لهؤلاء الظفر أيضا

الإمارة بالحجاز

كان يلي أمر مكة ولاة من جرم قحطان - وهي جرم الثانية - ولما جاء اسماعيل
مكة مع أبيه إبراهيم صاهرم : وكان لأولاد اسماعيل بعد أبيهم مركز محترم لما
لأبيهم من بناء البيت وإن لم يكن لهم من الحكم شيء . ولما ارتحل الأزدي من مأرب
بعد السد ، كان منهم من عرج على مكة وهو حارثة بن عمرو الملقب بخزاعة وحارب
جرم فاتصر عليهم وأجلاهم من مكة حتى قال قائلهم :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفاه أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى : نحن كنا أهلها فأبادنا ه صروف الليالي والحدود العوائر

ووليت خزاعة أمر مكة حيناً من الزمن وفي وقت حكمهم تناسل العدنانيون وكثروا
وانتشروا في نجد وأطراف العراق والبحرين ، وتبقى بمكة أولاد فهر بن مالك وهو
قريش وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء تهي بن كلاب وهو
الاب الخامس لمحمد بن عبدالله ﷺ فجمع شتاتهم ووجد كلمتهم فكانت لهم بذلك
قوة أمكنهم أن يزاحموا بها خزاعة ويتغلبوا على أمر مكة ، وما لم يبق إلا أمر ولاية
البيت أخذه تهي من سادته المكنى بأبي غبشان وهو صهر قصي ، ويقال إنه اشتراه
منه بزق نحر ، ولم يكن يمكنه مثل هذه الصفقة إلا بالقوة التي كونها من عصية فهر

ابن مالك وبهذا كانت له السيادة النامة والامر النافذ في مكة ، وصار الرئيس الديني لذلك البيت الذي كانت تفد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة ، ومن مآثر قصي تأسيس دار الندوة بمكة وكانت بجمع قريش وفيها تفصل مهام أمورها ولهذا الدار فضل على قريش لأنها ضمنّت لهم اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى : وكان لقصي من مظاهر الرئاسة والتشريف :

(١) رئاسة دار الندوة ففها يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور
ويزوجون فيها بناتهم

(٢) اللواء فكانت لاتعقد راية الحرب إلا بيده

(٣) الحجابة وهي حجابة الكعبة لايفتح بابها إلا هو وهو الذي يلي أمر خدمتها

(٤) سقاية الحاج ورفادته : ومعنى السقاية أنهم كانوا يملأون للحاج حياضاً من

الماء يحلونهابشئ من التمر والزبيب ، فيشرب الناس منها إذاوردوا مكة : والرفادة طعام كان يصنع للحاج - على طريق الضيافة وكانت قريش تساعد قصباً على ذلك بما تقدمه له من الخرج الذي تخرجه كل سنة

كان كل ذلك لقصي بن كلاب وكان ابنه عبدمناف قدساده في حياة أبيه فأرادأبوه أن يلحق بهابنه عبدالدار الذي كان أسن من عبدمناف فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش ، فلم ينازع عبد مناف أخاه لاحترامه وصية أبيه : ولما مات كان له أربعة من الولد وهم هاشم وعبدشمس والمطلب ونوفل فنافسوا بني عمهم عبد الدار في هذه المصالح التي رأوا أنفسهم أحق بها لشرفهم وسيادتهم وكثرة عددهم وبذلك ابتداء النزاع بين بني العم ، وسببه المنافسة في الشرف وافترة قريش فرقتين : فرقة تساعد بني عبدمناف وفرقة تساعد بني عبدالدار ؛ وكاد يكون بينهم قتال لولاأنهم ألهموا الصالح على طريق لايفض من الطرفين وهو اقتسام هذه المصالح لجلوا لبني عبدالدار الحجابة واللواء والندوة ولبنى عبد مناف السقاية والرفادة . ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت لهاشم بن عبدمناف فكان هو الذي يليها ومن بعده بنوه حتى جاء الإسلام والامر على ذلك

وكانت لقريش مصالح أخرى لاتسارى هذه في العظم - وزعت بين قبائل قريش وبذلك كانت مصالح الحكم والولاية موزعة بين رؤساء القبائل المختلفة من قريش

حتى لا يكون هناك مجال للنزاع وهذا ما حفظ قريشاً عما أصاب سائر العرب من التنازع والقتال إلا أنهم وإن لم يصابوا بعصية الحروب لم يسلبوا من المداخلة التي تكون حتماً بين كبراء البيت الواحد إذا كان لكل واحد ما يساعده على الشرف والرئاسة وقد حدث ذلك بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبد شمس فقد كان هاشم سيداً بماله من المصالح الكبرى في قومه وكان أمية مثرياً من المال والولد ولذلك كان ينافس عمه رئاسة قريش فكان بذلك جفاءً بين البيتين وأعقابهما حتى جاء الإسلام ولكن لم يصل هذا النزاع يوماً إلى حد شوب القتال بينهم لأن البيت القرشي كان يحاذر على احترام البيت ومنع الحرم من سيلان دم فيه لأن ذلك لو وقع لانهط المركز السامي الذي نالوه بواسطة ولايتهم للبيت فإن مكة كانت معروفة عند العرب بأنها حرم آمن من الجأ إليه فقد نجا من عدوه وكانت أشهر الحج عندهم أشهر أحرماً يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب ذلك البيت العظيم وداخل حدود الحرم والناس تهرع إلى هذه الأسواق من جهات العرب كافة لأنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم فإذا أخل ولاية الحرم بهذا العهد الوثيق قل احترامه من القلوب وسقطت هيئته فيجتري عليه غيرهم وبذلك يزول عنهم نفع عظيم كان ينالهم؛ فن هنا كان التحكيم في الأمور العظيمة من ألوف عاداتهم ولما حصلت الحرب بين قيس وكنانة واضطرت قريش إليها اضطراراً سميت العرب حرب الفجار لما كان فيها من انتهاك حرمة الحرم والقتال على حدوده وبما امتازت به قريش حلف الفضول وكان مداره على أن ترد كل مظلمة بمكة إلى صاحبها لا فرق في ذلك بين قرشي وغيره وهي روح تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصية تثيرها

جاء الإسلام وقريش على هذه الحال من السيادة والاحترام تعترف لها بذلك جميع العرب الحكم عند الأعراب في بواديهم

كانت القبائل في نجد ما كان بالقرب من الحيرة تبعاً لملك العرب بالحيرة وما كان منها في بادية الشام تبعاً لملك آل جفنة بالشام إلا أن هذه التبعية - بالنسبة لقبائل البادية - كانت اسمية لا فعلية لأن العرب لا يطبقون أحكاماً كما ملوكياً يقيد حريتهم التي ليس عندهم ما يمد لها

وكان لهذه القبائل رؤساء منهم تسودهم القبيلة لما يظهر على أيديهم من الفعال

وأعظم مسود كان عديم الشجاعة والكرم والحلم ثم الثروة والعدد فتي وجدت هذه الصفات في رجل ساد العشيرة كلها ، وكانت تبعاً لرأيه يوجهها أنى شاء ! تقيم بإقامته وتظعن بظمنه ، وإذا دعا الحرب لا تأخر عنه وإذا غنمت القبيلة أخذ حقوق الرئاسة والسيادة من الغنيمة بعدها لما يطرأ من النوائب وما يتحملة من الحملات فكان له المرباع والصني والنشيطة والفضول : فالمرباع ربيع الغنيمة والصني ما يصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة والنشيطة ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم ، والفضول ما فضل من السقمة مما لا نصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما : قال بعض الشعراء يخاطب بسطام بن قيس سيد شيدان

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

وقد يورث الأب الرئاسة لابنه فإذا توالى من البيت الواحد ثلاثة رؤساء سادة عرف البيت بالشرف والمجد ، وكان بيت قيس في الجاهلية في بني فزارة ومركزه حذيفة بن بدر ، وبيت تميم في بني دارم ومركزه حاجب بن زرارة ، وبيت ربيعة في آل ذي الجذنين ، ومركزه قيس بن مسعود الشيداني : وكان لهؤلاء الرؤساء من السلاطين ما يشبه سلاطين الملوك في رعاياهم إلا أنهم كانوا لا يتتوجرن حتى كان بعضهم إذا غضب غضب لغضبه ألوف من السيوف لأنسأله فيم غضب ! وكان في بعض الأحيان يعظم قدر الرئيس ويشد ساعده بولده وعشيرته فيغزو القبيلة الضعيفة ويجعلها خاضعة تؤدي له خراجاً كل سنة ، كما كان زهير بن جذيمة سيد عبس — من قيس مع هوازن وهم بطرن من قيس فإهم كانوا يؤتونها الاتاوة كل سنة بمعاظ وكان النعمان بن المنذر قد صاهره فتزوج ابنته المتجردة

ومن ساد من العرب هوذة بن علي الحنفي سيد بني حنيقة باليمامة والمنذر بن ساوى التيمي — سيد عبد القيس : وتميم بالبحرين

وعلى الجملة : فقد كانت درجة رؤساء القبائل في قومهم كدرجة الملوك ولولا ما كان يحصل من المنافسة في السيادة بين أبناء العم من الرؤساء لكان تحكم السادة شديداً ، ولكن تلك المنافسة كانت تدعهم إلى بذل الندى وإكرام الضيف والدفاع عن العشيرة ليشتهر ذلك على السنة الشعراء منهم فينتفون بأسمائهم مادحين : والشعر كان له أعظم التأثير في قلب العربي يحركه كما يحرك الهواء ريشة في الجو !!

المحاضرة الخامسة

الحال الأدبية

الأخلاق - اللغة

الأخلاق

الخلق هو الملكة التي بها يصدر الفعل عن صاحبها من غير مقاومة وقد اصطلح الكتاب على أن يقصروا لفظ الخلق على الملكات النفسية كالشجاعة والجلد والسخاء والبخل ، وعلى أن يطلقوا لفظ العادات على الملكات الأخرى كالمشي واللعب النظامي

عموم الأخلاق

لا يحسب الخلق على الأمة إلا إذا كان مألوفاً عند أفرادها بفعله فاعله منهم من غير أن يحاذر تكبراً أو يخشى لومة لائم ولو لم يباشره جميعهم ولذلك عدت من مذام الأمم - التي بها تستحق السقوط والخذلان - أنهم لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ومن هنا قال الله تعالى في الكتاب (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لأن الشرير يفعل فلا ينكر عليه أحد فيشترك هو ومن معه في الجريمة . فإن كان الشر معروفاً عن فرد أو جماعة يستسرون به أو يعلنونه مع اشمئزاز الجمهور منهم كانت المذمة قاصرة على الفاعلين لا تعدوهم إلى الأمة بأسرها ، وحينئذ يكون من الخطأ عد هذا الخلق على الأمة : كذلك لا يحسب الخلق للأمة إلا إذا كان فاشياً بين أفرادها مألوفاً عند جميعهم لا يخالفه أحد منهم إلا مستسراً ويخاف المذمة إن ظهر بالخالفة أمام الجمهور ، وعلى هذه القاعدة نسير في بيان الأخلاق عند العرب

من الأخلاق التي كانت للعربي سرعة الانفعال والإقدام على المكاره تراه ساكناً مطمئناً فلا تحتاج في هيجه إلا إلى كلمة صغيرة أو فولة حتميرة يتخيل معها أن قدم شرفه فتجده زار كالأسد خرج من مكمنه لا يتربث حتى يستطلع جلية الأمر ، بل يقدم منكباً عن ذكر العواقب جانباً وهذا الخلق أكثر ما تراه في قبائل البادية الذين كانوا لا يخشون سجيناً ولا أحكاماً قاسية من جراء أفعالهم ، بل هم بالعكس ينتظرون

النصر المؤزر من أقوامهم وحافاتهم ، والنفس إذا أحست بما يضرها انفعلت وتنبأ لها طريق الانتقام ، فإذا لم تخش العادية أقدمت ، ومن هنا كان من السهل تحريك عامتهم إلى السير في طريق الحروب بقبائل من الكلمات ، وكانت هناك كلمات تحرك قاب العربي كما في كل أمة وأرقاها درجة في التأثير . يالفلان . واذلاه ، وانصيراه ، شرف الآباء . وما شاكل ذلك ، ولم يكن هدم شيء من بلاد الطبع التي تجعل صاحبها يألف سماع ما يهين شرفه حسبا يتخيل ويتبع هذا الخلق الجرأة على سفك الدم ، لأن النفس متى تهبأ لها طريق الانتقام وقدرت ولم تخش عقوبة لم تكف بدون الموت لمن تربد الانتقام منه

ومن هنا كان خاق الحلم فيهم عزيزاً اللهم إلا في ساداتهم وذوي الأسنان منهم ولذلك كان المعروفون بالحلم منهم قليلون

ومن أخلاقهم التعصب ومعه أن ينصر ذا عشيرته على أية حال يرون ذلك من مقومات حياتهم وقد تقدم بيان هذا بوضحة في حال العرب الاجتماعية ، وقد سمي القرآن هذا الخلق وما قبله حمية الجاهلية لأن فيها نتيجة من نتائج الجهل وعدم الثبوت ومن أخلاقهم المتأصلة فيهم الكرم وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم بين متمدح به ومن على غيره . كان الواحد منهم يأتيه الضيف - في شدة البرد والجوع - وليس عنده من المال إلا ما بقه التي هي حياته وحياة ولده فتأخذ هزة الكرم فيقوم إليها ويذبجها اضيفه يخشون مذقات الأحاديث ويقول قائلهم :

واعلم بأن الضيف يو ما سوف يحمد أو يلوم

ومن طرف أخبارهم في الكرم أن سالم بن قحطان من بني العنبر جاءه أخو امرأته فأعطاه بعيرا ثم طلب من امرأته حبلا يقرن به بعيره إلى من أعطاه إياه . ثم ثانياً وثالثاً حتى لم تجد حبلا فقالت لها على الجمال وعليك الحبال ، فرمت إليه نمارها وقالت اجعله حبلا لبعضها فقال :

لا تعذلي في العطاء ويسرى لكل بعير - جاء طالبه - حبلا

فإني لا أتبكي على ؛ أفلها إذا شبع من روض أو طانها بقلا

فلم أر مثل الإبل ما لا لمتن ولا مثل أيام الحقوق لها سبلا

فأجابته امرأته .

حلفت يمينا يا ابن قحطان بالذي تكفل بالارزاق في السهل والجبل

تزال جبال محصنات أعدها لها ما شئ منها على خفه جل
فأعط - ولا تبخل - لمن جاء طالباً فعندى لها خطم وقد زاحت العلل
ويرى المطلع على أبواب الحماسة والثناء والادب والأضياف - من ديوان الحماسة
الذي جمعه حبيب أوس الشهير بأبي تمام - ما يشاج الصدر

ومن أخلاقتهم التي كانوا يتمدحون بها ويعيبون من خالفها الوفاء بالعهد فقد كان
العهد عندهم ديناً يتمسكون به ويستهنون في سبيل الوفاء به قتل أولادهم وتخريب
ديارهم . انظروا إلى ما فعله هانيء بن مسعود الشيباني بسبب أدرع النعمان بن المنذر
وأولاده حيث عرض نفسه وقومه لحرب أضخم دولة وهي الدولة الفارسية فأغضب
ملكها ونائبه على الحيرة غير مبال بما يصيبه وما يصيب قومه من جراء ذلك ، ثم
انظروا إلى ما فعله السمومل بن عادياء وهو عربي المقام والمولد حينما خيره الحارث
الغساني بين قتل ولده وتسايم أدرع امرئ القيس بن حجر الكندي التي كان أودعها
عنده ففضل قتل ولده ، وفي ذلك يقول الأديبي مخاطباً شريح بن عمرو الكلبى :

كن كالسمومل إذ طاف الهمام به في جحفل كسواد الليل جرار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير غدار
خيره خطى خسف فقال له اعرضهما هكذا اسمعها حار
فقال غدر وثكل أنت بينهما فاختر . وما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل ، ثم قال له اقتل أسيرك إني مانع جارى
وسوف بعقبنيه إن ظفرت به - رب كريم وبيض ذات أطهار
فاختار أذراعه أن لا يسب بها ولم يكن عهداً فيها يختار

ثم انظر إلى ما فعله حاجب بن زرارة التميمي سيد بني تميم كيف وفى للملك بما
تعهد به بعد أن رهن على ذلك قوسه عند كسرى حتى ضرب المثل بقوس حاجب ،
والقوس في الحقيقة لا يمنع رهنها من فعل ما يشاء إن كان من شيمته الغدر ، وإنما
خاف السبة على بنيه من بعده - إذا هو غدر ومما يبين لنا قيمة هذا الخلق في الأمة
العربية أنهم كانوا إذا زل واحد منهم زلة فغدر بذى عهد أصلاه الشعراء ناراً حامية
وقلماً يفلح بعدها أو يرفع له رأساً بين العرب
وخلق الوفاء في الحقيقة أعظم ممثل الأمة ومبين لمقدارها واستعدادها للرقى فإن

خلت منه فبشرها بخذلان وسقوط لأمحيص عنهما
ومن نتائج هذا الخلق أنهم كانوا يغفلون في الوفاء للجار والحليف حتى يكون عندهم
مقدما على الأبناء والإخوان . ومن ذلك أن رجلا من السراقط من بني أبي بكر بن
كلاب قدم اليمامة ومعه أخ له فكتب له عمير بن سلمي إنه له جار لحدث أن كان
بين قرين بن سلمي وبين أخى الجار أسباب أدت إلى أن قتله قرين ، وكان عمير غائبا
فأتى الكلابي قبر سلمي وأبي عمير وقرين فاستجار به ، فاجتهد بنو حنيفة بالكلابي أن
يقبل دية أخيه مضاعفة فلم يفعل ، فلما قدم عمير قالت له أمه لا تقتل أخاك وسق إلى
الكلابي جميع ماله ، فأبى الكلابي أن يقبل فأخذ عمير أخاه ومضى به حتى قطع
الوادي فربطه إلى نخلة وقال للكلابي : أما إذا بيت إلا قتله فأمهل حتى أقطع الوادي
وارتحل عن جوارى فلا خير لك فيه فقتله الكلابي . وفي ذلك يقول عمير
قتلنا أخانا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجير مقابره
وقالت أم عمير

تعد معاذراً لأعدائهم فيها ومن يقتل أخاء فقد ألما

أما أمرهم مع حلفائهم فهو أوضح من أن ننسلكم فيه فإنهم كانوا يخطرون حلفاءهم
بأنفسهم ويوفون لهم بأيمانهم التي عقدوها معهم وكان الحليف بعد من أفراد القبيلة
التي دخل في حلفها وينال شرفها ، وقد كان حلفاء قريش في الجاهلية يتزوجون بناتهم
مع أن قريشاً كانوا يضمنون بناتهم عن أى قبيلة أخرى لا يرون أحداً من العرب
لهن كسماً إلا من دخل في حلفهم ومن أخلاقهم التي كانت بجانب الكرم والوفاء
الشجاعة وهي قوة في العس تحمل صاحبها على الإفدام على المكروه ، وباب الحساسة
في أشعارهم أكبر من باب الكرم لأن الشجاعة خلق يظهر في جميع الأفراد أما الكرم
فإنه لا يظهر أثره بجملاء إلا عند أرباب الأموال الذين يمكنهم أن يعطفوا على الفقراء
والمعوزين ، وقد اشتهر من العرب كثيرون امتازوا على أقرانهم في شدة اليأس وقوة
القلب : وكان فيهم من نتائج حمية الجاهلية ضعف خلق الرحمة بمن يقع تحت أيديهم
من أعدائهم

وقد بقيت بعد ذلك أخلاق كانوا يتواصون بها في أشعارهم ولكننا لا يمكننا أن
نقول إنها كانت أخلاقاً عامة لجمهورهم ومن يطلع على كلامهم في أبواب الأدب يجد

من وصاياهم الجميلة وحكمهم الجليلة شيئاً كثيراً يذهب بنفس قارئه كل مذهب ويحمله يحكم أن هذه الأئمة مع ما كانت عليه من البداوة وشظف العيش - لم تخل من حكام أودعوا أشعارهم ما يفيد من بعدهم : ولتتكم بعد ذلك على شيء من عاداتهم حسباً قدمنا من الاصطلاح

من العادات المتأصلة التي كان العرب يتمدحون بها الميسر ! ؛ وكانوا يرون أنه سبيل من سبيل الكرم لأنهم كانوا يطعمون المساكين ماربحوه وكانت طريقتهم في لعبه أن يجتمع الفتيان وذوو اليسار ويشترون جزوراً يقسمه الجزار إلى عشرة أجزاء ، ثم يجاء بالقداح وهي عيدان من نبع قد نحتت وملست وجعلت سواء في الطول وهي عشرة : الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيع والسفيح والوعد ، والثلاثة الأخيرة غفل من العلامات لانصيب لها إنما جرى بها لتكثير العدد والسبعة الأول عليها علامات تبتدئ من الواحد وتنتهي إلى السبعة للمعلى فيأخذ كل من الفتيان حسب مقدرته واستعداده ثم يدفعون هذه القداح إلى رجل أمين يقال له أمير المقامرين فدفن في الرمل أو توضع في خريطة ويلف على كف الأيمن قطعة من جلد ائلا يحابي أحداً من المقامرين فيخرج له قدحه ويجلس خلفه آخر اسمه الرقيب وهو الحكم ثم يدحل الأمين يده فيخرج قدحا : وليفرض أن الخارج هو الفذ فيكون صاحبه فائزاً له عشر الجزور ثم تضرب القداح على تسعة الأجزاء الباقية فإن خرج التوأم فلصاحبه جزآن ثم تضرب القداح فإن خرج المعلى فلصاحبه السبعة الباقية ويكون الغرم على الباقيين وعدد سهامهم ١٨ فيجزأ الثمن على ١٨ جزءاً يدفع منها كل قدر سهامه ، وإن خرج في أول الضرب الرقيب فاز صاحبه بثلاثة أجزاء ويضرب على السبعة الباقية فإن خرج بعده المسبل أخذ ستة أجزاء وبقي واحد فلا يمكن ضرب القداح عليه لأن ما يستحق أكثر من جزء فيشترون جزوراً أخرى يقسمونها كالأولى فيكون الباقي ١١ جزءاً يضربون القداح عليها فإن خرج المعلى أخذ سبعة وبقي أربعة فلا يمكن ضرب القداح عليها لأن منها النافس ، وله خمسة أجزاء فينحرون جزوراً أخرى فيكون الباقي ١٤ جزءاً فإذا خرج النافس أخذ خمسة أجزاء ثم يضربون فإذا خرج الحلس أخذ أربعة ثم التوأم وله اثنان : ثم الفذ وله واحد فالمجموع ١٢ جزءاً ويبقى جزآن يوزعان على الفقراء وكل

من ربح في جزور ليس عليه من ثمنها شيء ويدفعه الذين لم يربحوا فثمن الجزور الأولى يقسم على ١٨ جزءاً ، وهي لمن هذا الرقيب والمسبل والمعلب . وكذلك ثمن الثالثة والتصدق بالربح على الفقراء هو منفعة الميسر التي أثبتها الكتاب ولكن لما كانت المفسدة تربو على هذه المصلحة حرمة الدين الإسلامي وهذه المفسدة هي أنه يوقع العداوة والبغضاء بين اللاعبين ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة لأن المقامر غافل عن كل شيء ومن عاداتهم التي يتمدحون بها - شرب الخمر يرون أنها كذلك سبيل من سبل الكرم ، ومما يسهل السرف على النفس : لذلك تجدها في الشعر العربي باباً من أبواب المديح والفخر : ومن أحسن ما قيل في شربها من جهة الأسلوب اللغوي قول عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر بالشمال مقدم
فاذا سكرت فإنتى مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي

والشرب - في وقت عنترة هذا - كان يسمى عدوم بالغبوق وبعضهم كان يشربها صباحاً ويسمى الصوح

وقد شرك الكتاب بين الخمر والميسر في التحريم ، لأن المنفعة في كليهما واحدة والمفسدة الزائدة واحدة فقال (يسألوك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) ثم بين هذا الإثم مرة أخرى فقال (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) وهذا إثم يربو على كل منفعة

وهناك عادات أخرى كانت تدعوهم إليها أديانهم سنتكلم عنها في مبحث الدين لغة العرب

اللغة العربية إحدى اللغات السامية تكلم بها العرب في جزيرتهم مذ حارب قحطان رأس قبائل اليمن ويسمونهون في التاريخ بالعرب العاربة لإصالتهم في العربية ومن قبائل اليمن قبيلة جرم الثانية التي سارت إلى مكة واحتلتها قبل أن يردها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، فلما جاءها إسماعيل صاهرهم وأقام معهم وكثرت بنوه بمكة وكان إسماعيل رجلاً هبرانياً يتكلم باللغة العبرانية وهي الثانية من اللغات السامية وأمه

هاجر امرأة مصرية . أخذ إسماعيل لغة العرب عن جرم الذين عاشهم ولكنه بحكم الضرورة أدخل في اللغة العربية بعض ما يحفظه من الكلمات العبرانية وبعض ما تحفظه أمه من اللغة المصرية بعد أن هذبت بحسب ما يسهل على اللسان العربي وهذا أمر يسهل القول به لأن إسماعيل وأمه لا يمكنهما أن ينسيا بالمرّة ما في أنفسهما من الكلمات المحفوظة وإذا احتاجا إلى التعبير عن معنى لم توضع له كلمة في لسان جرم يفزعان إلى ما معهما وهذا مشاهد في تفاعل اللغات المستعملة والمؤرخون يسمون إسماعيل وبنيه بالعرب المستعربة لما كان من دخولهم في العربية ليس أصلهم منها

بذلك كانت اللغة العربية فرعين : الفرع العربي الحميري وهو لغة العرب الأصلية والفرع العدناني أو الحجازي وهو لغة بنى إسماعيل ولهجة اللغتين وطرق التعبيرهما لا يختلفان وإنما الخلاف في ألفاظ يستعملها الحميريون ولا يستعملها الحجازيون وبالعكس والمتبع لألفاظ أهل اليمن وما كان يكتب إليهم بلسانهم يرى غرابة سببها عدم الألف لسماع تلك الألفاظ ويحس منها بصلافة لا يجد ما فيها يرادفها من الألفاظ الحجازية معلوم أن اللغة إنما يتكلم بها أصحابها تبعاً لحاجتهم فالمفهوم أنها تكون في بدء نشأتها كلمات قليلة يتواضع عليها الناس بحسب ما يعين لهم من الحاجات ويكون أكثرها من الكلمات الدالة على ما يقع عليه الحس وكلما اتسعت دائرة الحاجات وأدركت المعاني المعقولة استدلت عليها بكلمات تنبئ عنها . لذلك كانت اللغة العربية كغيرها من اللغات الحية في حركة مستمرة ونمو سريع

وكان للعرب في توسيع مادة اللغة طرق ثلاث :

الأول - تجديد الوضع وكانت القبائل تلجأ إليه أحياناً وربما اختلفت مواضعهم فيجىء للمعنى الواحد كلمتان أو أكثر ، وقد يكون بعض الأسماء مشتقاً من صفة في المسمى وبهذا يجىء ما يسمونه بالترادف وأكثر ما نجده في أسماء الأشياء التي هي عند عامتهم لا يستغنى عنها فريق منهم كالسيف والرحم والجمل والكلب والهر وما شاكل ذلك

الثاني - التجوز فقد كانوا ينظرون إلى الشيء الجديد فيجدون بينه وبين شيء آخر له اسم عندم ارتباطاً أو تشابهاً فيطلقون لفظ الأول على الثاني ومع تطاؤن الزمن ينسى قول الشيشين وآخرهما فيظن المطلع أن الكلمة وضعت في أصل اللغة وضعا

ابتدائياً لكل من المعنيين ويحكم بأن الكلمة مشتركة وقد يغيب عن الناظر ماتخيله العرب من الارتباط بين المعنيين فيقول بتعدد الوضع . وللعرب في هذا التجوز دقائق تأخذ باللب يدركها من عنى باغتهم ، وكانوا دائماً يكتنون عن المعاني التي لا يرونها شريفة ولا يليق التصريح بأسمائها بألفاظ مستعارة وأصلها موضوع لمعنى شريف ، ومتى شاعت الكلمة وكادت تكون صريحة في المعنى الخسيس عدلوا عنها إلى غيرها من الألفاظ المستعارة ، ولذلك نرى كثيراً من الكلمات ابتليت بأنها استعيرت وقتاً ما لمعان خسيصة ثم بقيت لها تلك المعاني بسبب عدم الاعتناء من نقلة اللغة .

وللعرب نوع آخر من التجوز وهو التعير باللفظ وإرادة ما يلزمه حسماً يتخيلون من هذه الملازمات وهي المسماة في اصطلاح البيانين بالكنايات

الطريق الثالث - طريق التعير وهو استعارة اللفظ من لغة أخرى بعد صقله وتمثيذه وكان لهم في التعيرب الشأ والواسع ، لأن العرب اشتغلوا بالاجارات والأسفار وساكرو الفرس والروم والحاش . وكانت ترد على حواسهم أشياء جديدة لم يكونوا قد رأوها مسرعان ما يأخذون عن تلك الأمم اسمها بعد أن يتلاعوا به قليلاً حتى يكون على نمط نطقهم وأكثر هذه الكلمات أدخلت في اللغة قبل الإسلام بزمن ليس بكثير .

وأعظم واسطة كانت لإشاعة الكلمات المعربة والمتجوز بها حتى يستعملها الجمهور الشعر العربي فإن هذا الشعر كان لهم بمثابة الجرائد عندنا ينطق الشاعر عندهم بكلمته فتلقمها الأسماع وتدور بعد ذلك على ألسنتهم وكانت أسواقهم التي إليها يجتمعون لإلقاء أشعارهم ومبادلة متاجرهم بالقرب من البيت الحرام وهي عكاظ ومجنة وذو مجاز فأما عكاظ فهو بين نخلة والطائف وكانت تعقد في أول ذي القعدة إلى عشرين منه ومجنة بمز الظهران ينتقلون إليها من عكاظ فيقيمون فيه إلى غاية ذي القعدة وذو مجاز خلف عرفة يقيمون فيها ثمانية من ذي الحجة ثم يعرفون في التاسع إلى عرفة وهو يوم التروية . وكان شعراء العرب يفدون من كل صوب ومن كل قبيلة يفتشون ماجادت به أفكارهم وهناك ينال الشعراء ما يستحقه من التشريف والتكريم وربما امتازت بهض الكلم الشعرية بالشرف الرفيع كما قالوا في المعلقات السبع وما يقارنها بما جمعه صاحب جمهرة أشعار العرب وأكثر الممتازين من الشعراء هم العدنانيون ومن جاورهم من يمن كامرئ القيس الذي كان أبوه ملكاً في نجد على بني أسد وشعراء الأوس والخزرج الذي كانوا بالمدينة

وطيء وكلب المقيمين في شمالي الجزيرة
وكانت قبائل البدو أقل العرب تعرباً لقلة الحاجة عندهم ولأن معاشرتهم الأمم
الأخر تكاد تكون معدومة بخلاف أهل الحيرة والرحالين من غيرهم ولذلك ترى
بعض رجال اللغة لا يحتجون بمثل عدى بن زيد العبادي الحيري وأمية بن
أبي الصامت الثقفي لأنه كان ذا أسفار يخاطب العلماء ويقتبس منهم وقد أدخل كل منهما
كلمات في اللغة لم يسبق إلى استعمالها وليس هذا بضائرهما عند من كان ذا نظر
أوسع من ذلك

كل هذه الطرق أفادت اللغة العربية فائدة كبرى وهي سعتها وقدرتها على التعبير
عما يكسبه الصدر من المعاني فكانت وافية بحاجتهم على قدر ما اتصلت به معلوماتهم
وفوق ذلك صارت مستعدة لأن تقتبس من غيرها ما يرى المتكلمون بها أنفسهم
في حاجة إليه حسبما شرع العرب من هذه الطرق ولا تحتاج اللغة إلى أكثر من هذا
في استعادتها للحياة الدائمة بعد أن تكون سهلة سلسة على الألسنة والاسماع وهذا
ما نحس به في هذه اللغة الجميلة

جاء الإسلام واللغة قدرت أعظم درجة كانت تمكن لها في عهد العرب فكثير
الشعراء النابغون والفصحاء القوالون ، يتباهون في مواقفهم المعدودة لهم بما أتوه
من الفصاحة واللسن ، وتعد القليلة نفسها ذات حظ عظيم إذا هي رزقت شاعراً
ينافح عنها في المجالس وربما أولت الولائم فرحاً بذلك واستبشاراً ، وكان لقريش
خاصة من الفصاحة والحكم المقبول ما ليس لغيرهم ، ولذلك كانت اللغة القرشية
ممتازة تدين لها العرب وتعترف لها بالسبق

ومن أراد أن يرى مثالا واضحا من رقة لغة العرب وتفنن شعراء العرب في جميل
المعاني فليطالع هلي ما اختاره أبو تمام الطائي من شعر العرب وعلى ما جمعه أوعلى
القالى في أماليه ، وما جمعه أبو العباس الأبرد في كماله ، وما جمعه صاحب جهرة أشعار
العرب فإن ما في هذه الكتب يكاد يكون زبدة أشعارهم وخلاصة أفكارهم وليس
يعاب على بعضهم إلا أشياء قليلة جمعوها وكان أجدر بهم لو تركوها وهو تراب قليل
جداً في جانب الذهب الوفير

المحاضرة السادسة

الكتابة - العلوم - الدين

الكتابة عند العرب

كان العرب باليمن يخطون فكان خطهم يسمى بالمسند ولم تكن الكتابة عندهم بالشئ الذائع يتناوله جميع الافراد وإنما كان في الخاصة منهم كما كان الشأن في الكتابة المصرية ، ومن اليمن انتقل الخط إلى الحيرة والأنبار لما كان من الارتباط بين ملوك الجهتين وكانوا يسمون خطهم بخط الجزم لأنه اقتطع من خط حمير ومن الحيرة نقله حرب بن أمية إلى مكة وكان رجلاً سفاراً فعلى عهده كان بدء الخط بمكة فتعلمه بعض رجال من قريش وكانت الكتابة في هذه الجهات الثلاثة ليست بالشئ المتداول الذائع

أما بادية العرب فلم تكن تخط حتى أنها كانت ترى في ذلك سمة عيب كما هو شأنها في بقية صناعات المدينة

ولقلة انتشار الكتابة وانحصارها في أفراد قليلين يسهل أن نعبّر عن الأمة العربية بأنها أمة أمية أي لا تقرأ ولا تكتب وبذلك سماها الكتاب حينما جاء الإسلام فقال (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم)

وعدم الكتابة سبب كبير في اعتماد الإنسان على قوته الحافظة والقوة متى استعملت تمت لذلك كان العرب من أحفظ الأمم فكانت تلقى عليهم القصائد في المجتمعات فيتلقونها ويتغنون بها كلاً أو بعضاً وربما فاتهم الشئ منها إذا اشتبه عليهم الأمر فقدموا وأخروا وهذا سبب لما نراه في بعض الأشعار الطويلة من الاختلاف بالتقديم والتأخير والحذف والإثبات ولكون الشمر أكثر استعداداً لأن يحفظ كان الباقي لنا منه أكثر مما بقي من نثرهم وخطهم في المحافل والمجامع

جاء الإسلام والعرب على هذا النمط من صناعة الكتابة فأخذ يدهم إلى طريق

ترقيتها كما يأتي بيانه

علوم العرب

العلوم والصناعات تسير مع المدنية جيا لجب لان الإنسان متى احتاج فنقتله الحاجة وجه الحيلة فاخترع مايسد تلك الحاجة ولذلك يقولون الحاجة أم الاختراع وكانت العرب يغلب عليها البداوة فقلت حاجها وتبع ذلك قلة العلوم والصناعات إلا ما كان منها مختصا بما هم في حاجة إليه وكانت الحاجة في حواضر العرب أكثر منها في باديتهم ولذلك كان عدم من العلم والصناعة أكثر عما عند البادية . كانت حاجة العربي في باديته تنحصر في الماء الذي يحتاج إليه ويعمله من السماء ثم في جملة الذي هو عدته ثم في ملبوسه البسيط الذي يقيه حر الصيف وبرد الشتاء ثم في بيته الشعري ، ثم أداة حربه وقلبا يحتاج إلى أكثر من ذلك

فأما حاجته إلى المطر فقدأ كسبته ملاحظا لجزء وتغيراته وما تنبئ عنه تلك التغيرات من التبشير بقرب المطر أو الإذار بالجذب وقد كانت لهم في ذلك قواعد تجريدية قلما تختلف فيستدلون بالريح وبأشكال السحب وبالانواء (١)

(١) اسم العرب المنطقة التي تتقلب فيها الشمس وتبلغ ٤٧ درجة اثني عشرقسما وسماوكل قسم برجا لكل برج شهر كامل وهذه البروج منها ستة في جنوب الدائرة الاعتدالية ومثلها في الشمال وسماوكل برج اسما بحسب ما تخيلوه من شكل الكواكب المكونة له فالتى في الشمال هي الحمل والنور والجرزاء والسرطان والاسد والسنبلة التي في الجنوب هي الميزان والعقرب والفوس والجدى والدلو والحوت

وتخيلوا من أجزاء هذه المجرعات الكوكبية أشكالا أخرى وهي التي يتقلب فيها القمر في مدة دورته وقسموها إلى ٢٨ منزلة لكل منزلة ليلة وكل برج من البروج الشمسية فيه منزلتان أو ثلاث وهذه هي المنازل - السرطان والبطين - الجرم وهو الثريا - الدبران - الهقعة - الهنعة - الذراع - البثرة - الطرف - الجهة - الخراتان - الصرفة - العواء - السماء - الغفر - الزباني - الاكليل - القلب - الشولة - النعائم - اللدة - سعد الذابح سعد بلع - سعد السعود - سعد الاخبية - فرع الدلو المقدم - فرع الدلو المؤخر - الحوت

بعد انتهاء الأيام الثمانية والعشرين يبدئ القمر فيعيدالتقلب في هذه المنازل كما المرة

ومن استدلالهم بالرياح وأشكال الدحج مارواه صاحب الاغانى قال خرج
إعرابى مكفوف البصر ومعه ابنة عم له لرعى غنم لها فقال الشيخ إنى أجد ريح النسيم
قد دنا فارفعى رأسك فانظرى . فقالت أراها كأنها ربرب معزى هزلى ثم قال لها
بعد ساعة إنى أجد ريح النسيم قد دنا فارفعى رأسك فانظرى قالت أراها كأنها بغال
دم تجر جلالها قال ارعى واحذرى ثم قال لها بعد ساعة إنى لأجد ريح النسيم قد
دنا فانظرى فقالت أراها كأنها بطن حمار أحمر فقال ارعى واحذرى ثم مكث ساعة
وقال إنى لأجد ريح النسيم فأترى ؟ قالت أراها كما قال الشاعر :

دان مسف فوبق الأرض هيدبه • يكاد يدفعه من قام بالراح
كأننا بين أعلاه وأسفله • ريط منشرة أو ضوء مصباح
فن يجعله كمن بجوته • والمستكن كمن يمشى بقرواح

قال ابجى لأبالك : فما انقضى كلامه حتى دطلت السماء عليهما

وحاجتهم إلى إياهم أكسبتهم بالتجارب قواعد ترجع إلى أدواء الإبل ومداوتها
وإبعاد سايحها عن أجربها كيلا يعديه وكان لهم فى معرفه ذلك حظ وافر كما إنهم
استفادوا لحظ حياتهم شيئاً من الطب الإنسانى ومعرفة أمراض الإنسان التى تنابه
فى الصحراء من أنواع الحمى التى لا بد منها لمز يقيم حول مافع المساء متعرضاً لبرد
الليل وحرارة القيط وسموما بأسماء شتى على حسب أنواعها
وكان للكى بالناس وى أوديتهم نصب السق ويكاد يكون الدواء الوحيد

الأولى حتى إذا دار بها ١٣ دورة كان تمام السنة الشمسية

وهذه النجوم التى سميت بها هذه المنازل كان العرب يربطون بغروبها وشروقها
التغيرات الجوية فإذا غرب منها نجم وأشرق آخر سموا ذلك نوءاً وفى كل ثلاثة عشر
يوماً نوء جديد . وقال بعض علماءهم إنه لا يسمى نوءاً إلا إذا كان معه مطرفان لم
يكن مطر فلانوء وإذا نسوا المطر نسبوه إلى النوء فيقولون مطرنا بنوء كذا يضيفونه
إلى السائط وكانت لهم أسماج محبوطة يضبطون بها ما يتبع النوم من الحوادث الجوية
منها لهم الصفة باب ل ر ا - - - - - تنم من ابرد و تن الحر فى الحالين . وإذا
طابت الهواء وجثم أشياء طاب اهلاء ومما مثل ذلك ما لا حاجة بنا إلى الإضافة فيه

لامراضهم الثقيلة وقد اشتهر منهم مجربون سموم الاطباء والنطاسيين ومن هؤلاء من كانت له رحلات فاستفاد شيئا من الطب من حواضر البلاد الاخر وحاجتهم إلى ملابسهم علمتهم غزل الصوف والوبر وقد اقتصرت تلك الصناعة نساؤهم فالمرأة إن قالت إنى صناع اليد فإنما تعنى بذلك أنها تغزل ومن هذا الغزل كانوا يصنعون البرود والأكسية والخيام الشعرية وكان النسيج في حواضرهم وأكثر ما يكون في بلاد اليمن حتى قيل لما يمدح من ثيابهم البرود اليمنية

وحاجتهم إلى أدوات القتال علمتهم صناعة الرماح وأفادتهم التجارب معرفة الأشجار اللاتق أن تصنع الرماح منها وغير اللاتق كالنبع والغرب فكانوا يجيدون صنع قناتها ثم الزجاج والسنان وكانت هناك بلاد قد اشتهرت بصنع الرماح كالخط في البحرين ولذلك تنسب إليها فيقال رماح خطية أما السيوف فكانوا يجلبونها من صناعاتها بنواحي العراق والآلة وكانوا يسمون ناحية الآلة الهند ولذلك يقولون سيوف هندية ومهندة على طريق الاشتقاق

وكانوا بحكم الضرورة يحتاجون إلى حساب لإهم وما يملكون من دراهمهم فعلمهم ذلك الحساب ولكنه لم يكن في البادية حساباً منظمياً بأرقام وقواعد تعلم وإنما كان حساباً أرقامه الأيدي ولهم طرق معروفة في بيان كل عدد

ومن علومهم الجبرية علم القيادة وهي نوعان الاستدلال بأثر الماشى عليه والاستدلال بتقاطع الجسم على صحة النسب وبطلانه وكان فيهم قبائل قد شهرت بهذا العلم حتى كان قول الفرد منها - كما في الآثار والإنسان كبنى مدج . وللعرب في معرفة الأثر أعاجيب لا يكاد الإنسان يعيرها تصديقاً ولكن الذي يرى ما في منها بين أعراب السودان لا يقف عن التصديق لحظة وقد رأيناهم يعتمدون على ذلك في إظهار الجنايات وفاعاها ولما يخطئون . قال جاكسون باشا مدير دنقلا في تقريره لسنة ١٩٠٥ :

« وإهارة الفائتين فائدة كبرى في اكتشاف الجناة والعثور عليهم وإليك مثالا من ذلك - في إحدى الليالي سرق صندوق سكر من حانوت في مروى ، وكانت أرض السوق والطرق المجاورة لها مرهلة فنهض القائفون المكان في صبيحة اليوم التالي ودفنوا على أثر رجائين وحمار فاقفوه إلى أن وصلوا إلى اصطبلات الحكومة

وهناك عرضوا جميع السواس فأخرجوا من بينهم سائس المدير وسائس أركان الحرب قائلين أن الأثر أثرهما ثم عرضوا الحمر أيضا واتضح أن حمار المفتش هو الذى ظهر أثر قدمه فى السوق ، وقد تم تفتيش الاصطبلات فوجد فيها رؤوس من السكر وباستقصاء البحث اتضح أن باقى السكر دفن فى مكان قريب من الاصطبل ، ولما جرى بالسائسين أمام المحكمة اعترفا بجريمتها وقالوا أنه لما ثقل عليهما حمل الصندوق حملاه على أتان المفتش »

وهذه مهارة غريبة تسهل علينا ما نسمعه من أعاجيبهم وكان لهم فى النوع الثانى مالا يقل عن الأول يجيشون بالرجل والولد ويغطون جميع بدنهما ماعدا أقدامهما ثم ينظر القائب فيحكم حكما فصلا قائلان هذه الأقدام من هذه الأقدام إن كان النسب صحيحا وينفى هذا النسب إن لم يجد تشابها ولا يهمل إن كما قد اتفقا فى اللون أو اختلفا فيه

والشريعة الإسلامية لم تلغ حكم القائفين بل رضىه النبي صلى الله عليه وسلم وسر به وبعض فقهاء العرب من المسلمين جعلوه واسطة من وسائل الحكم فى الأنساب إذا تعدد المدعون

والنتيجة من هذا كله أن العرب كانت أمة تلاحظ ما يرد على حرامها من الحوادث والأشياء وتستنتج من الاستقرار قواعد صحيحة تنفع بها فى حياتها ونباهة الأمة أس من أساس رقيها

دين العرب

الخضوع للمعبود نتيجة لأحد أمرين : أما الأول فهو شعور الإنسان بقوة المعبود وعظمة ساطانه فهو لذلك يخضع له رغبة فيما عنده من الخير ورهبة مما يقدر عليه من الشر ولذلك تراه يفزع إليه عند الشدة لتخفيف ما ألم به من الكروب الثانى شعوره بأن المعبود ذو نفس كبيرة لما جرى على يديه من عظام الأمور فهو يتخيل أن تلك القوة التى بها تغلب على المصاعب لم تكن إلا نتيجة مساعدة مخصوصة من الإله القادر على كل شىء لأنه يحبه حباً جماً فترى العابد الخاضع يجعل هذا وسيلة فى عبادته يرجو بها رضاء من خالق العالم الأكبر فإن كان حياً فهو الوسيلة وإن كان ميتاً قام قبره مقامه أو جعلت له صورة تمثله وقد تكرن من حجر أو صخر

أو ماشا كل ذلك وتعطى هذه الصورة من الخضوع ما كان يعمل لصاحبها في حياته وقد يكون التعظيم لحيوان من الحيوانات النافعة أو الضارة أو الجراد نافع أو ضار لأن القوة التي أعطيها وبها ضرر ونفع أثر من آثار الخالق الأكبر وقد يصور ذلك الحيوان أو يمثل وتجمل صورته أو تمثاله مما يقرب من خالق القوى . ويسمون التمثال الذي على صورة إنسان من حجر أو فضة أو ذهب صنما ، ويسمون الحجر الغفل من الصنعة وثنا : الشعور بقرة تتصرف في العالم شيء يكاد يكون طبيعيا في الإنسان ولذلك لم يخجل منه باد ولا حاضر منذ عرف تاريخ الإنسان وتمثيل القوى المدبرة والأشخاص التي يتقرب بها كذلك لم تخجل منه أمة ولا جيل ، ولذلك يقول علماء الاجتماع الإنسان متدين بالطبع حتى أنك لتراه إذا ألد في دينه وازداره ينتقل منه حالا إلى عبادة أخرى وخضوع لكن من طريق آخر

وقد جاء الأنبياء يدعون الناس إلى أفضل الطرق المرصلة إلى إرضاء الله ورأسهم بعد حادثة الطوفان - هو إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم فقد دعا الناس إلى توحيد الله سبحانه وعمل ما فيه صلاحة الناس ويدعى إبراهيم أبا الأنبياء لأنهم كلهم من ولده وكانت النبوة في فرعين من ولده : الأول إسحق ومنه كان جميع أنبياء بني إسرائيل وأعظمتهم وأبقاهم أثرا موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه ودين الأول يسمى باليهودية نسبة إلى يهوذا أحد أسباط إسرائيل أو السبط الأكبر الذي منه كان جلة الملوك من إسرائيل ودين المسيح : هو النصرانية نسبة إلى الناصرة وهي أول قرية دلم بها المسيح فقال العرب ناصري ونصراني وكان المسيح عليه السلام يدعى الناصري والفرع الثاني كان منه إسماعيل أخو إسحق وهو داعية العرب إلى دين إبراهيم ، ثم كان منه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وجاء أيضا مجددا لشريعة إبراهيم ، كان الدينان المنسوبان إلى الأنبياء منتشرين في الجزيرة العربية قبل الإسلام فكانت اليهودية في بلاد اليمن وأول من دان بها يوسف ذونواس أتباعا لدعوة حبرين يقال أنهما أتيا من تبع الحميري من يثرب وكانت أيضا بيثرب وماجاورها من أرض خيبر وتيما جاءت مع إسرائيليين فارقوا الشام حين الاضطهادات التي كانت تتوالى على اليهود في شمال صنعاء وفي جهات من البحرين وفي الحيرة لما تنصر النعمان ، وفي قبائل من طيء وفي عرب الغساسنة بالشام لمجاورتهم المنتصرة من الروم المتدينين

بهذا الدين إلا أن المتدينين من العرب بالدين المسيحي لم يكن لهذا الدين تأثير حقيقى فى نفوسهم لأن روح هذا الدين المستفادة من كلام المسيح صلوات الله عليه هى السلم والإغضاء والابتعاد عن الحروب ، ولم يكن العرب مبتعدين عنها ولذلك لما جاء عدى ابن حاتم الطائى وأفداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له إني على دين فقال له عليه السلام ألم تكن تأخذ المرباع من غنائم قومك ؟ وحل الغنائم والانتفاع بها ليس فى شيء من الدين المسيحي بل ولا اليهودى لأن اليهودى يحرق كل ما للوثنيين ولا ينتفع به والمسيحي يبتعد عن الحرب

أما سائر العرب فكانت بعد إسماعيل على دين إبراهيم تعبد الله وتوحده إلا أن إسماعيل عليه السلام بنى الكعبة وجعلها مطافاً يحجها أولاده فلما كثروا واحتاجوا لمبارحة مكة والانتشار فى أجزاء الجزيرة كانوا يأخذون معهم شيئاً من حجارة الحرم أو الكعبة ليكون معهم أثر من آثار بركتها فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة فانتشر لذلك تعظيم الحجارة والتقرب بها إلى المعبود الأعظم ، ولما سار عمرو بن لحي الخزاعى إلى بلاد الشام ورأى ما يفعله أهله من تعظيم التماثيل والتقرب بها مالت نفسه إلى الاقتداء بهم فأخذ من هذه التماثيل شيئاً وأقامها على الكعبة التى كارسادتها ودعا العرب لتعظيمها فأجابوه وخطرت لهم حينئذ فكرة تمثيل العظام وذوى الأثر الصالح فيهم ؛ أو تمثيل القوى التى يألفونها وهى سبب عظيم فى نفعهم وقيام مجدهم فصنعوا تماثيلهم وتقربوا إليها وما يؤكد ذلك ما قاله محمد بن هشام بن السائب الكلبي فى وصف ود وهو صنم عذرة نقلا عن شاهده من رجال عذرة ؛ قال كان تماثيل رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد زبر عليه حلطان مئزر بحلة مرتد بأخرى عليه سيف بيد تقلده وقد تسكب قوساً وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل - فهذا يشبه أن يكون تماثيل قوة الحرب التى يعظمها العرب - وكان لهذيل صنم اسمه سواع فى رهاط من أرض يثرب وكان يعبد من يليه من مضر وله سدنة من بنى لحيان - وكان لمزحج وأهل جرش يغووث . واتخذت خيوان يعوق وكانت تعبد همدان ومن والها من اليمن - واتخذت حمير نسر وكان بيد رجل من ذى رعين يقال له معديكرب تعبده حمير ومن والها حتى هو دهم ذو نواس وكان لهم أيضاً بيت بصنعاء اسمه رثام يعظمونه ويتقربون عنده بذبائحهم وقد هدم أيضاً

ويظهر أن هذه التماثيل الخسة كانت قديمة في العالم استحدثها هؤلاء القوم وصوروا على شاكلتها لأن نوحا كان ينهى قومه عن عبادتها وهم يتمسكون بها كما ورد في الكتاب حكاية عنهم (وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواها ولا يغوث ويعوق ونسرا)

ومن أوثانهم مناة ، وكان منصوبا على البحر بناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة وكانت العرب تعظمه ونذبح عنده خصوصا الأوس والخزرج ومنها اللات بالطائف وكانت صخرة مربعة فالظاهر إنها لم تكن نمثالا وإنما كانت أثرا من مكان معظم وكان سدنتها من ثقيف وكانت قريش تعظمها

ومنها العزى ، وكانت بواد من نخلة الشامية عن يمين المصعد إلى العراق من مكة فوق ذات عرق بتسعة أميال وكان عليها بيت وكانت أعظم الأصنام عند قريش وكانت سدنة العزى من بني ساجم

ومنها ذوالخلصة ، وكان مروة بيضاء منقوشا عليها كهيئة التاج وكان له بيت بين مكة والمدينة وهو إلى المدينة أقرب وكانت تعظمه وتمدى خشعهم ودوس وبجيلة

وكانت على الكعبة أصنام أعظمها هبل وكان عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد ميمى أدركته قريش كذلك فجعلت له يدا من ذهب وكان أول من نصبه خزيم بن مدركة كانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الأحجار لالاعتقاد أنها آلهة وإنما لقربهم إلى الله سبحانه كما قال في الكتاب (ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وكانوا إذا سئلوا عن خالق العالم وقدر له رزقه يقولون إنه الله وكانوا يقدمون القرابين وهي الذبائح إلى هذه الأوثان والأصنام التي يدعوها النصب والانصاب لأنها نصبت للعبادة وقد استعمل الأعشى كلمة النصب مفردا فقال في كلمته التي يمدح بها رسول الله ﷺ

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه لعافية والله ربك فاعبد

ولهم طرق في توزيع لحوم هذه القرابين كما كان لبني إسرائيل ما يشبه هذه الطرق وكان من هذه القرابين البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى : فالبحيرة الناقة نشق أذنها فلا يركب ظهرها ولا يجزورها ولا يشرب لبنها إلا ضيف أو يتصدق به أو تحمل آلهم والسائبة التي يتذر الرجل أن يسيبها إذا برئ من مرضه أو إن إصاب أمرا يطلبه فإذا كان ذلك أسباب جملا من إبله أو ناقة لبعض آلهم فسابت فرعت لا ينتفع بها

والوصيلة التي تلد أمها اثنين في بطن فيجعل صاحبها لآلهته الاناث منها ولنفسه الذكور ، فتلدها أمها ومعهذا ذكر في بطن فيقولون قد أوصلت أخاها فيسبب أخوها معها فلا ينتفع به

والحامى الفحل إذا نتج له عشر أناث متتابعات ليس بينهن ذكر حتى يظهره فلم يركب ظهره ، ولم يجز ويره وخلى في إبله بضرب فيها لا ينتفع منه بغير ذلك - هذا تفسير ابن هشام وقد خالفه بعض أهل اللغة في تفسيرها ويظهر أنه لم تكن قبائل العرب متفقة في عادة تلك القرابين فنقل كل مفسر عن غير القبيلة التي نقل عنها الآخر وقد ورد ذكر هذه القرابين الأربعة في القرآن فقال في سورة المائدة (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام)

وكانوا يستقسمون عند أصنامهم بالازلام : والزم القدح الذي لاريش عليه ، والازلام كانت قریش في الجاهلية مكتوب عليها أمر ونهى وافعل ولا تفعل ، وقد زلت وسويت ووضعت في الكعبة يقوم بها سدنة البيت فإذا أراد رجل سفراً أو تكاحاً أو السادن فقال أخرج لي زلماً فيخرجه وينظر اليه فإذا خرج قدح الأمر مضى على ما عزم عليه ، وإن خرج قدح النهى قعد عما أراده وربما كان مع الرجل زلمان وضعهما في قرابة فإذا أراد الاستقسام أخرج أحدهما ومعنى الاستقسام بها أن يطالب الإنسان ما قسم له من جهتها وكان في الكعبة صنم يمثل إبراهيم وإسماعيل وبأيديهما الأزلام يستقسمان بها

ومع ما كان للعرب من الأصنام والأوثان فإنهم كانوا يعظمون الكعبة ويحلوها فوق اجلالهم لاى معبود آخر لهم يرون انها اثر ابراهيم واسماعيل وكانوا يحجونها ويرون لقرش الفضل عليهم لما أتوه من شرف القيام بأمرها كأنهم رؤساء دين يسمع لقولهم فكان الكعبة هي بيت الدين الأكبر وسدنته والقوام بأمرهم حفاظ الدين وهذا مركز عظيم حازته قریش ومن كان معها بمن يلى أمراً من الامور الدينية بمكة وقد كانت قریش أرادت أن تمتاز عن سائر العرب بما يظهر فضلهم وشرفهم فقالوا نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمه وولاية البيت وقطان مكة وساكنوها فليس لاحد العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف العرب مثل ما تعرف لنا فلا تعظموا شيئاً من الحل كاتعظمون الحرم فانكم ان فعاتم ذلك استخفت العرب بحرمتم وقالوا

قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم ، فتركوا الوقوف على عرقة والافاضة
منها وهم يقرون ويعترفون انها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ويرون اسائر العرب
ان يقفوا عليها وان يفيضوا منها ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من سكن الحل
والحرم مثل الذي لهم بولادتهم إياه وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم في ذلك
وسموا أنفسهم ومن دخل معهم الحرس ثم قالوا لا ينبغي للحرس بأن تقطوا الأقط ولا
يسلوا السمن وهم حرم ولا يدخلوا بيتا من شعر ولا يستظلوا - ان استظلوا - إلا في
بيوت من الأدم ما كانوا حرما ثم قالوا لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام
جاؤا به من الحل إلى الحرم إذا جاؤا حجاجا ؛ أو عماراً ولا يطوفوا بالبيت إذا
قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحرس ، فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة ،
فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحرس فطاف في ثيابه التي
جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره
أبدأ ؛ وكانت العرب تسمى تلك الثياب اللقي فحملوا على ذلك العرب فدانت به
وقد نبه القرآن على ذلك - بطريق الإشارة - فقال عن الأول (ثم أفيضوا من
حيث أفاض الناس) وقال عن الثاني (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) وقال
(قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق)

المحاضرة السابعة

النسيء - الموحدون من العرب - المولد النبوي - الحال قبل البقوة

كان تحريم الأشهر الحرم يعلن في مكة كما كان يعلن فيها النسيء :
والنسيء كلمة معناها الأجيل من قولهم نسأت أي أخرت وأجلت ورجل ناسيء
من قوم نساء قال في لسان العرب : وذلك أن العرب كانوا إذا صدروا من منى يقوم
رجل من كنانة فيقول أنا الذي لأعاب ولا أعاب ولا يرد لي قضاء فيقولون صدقت
أنسئاً شهراً . أي أخرعنا حرمة المحترم واجعلها في صفر وأحل المحرم لأنهم كانوا يكرهون
أن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم لا يغيرون فيها لأن معاشهم كان من الغارة فيجعل لهم
المحرم ، فذلك الإنساء قال عمير بن قيس بن جذل الطعان :

ألسنا الناسئين على معدد ؟ شهر الحل نجعلها حراما

وزاد عليه أبو علي القالي في أماليه فسمى الناسيء نعيم بن ثعلبة وقال في آخر عبارة فإذا

كان من السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحل لهم صفرأ - وروى قول الشاعر :

وكنا الناسئين على معدد شهرهم الحرام إلى الحليل

وقال ابن هشام في سيرته : والنساء الذين كانوا ينسئون الشهر على العرب في الجاهلية

فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل ويؤخرون ذلك

الشهر ففيه أنزل الله تعالى (إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه

عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله) ومعنى ليواطئوا

ليوافقوا وكان أول من نسأ الشهر على العرب - فأحلت منها ما أحل وحرمت منها

ما حرم - القليس وهو حذيفة بن عبد بن قيس من كنانة ثم قام بعده ابنه عباد إلى أن كان

آخرهم عوف أبو ثمامة وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فحرم الأشهر

الحرم الأربعة رجب وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فإذا أراد أن يحل منها شيئا أحل

المحرم فأحلوه وحرم مكانه صفر فحرموه ليواطئوا عدة الأربعة الأشهر الحرم فإذا أرادوا

الصدر قام فيهم فقال اللهم إني قد أحللت لهم أحد الصفرين الصفر الأول ونسأت الآخر

للعام المقبل فقال في ذلك عمير بن قيس جذل الطعان أحد بني فراس بن غنم بن مالك بن

كنانة يفخر بالنساء على العرب

لقد علمت معد أن قومي كرام الناس أن لهم كراما فأى الناس فانونا بوتر
وأى الناس لم نعلك لجاما ! ألسنا الناسين على معد ! شهر الحبل نعملها حراما
على هذا جرى سائر المفسرين من العرب الخالص لما كان يجرى من النسب قبل الإسلام إلا أن
بعض الفلكيين من العرب وأولهم أبو معشر الفلكي المتوفى سنة ٢٧٢ فسر والنسب عند العرب
بغير ذلك حيث فسروه بالكبس الذى استعمله العبرانيون في سنتهم القمرية فإنهم يضيفون
على رأس كل ثلاث سنين شهراً لتكون السنة قمرية شمسية ومعنى كونها قمرية أن التقويم
يعتبر بالهلال ، ومعنى كونها شمسية إنها بالكبس أو هذا النسب تكون مطردة مع
دورة الشمس بحيث لا يكون الشهر العربى إلا فى فصل معين لا ينتقل عنه ولا يتغير
كما هو الحال فى الشهور الرومية والقبطية التى لا ارتباط لها بدورات القمر . وقد تابعه
على ذلك جماعة من المؤرخين ، وفى صدرهم محمد بن أحمد البيروتي المتوفى سنة ٣٣٠
ومنهم المسعودى الذى قال فى مروج الذهب : وقد كانت العرب فى الجاهلية تكبس
فى كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسب وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله (إنما
النسب زيادة فى الكفر) وكان من نتيجة هذا الخلاف بين مؤرخى العرب اختلاف
بين الاجلاء من علماء المستشرقين فمنهم من اختار تفسير النسب عند العرب بما فسره
به علماء العربية وكبار المؤرخين من العرب ، ومنهم من اختار التفسير الثانى : وقد رفع
اللثام عن وجه الحقيقة فى ذلك العالم الفلكى محمود باشا الشهير بفلكى فى رسالة له
سماها نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام أبان فيها إن العرب قبل الإسلام
لم تكن تستعمل تقويمها إلا السنة القمرية المحضنة ولم يكن النسب عندهم إلا بالتفسير
الأول وأظهر إن الخطأ فى ذلك واقع فيه لأول مرة أبو معشر^(١) وتبعه البيروتي^(٢)
ثم من بعدهما ثم استدلل على هذه الدعوى بأدلة حسابية لاتقى مجالاً للريب فليراجعها
من أحب استقصاء البحث ، وقد كنت من المخدوعين بما أخطأ فيه أبو معشر ففسرت
النسب فى كتابي نور اليقين بما فسره به

(١) هو جعفر بن محمد المعروف بأبي معشر البالى توفى سنة ٢٧٢

(٢) هو أبو ریحان محمد بن أحمد البيروتي الخوارزمي المتوفى سنة ٣٣٠

ولما تبين لي وجه الحق راجعت الآية فوجدتها تخبر عن النسيء بأنه زيادة في الكفر
يضل به الذين كفروا يحلونهُ عاماً ويحرمونه عاماً ابوا طموا نذرة ما حرم الله - والنسيء
بالتفسير الأول نتيجة هوى نفسى وتلاعب بما كانوا يسمونه ديناً وشريعة فقد كانت
أربعة الأشهر المحرمة معروفة عندهم بأسمائها فلما دعيتهم حاجتهم التي هي غارات
وحروب إلى إحلال بعضها أرادوا خديعة دينهم بالوقوف عند العدد وعدم الاهتمام
بالأشهر المعينة فهم يحلون أحد الأشهر عاماً ويحرمونه عاماً ليتفق التحريم مع العدد
المشروع وهذه الأهواء وأمثالها جديرة بمثل هذا الذم ، أما النسيء بالتفسير الآخر
فلا يعدو أن يكون نظاماً ثابتاً اتجهوه في تقويمهم لبقضاء الأشهر العربية متفقة مع
دورة الشمس ومثل هذا ليس فيه الإحلال عاماً والتحريم عاماً لمواطأة عتة ما حرم
الله وإنما هو نظام ثابت لا يكون مجالاً لتلاعب النساء بدينهم

ومن الغريب أن المسعودى نفسه وهو الذى زعم أن العرب كانت تسكبس قال
في تفسير الربيعين : إنما سمي بذلك لارتباع الداس والدواب فيما ثم قال فإن قيل
قد توجد الدواب ترتع في غير هذا الوقت قيل قد يتكى أن يكون هذا الإسم لزمها
في ذلك الوقت فاستمر تعريفها بذلك مع انتقال الزمان واختلافه ولو كانوا يكذبون
- كما قال - لما كان هناك محل لهذا السؤال والجواب لأن الشهور العربية ما كانت
تختلف عن الفصول الشمسية ، فالحق أن النسيء عند العرب كان عملاً يقوم به رجال
الدين من أهل مكة من كسانة ويكون تابعاً للأهواء لا لنظام معين

هلى ذلك كانت أديان العرب جاهليتهم إلا أنه كان هناك أفراد منهم
لم تكن لك العبادات تعجبهم ويرون أن هناك حقيقة غابت عنهم وأن طرقتهم التي هم عليها
لا توصلهم إلى الله ويقولون في أنفسهم ما معنى التوصل إلى الله بحجارة لا ضرف فيها ولا نفع
ومن اشتهر ذكره من هؤلاء أربعة نفر - ثلاثة من قريش ورابع من حلفائهم -
فالقرشيون وورقة بن نوفل الأسدى من أسد بن عبد العزى بن قصى وزيد بن عمرو بن نفيل
العدوى من عدى بن كعب ، وعثمان بن الحويرث الأسدى من أسد بن عبد العزى ،
والرابع عبيد الله بن جحش الأسدى من أسد بن خزيمه وأمه أمية بنت عبد المطلب
اجتمعوا مرة يوم عيد لأحد أصنافهم فقالوا : تعلمن والله ما قومكم على شيء لقد
أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ما حجر نطيف به لا يبصر ولا يبصر ولا ينفع يا قوم التمسون

لا نفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء ؛ فتفرقوا في البلدان يلتمسوا الخيفية دين إبراهيم فأما ورقة فاستحکم في النصرانية واتبع الكتاب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب وأما زيد فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبايح التي تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب إبراهيم ونادى قومه بعباد ما هم عليه وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري ثم يقول اللهم لو أني أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لأعلمه ثم يسجد على راحلته وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه بعث أمة وحده وأما عثمان بن الحوثر فقد قدم على ملك الروم فتنصر وحسنت منزله عنده

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الألتناس حتى جاء الإسلام فأسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة فلما قدمها تنصر وفارق الإسلام حتى مات هناك نصرانيا

وكانت لا تزال كهان العرب وذو الأسماع منهم يهتفون بذكر نبي حان مبعثه ولا يبعد أن أخبارهم هذه إنما لفقوها من أهل الكتاب فيزيدون عايبها من عند أنفسهم ويحسبونها بما شاؤوا من السجع الذي امتازوا به في ذلك الوقت وكانت اليهود تنتظر في ذلك الوقت نبياً يخلصهم ويجمع شتاتهم ولا يزالون يلهمجون بذلك ويقولونه لمن كان بناوؤهم من العرب كما كان يقول يهود المدينة للأوس والخزرج الذين كانوا ظاهرين عليهم وغالبين على أمرهم إذا اشتبكوا في حرب وقد روى ذلك عن بعض الأنصار من هذا يفهم أنه كان قبل مجيء الإسلام في حواضر الجزيرة حركة دينية مركزها العقلاء من العرب وأهل الكتاب من اليهود والكهان من العرب ولكنها لم تكن حركة منتجة لأنها لم تؤد إلى شيء مامن التغير في عبادة الأوثان ، ولا إلى شيء من إصلاح أحوال العرب العامة ولكنها جعلت في الأنفس شيئا من الاستعداد لقبول الإصلاح الإسلامي

محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم لم

كان عبدالمطلب بن هاشم كبير قريش وسيدنا وله أولاد أشرف عظماء ، منهم

أبو طال وعبد الله وحمزة وعباس وأبولهب وعبد المطلب ذوالسن من بيت عبد مناف
الذي هو أشرف بيت من قريش

اختار لولده عبد الله آمنة بنت وهب وهي من بيت زهرة بن كلاب من أشرف بيوت قريش
فبنى بها عبد الله في مكة وبعد قليل خرج تاجراً إلى الشام فلما وصل المدينة - وبها
أخواله من بني النجار - أدركته منيته لشهرين من الحمل بابنه صلى الله عليه وسلم وإنما
كان بنو النجار أخواله لأنّ منهم أم أبيه عبد المطلب

وفي صبيحة يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل
ولاربعين سنة خات من ذلك كسرى أنوشروان . ويوافق العشرين من شهر إبريل
سنة ٥٧١ حسبما حققه العالم الفلكي محمود باشا - ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم
بشعب بنى هاشم بمكة ، ولما ولدته أمه أرسلت إلى جدّه عبد المطلب تبشّره بحفيده
فجاء مستبشراً واختار للدولود اسم محمد وهذا الاسم لم يكن معروفاً عند العرب ولم يمر
على نظرنا فيما قرأناه من كتب تاريخهم ودواوين أنسابهم إلا اسم واحد لأحد
أشرافهم وهو الأب الخامس للفرزدق التميمي الشاعر المشهور ويستتج المؤرخون
أن اختيار هذه التسمية إنّما كان نتيجة شعور من عبد المطلب بهذا المولود من
المستقبل المنتظر لما كان يدور إذ ذاك على الألسنة من قرب بعثة نبي منتظر من
العرب وختته يوم سابعه كما كان العرب يفعلون

كانت العادة عند الحاضرين من العرب أن ياتمسوا المراضع لأولادهم في البادية
لأمرين (الأول) لهم يتبعون في البرادى عن أمراض المواضراتى كثيراً ما تصيب
الأطفال وهناك تقوى أجسامهم وتشدّ أعصابهم لما في دواء البادية من الصفاء
والابتعاد عن عفونات المدن (الثاني) أنهم يتقنون اللسان العربى في مهدهم عن البدو وهم
أجهر صوتاً وألسلس عبارة

وقد اختير لمحمد بن عبد الله امرأة من بنى سعد بن بكر من هوازن الذين هم بادية مكة
واسمها حليلة بنت أبي دؤبب وزوجها هو الحرث بن عبد العزى المسكنى بأبي كبشة
من قومها فأقام - مترضاً فيهم قريباً من أربع سنوات ثم ردتها إلى أمه بعد ذلك فأقام معها بمكة
كانت لآمنة عادة منذ توفى زوجها عبد الله بالمدينة أن تذهب كل سنة لزيارة قبره
بها ومعها عبد المطلب فلما كانت السادسة من عمر ولدها ذهبت للزيارة وبينما

هي راجعة إذ مرضت في الطريق ثم توفيت ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة فعاد عبدالمطلب بحفيده وكان يحبه حباً جماً . قال ابن هشام كان يوضع لعبدالمطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجاس عليه أحد من بنيه إجلالا له فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام صغير حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه أيؤخروه عنه فيقول عبدالمطلب - إذ رأى ذلك منهم دعوا ابني هذا فوالله إن له لشأنا ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع ولثمانى سنوات من عمره توفي بمكة جده عبدالمطلب وأوصى به قبل وفاته إلى أبي طالب عمه شقيق أبيه فإن أبا طالب والزبير وعبدالله أولاد عبدالمطلب كانت أمهم جميعا فاطمة بنت عمرو والخزومية القرشية ولتسع سنوات من عمره - حسب رواية ابن هشام - أو ثلاثة عشرة - خرج أبو طالب إلى الشام تاجراً وأخرجه معه حتى وصل إلى بصرى وهي معدودة من الشام وقصبة حوران وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان وكان في هذا البلد على ما نقله من كلام مؤرخي العرب راهب اسمه بجميرا في صومعة له فكان له حديث مع أبي طالب حينما رأى معه ابن أخيه وأشار عليه أن يرجع به خوفاً عليه من عدو يترصده وأخبره أنه شأننا فرجع به أبو طالب إلى مكة وقد أطبق على هذه الحادثة جميع المؤرخين وحكاها ابن العبري في كتابه مختصر تاريخ الدول وقد نقبا كثيراً عن اسم هذا الراهب في كتب من عنوا بذكر أساقفة الشام وبصرى والمشهورين من رجال الدين فهما فلم نجده

ولخمس عشرة من عمره كانت حرب الفجار بين قريش وكنانة وبين قيس وكان قائد قريش كلها حرب بن أمية لما كانت فيهم سناً وشرفاً وكان رئيس بني عبدالمطلب وقد حضر هذه الحرب سيدنا محمد بن عبدالله ، وكان ينزل على عمومتهم أي يجهز لهم النبل المرعى . وحدث بعد ذلك تداعي قريش لحلف الفضول والمتحالفون هم بنو هاشم وبنوالمطلب وبنوأسد بن عبدالمزى وبنوزهرة بن كلاب وبنوتميم بن مرة وتحالفوا وتعاقدوا أن لا يجردوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد إليه مظلته وتم ذلك الحلف في دار عبدالله بن جدعان التيمي وشهده سيدنا محمد بن عبدالله وقال فيه بعد الرسالة لقد شهدت مع عمومتى حلفاً في دار عبدالله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت

ولخمس وعشرين سنة من مولده تزوج خديجة بنت خويلد الأسدية من بنى أسد ابن عبد العزى وكانت سيدة محترمة في قومها ذات يسار تستأجر الرجال في مالها وتضارهم إياه وكان سيدنا محمد بن عبد الله مشهورا في قومه بالأمانة حتى كانوا يسمونه بالأمين فعرضت إليه أن يسافر إلى الشام بمالها وأرسلت معه غلاما ميسرة فذهبها حتى أتيا الشام وباعا وابتاعا وربحوا ثم عاد إلى مكة ويروى ابن جرير الطبرى عن ابن شهاب الزهري أن هذه الرحلة التي ذهبت فيها بتجارة خديجة إنما كانت إلى سوق حباشة باليمن لا إلى الشام والرواية الأولى أشهر

بعد هذه الرحلة عرضت السيدة على الأمين أن يتزوجها فرضى وكانت سنها أربعين سنة فخطبها عمه وتم الزواج بينهما قبل الهجرة بثمان وعشرين سنة أقامت معه منها خمسا وعشرين وهي أم أولاده جميعا مع اعدا إبراهيم الذى ولد له بالمدينة فإنه من مارية القبطية التي كانت من قرية حفن من كورة انصنا

وكانت خديجة من أفضل نساء قومها نسابا وثروة وعملا ولها في تاريخ الإسلام أجل ذكر وأصدقه وسيدتضح بعد

ولخمس وثلاثين سنة من مولده كان هدم قريش للكعبة وتجديد بنائها فإنها كانت وضيمة فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها وكانوا يهابون هدمها فابتدأ به الوليد ابن المغيرة المخزومي وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصب الوليد شيء ولم يزلوا في الهدم حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل ثم شرعوا في البناء على قواعده والذى تولى البناء روى اسمه باقوم وقد قسموا العمل فيها على قبائل قريش ثم قصرت بهم النفقة الطيبة عن إتمامها على قواعد إسماعيل فدخلوا عنها من الجهة الشمالية نحو آمن ستة أذرع وصعدوا بها في الجو حتى إذا وصلوا إلى مكان الحجر الأسود اختلموا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه واشتد النزاع بينهم فعرض عليهم التحكيم أحد رؤسائهم فارتضوه وكان الحكم سيدنا محمد بن عبد الله فطلب رداءا ووضع فيه الحجر وطلب من الرؤساء أن يمسك كل رئيس بطرف منه وأمرهم أن يرفعوه حتى إذا حاذى موضعه أخذه بيده فوضعه مكانه وكان هذا الحكم موجبا لرضاهم وابتعاد الشحنة من أنفسهم وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريبا يبلغ ارتفاعه ١٥ مترا وطول ضلعه الذى فيه الحجر الأسود والمقابل له ١٠ ، ١٠ م والحجر موضوع على ارتفاع ٥٠ ، ١٠ م من أرضية

المضاف والضلع الذي فيه الباب والمقابل له ١٢ م وبأعلى ارتفاع مترين من الأرض ويحيط بها من الخارج قسبة من البناء أسفلها متوسط ارتفاعها ٢٥ م ومتوسط عرضها ٣٠ م وتسمى بالشاذروان وهي من أصل البيت ولكن قریشا تركتها واستظهر محمد لبيب بك البتانوني فيما كتبه عن الكعبة في رحلته الحجازية التي اقطننا منها هذه المعلومات أن هذا الاسم يحدث أما في عهد ابن الزبير أو عهد الحجاج بن يوسف وللكعبة أربعة أركان : الشمالي واسمه الركن العراقي والغربي واسمه الشامى والجنوبي واسمه اليماني والشرقي واسمه ركن الحجر لأن الحجر فيه وهو حجر صقيل يضارى غير منتظم ولونه أسود يميل إلى الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء وهي أثر لحام القطع التي كانت انفصلت منه وقطره نحو ٣٠ م والمسافة التي بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وقباله الحائط الشمالي الحطيم وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتي البيت ويعدان عنها ٣٦ ، ٢ م ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكها ١٠٥٠ م ومسافته ما بين منتصف ضلع الكعبة ٤٤ ، ١ م وهذا الفضاء يسمونه حجر إسماعيل وقد كان يدخل منه حملاثة أم تار تقريباً في بناء إبراهيم ويقال إن إسماعيل وهاجر أمه مدفونان في الحجر السيرة الأدبية قبل النوة

اتفق جميع المؤرخين أن سيدنا محمد بن عبدالله كان في قومه ممتازاً بأخلاق جميلة منها صدق الحديث والأمانة حتى سموه الأمين وكانوا يودعون عنده ودائعهم وأمانتهم . وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذبح على الصب ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً بل كان من أول نشأته يفر من هذه المعبودات الباطلة . وكان يأكل من نتيجة عمله لأن أباه لم يترك له من الثروة إلا شيئاً قليلاً وكان عمله حين شب - الجارة ولما تزوج خديجة كان يعمل بمالها ويشركها في الربح وكان يشارك غيرها أحياناً ولم يكن يقرأ ولا يكتب ولا بد لنا من ذكر مسألة وضعها الأصوليون من علماء المسلمين في موضع البحث وهي هل كان متعبداً بشريعة قبل نبوته بعد قول الأئمة منهم إن هذه مسألة من اختصاص التاريخ لا من اختصاص أصول الفقه

فقال جمهورهم إنه لم يكن مكلماً باتباع شريعة قما من الشرائع الماضية واستدوا أبانه لو كان مكلماً بشريعة لفضت العادة بمخالطة أهلها ووجبت تلك المخالطة لياخذ منهم تلك الشرائع ولكنه لم يفعل لأنه لو حصل ذلك لتوفرت الدراعى على نقله ولم ينقش شيء من ذلك

وتوقف في الرأي بعض الأئمة كالغزالي وشيخه إمام الحرمين والآمدي لأنهم لم يظفروا بما يؤاوم للحكم في مثل تلك المسألة

وقال بعضهم إنه كان متعبداً بشريعة ولكن ما هي تلك الشريعة اختلفوا في تعيينها فن قائل إنها شريعة آدم أو نوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى صلوات الله عليهم أجمعين وهو اختلاف يدل على أن أصحاب هذا الرأي ليسوا مرتكزين على دليل قوى يعضدوهم وإنما هي مجرد أفكار

واختار الكمال بن الهمام من الأصوليين مذهبا مهما وهو أنه متعبد بما ثبت أنه شرع إذ ذاك إلا أن تثبت شريعتان أمرين متضادين فبالأخير فإن لم يعلم الأخير فهو متعبد بما يركن إليه منهما واستدل على ذلك بأن التكليف لم ينقطع من بعثة آدم عموما وخصوصا ولم يترك الناس سدى تط لزم التعبد كل من تأمل من العباد وبلغه ذلك المتعبد به وقل إن هذا الدليل يوجب التعبد في غيره وتخصيصه بالبحث أمر اتفاق والذي نراه أن التفصيل في مثل هذه المسألة إنما هو التاريخ لأمثل هذه البراهين لأن مثل هذا الرأي يلزمه أن الإنسان مطلوب منه أن يتطاب جميع الشرائع الماضية التي سبقت ويعبد الله بما يثبت أنه منها ويرجع بين اللاحق والسابق وهذا أمر لم نسمع أنه عليه السلام فعله حتى كنا نقول أنه أدى ما كلف به والتاريخ يثبت أنه قبل نبوته رضى الأوثان وعبادتها والتقرب إليها وكان يطوف بالكعبة ويحج كما كان الناس يحجون ويأزم مكارم الأخلاق التي في مقدمتها الصدق والأمانة والوفاء ولم يشرب الخمر وهذه كلها خصال يحمل عليها العقل الراجح وكان يتعبد في غار حراء وهو غار صغير على جبل النور الذي على يسار السالك إلى عرفة وعبادته فيه لم تكن إلا فكرياً في خالق الكون العظيم وكان يتعبد فيه عبدالمطلب وقال المؤرخون إنه أول من تعبد فيه ولم يعلم عنه أنه كان يراعى الطرق التفصيلية للعبادات في الشرائع التي سبقت ولم يكن قبل نبوته وصل إلى الحقيقة في أمر الخالق جل ذكره وإلى ذلك الإشارة في الكتاب (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) وقال في سورة الضحى بما آتت به عليه (ووجدك ضالا فهدى) والضلال الحيرة والهداية النبوة

المحاضرة الثامنة

البعثة - الوحي - الدعوة السرية - الجهر بالدعوة
ما كان من قريش - هجرة الحبشة

البعثة :

الذي يختارهم الله لإصلاح الامم ياتي إليهم ما يريد أن يبلغوه عنه بالوحي والوحي - في لغة العرب - إعلام مع خفاء وسرعة ومعنى السرعة أن هذه المعلومات المتلقاة لا تكون نتيجة لمقدمات تنبئ عليها تلك النتيجة بل هي أشبه شيء بالعلم الضروري الذي لا يتوقف على نظر واستدلال وقد استعملت هذه الكلمة في القرآن ، وفي لسان العرب لغیر إعلام الله لأنبيائه فقال تعالى (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلين كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا) وقال (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) وقال مخبرا عن يوسف في صغره (وأوحينا إليه لتنبئتم بأهركم هذا وهم لا يشعرون) وكل هذا لا يعدو معنى الإلهام الذي ربما شعر به كثير من الناس

أما إعلام الله أنبياءه المختارين فإن العبارة العلمية تضيق عن تحديد كنهه وغاية ما يمكن الإنسان هو أن يحوم حوله مستعينا بما قاله الانبياء انفسهم فيما نزل على ألسنتهم ليقتطف منها ما يقرب ذلك إلى العقل الإنساني هذا الإعلام له مراتب الأولى : أن يخاطب في الزوم وتلك هي الرؤيا الصادقة وقد ورد ذكرها كثيرا في التوراة والقرآن وكتابات الرسل وتعتبر التوراة عنها بمثل قولها صار كلام الرب إلى إبراهيم في الرؤيا قائلا الخ

ويعبر عنها القرآن بمثل قوله عن لسان إبراهيم صلوات الله عليه مخاطبا لابنه الذبيح (يا بني إني أرى في المنام أن أذبحك) ومن هنا يقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا الانبياء حق ونحن معاشر الانبياء تمام أعيننا ولا تمام قلوبنا المرتبة الثانية : أن ياتي ما يراد إلقاؤه على قلبه من غير وساطة وهو يقظان وذلك

هو المسمى بالإلهام والإلقاء في الروح ويسمى بعض فلاسفة المسلمين القوة التي تحدث بالخير وتلقيه في النفس ملكا على العكس من القوة التي تحدث بالشر وتلقيه في النفس فإنه يسميها شيطانا وفلاسفة المسلمين غرائب في كلامهم عن الملائكة والشياطين . وقد يستروحون بقوله تعالى في الكتاب (نزل به الروح الأمين على قلبك) المرتبة الثالثة : أن يرسل الله إليه رسولا يخبره بما يريد إعلامه إياه وهو المسمى بالملك فيحدثه ويصف القرآن هذا الرسول بقوله (إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين) ويظهر هذا الملك للأنبياء في التوراة كثيرا المرتبة : الرابعة أن يسمعه الله كلامه مباشرة كما حصل لموسى عليه السلام حينما سمع الصوت من العقلىة المتقدمة كما عبرت التوراة وقال القرآن عن هذه الحادثة (وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آتت نارا لملى آتكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاهم نودى يا موسى إنى أبارك فأخلع زمليك إنك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى)

هذه هي المراتب التي عرف أن الوحي يبلغ قلوب الأنبياء عليها ، ولا تكاد تتباعد باعتبار نتيجتها وهي ركوز المعاني في القلب بحيث يعلم المخاطب علما ضروريا أن ذلك من الله وكان يحصل لهم وقت هذا الاعلام شدائد يحصل شيئا من جنسها لمن فنى فكرهم في أمر أو حادثة فإنك تجد من هؤلاء من يغيب عنك حتى لقد تحدثه فلا يسمع ويتصعب من جراء ذلك عرقا ولسنا نريد تشبيهه الحالين بعضهم ببعض ، إنما نحن نستروح بما نراه ونحس به لنقرب إلى الأنفس مالا يحس به وليس في مكنتها أن تدرك حقيقته : إذا كان الفناء في مسألة أو حادثة يجمل الإنسان على نحو ما رصفنا لكم فكيف بالفناء في الإله أنا لا أستغرب ما قرأته في بعض الكتب أن صوفيا لسع يعقرب فلم يتحرك ولم يتأثر ، وآخر هدم بجانبه جدار فلم يحس به ! لأنى أعلم أن الجندى يصاب في الموقعة بالجرح المؤلم فلا يحس به ويمضى لشأنه حتى إذا تمت الموقعة ورجعت الروح من تعلقها بما كانت فيه إلى أمر جسمها أحست بالآلم : كل هذا يفهمنا ما يكون من الأنبياء عن الوحي من غيبتهم عن محضرتهم من الناس حتى لا يحسون بأحد

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ! فقال أحيانا يأتينى مثل

صلصلة الجرس ، وهو أشده على فيفصم عنى وقد وهيت ماقال وأحيانا يتمثل لى
رجلا فأهى مايقول

ومما روى أنه كان يكابد من التنزيل شدته حتى أنه كان يوحى اليه فى اليوم الشديد
البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا

وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلا تكلم فيه على الوحى والرؤى ولكن قلما يظفر
الإنسان منه بطائل وفيما بيناه لكم كفاية وتقريب

كان أول ما بدئ به سيدنا محمد بن عبد الله من الوحى الرؤيا الصالحة فكان لا يرى
رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح : كما رواه البخارى من حديث عائشة

وبينما كان يتعبد بغار حراء حسب عادته إذ جاءه الوحى وذلك فى يوم الاثنين لسبع
عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده فيكون عمره إذ ذاك
بالضبط أربعين سنة قرية وستة أشهر و ٨ أيام وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة
أشهر وثمانية أيام : وذلك يوافق ٦ أغسطس سنة ٦١٠ . ولامعنى للاختلاف
فى تحديد اليوم بالتقويم العربى بعد أن أشار اليه الكتاب إشارة ظاهرة لاتخفى على
من له إلمام بالارىخ فقد قال (إن كنتم آمنت بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان
يوم التقي الجمعان) والمراد بيوم التقاء الجمعين يوم بدر وكان فى صبيحة يوم الثلاثاء ١٧
رمضان من السنة الثانية للهجرة وقد جملة (١) عاما لأقول يوم نزل فيه القرآن . وليلة نزول

(١) جرت العادة فى التعبير أن نجعل اليوم المعين عدده محلا لكثير من الوقائع
مع أنه ليس من سنة واحدة كما يقولون يوم عاشوراء فيه أهبط آدم وفيه نجت سفينة
نوح وفيه نجا موسى من الغرق وليس عاشوراء من سنة واحدة بالضرورة فهذا
اليوم بصفته ١٧ رمضان كان محلا لنزول الفرقان أول مرة والتقاء الجمعين ببدر وليس
اليوم واحدا بالشخص وإنما هو بكونه ١٧ رمضان وتدبر الآية بين أنه لا يصح
أن يراد منها غير هذا لأن الذى فزق الله به بين الحق والباطل إنما هو اختيار الله
محمد لأن يبلغ عنه إلى الناس رسالته وليس ظفر المسلمين فى موقعة مما يرتقى إلى تلك
الدرجة ومن هنا يعلم ما وقع فيه العالم الفاضل محمود باشا الفلكى من الخطأ حيث جعل
الرسالة فى ربيع الأول الذى يوافق فبراير سنة ٦١٠ والذى أوقعه فى الخطأ مافى .
بعض الروايات من أنه عليه السلام بعث على رأس الأربعين

القرآن هي التي قال فيها الكتاب (إنا أنزلناه في ليلة القدر) وقال (إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منزلين فيها يفرق كل أمر حكيم أمر أمن عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك إنه هو السميع العليم) وهذا هو السبب في تخصيص الإسلام شهر رمضان بالصيام لأنه هو الشهر الذي كان يتعبد فيه الرسول بغار حراء ونزل عليه القرآن فيه لأول مرة (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) وجعلت نهايته عيداً تذكراً لذلك الأمر العظيم ووجبت فيه صدقة يدفعها المسلمون لفقرائهم وهي المسماة بصدقة الفطر : كل ذلك إذا تنبه إليه الإنسان أبعدته عن كثير من التعاليم التي تاتي إلى العامة

وقد روى ابن هشام كيفية بدء الوحي بما أخبر به الرسول عن نفسه قال لجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ قلت ما اقرأ ؟ قال فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ قال : قلت ماذا اقرأ ؟ قال فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ قال فقلت ما اقرأ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق : اقرأ وربك الأكرم : الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) قال فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهبت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً فخرجت حتى إذا كنت في الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فوقف أنظر إليه فما أتقدم أمامي وما أرجع ورأيت حتى بعثت خديجة في طلي فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى نخذها مصغياً إليها فقالت يا أبا القاسم أين كنت ؟ لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا ، ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت أبشر يا ابن عم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ثم قامت فجمعت ^(١) عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان ورقة

قد تنصرو وقرأ الكتب وسمع أهل النوراة والإنجيل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ فقال ورقة قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى برأيه لئني هذه الأمة فقولي له فليثبت . فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قال ورقة فلما نفي عليه السلام جواره وانصرف صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها فقال له ورقة والذي نفسي بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبه ولتؤذنه ولتخرجنه ولتقاتله ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرت الله نصراً يعمله ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى منزله

لم يبق بعد تيقنه عليه السلام مما كلفه إلا أن يحمل أعباءه التي لا يحمّلها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون من الله وتوفيقه

وعما يزيد هذا العبء ثقلاً وشدة أنه ابتدئ تحمله في مكة وهي مركز دين العرب وبها سدنة الكعبة والقوام على الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسراً وشدة عما لو كان بعيداً عنها فالامر يحتاج إلى عزيمة لا تزلها المصائب والكوارث

كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة - إلى هذا الدين - في بدء أمرها - سرية لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم - ولنسم هذه الدعوة دعوة الأفراد - فكان يدعو كل من توسم فيه خيراً ممن يعرفونه ويعرفونه . يعرفهم بحب الحق ويعرفونه بتجزئ الصدق فأجابه من هؤلاء جمع سماهم التاريخ الإسلامي بالسابقين الأولين ، وفي مقدمتهم خديجة بنت خويلد وزوجها ، وزيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبى ، وكان قد أسروا ورق فلما ملكته خديجة ووهبته لزوجها فتبناه حسب قواعد العرب وكان لذلك يقال له زيد ابن محمد وعلي بن أبي طالب وكان يعيش في بيت رسول الله تخفيفاً عن أبي طالب لما كثر ولده وأبو بكر بن أبي قحافة عثمان التيمي ؛ وكان أبو بكر محبوباً في قومه وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ودعا أبو بكر بعد إيمانه نقرأ ، ممن كان يألفهم ويألفونه فأجابه عثمان بن عفان الأموى والزبير بن العوام الأسدى وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص الزهريان وطلحة بن عبيد الله التيمي ؛

ثم تلام أبو عبيدة عامر بن الجراح من بنى الحارث بن فهر ، وأبوسلمة عبد الله بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان وهبيدة بن الحارث بن عبد المطلب المطلي وسعيد بن زيد العدوي وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية وغيرهم وأولئك هم السابقون الأتقون وهم من جميع بطون قريش ، وكان الرسول يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين مستخفياً في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي بمكة - لأن الدعوة كانت لاتزال فردية وهذه الدار لاتزال باقية بمكة ولاكنها غير معتنى بها الاعتناء اللائق بمقامها التاريخي. استمرت هذه الدعوة الفردية ثلاث سنين أجابه في خلالها جماعة لهم شأن ومعهم غيرهم من المستضعفين

وبعد هذه المدة أمر أن يجهر بالدعوة إلى الدين بقوله تعالى في سورة الحجر (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فأعلن لقومه الدعوة إلى الله وتوحيده ، فلم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها ونسب كل من عبدها أو جعلها بينه وبين الله إلى الضلال وجز ذلك إلى تضليل آباؤهم فإنهم كانوا يحتجون عليه دائماً بأنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباؤهم وذلك هي العقبة الصعبة في سبيل كل المصلحين فكان ذلك داعية إلى تهجين ما كان عليه آباؤهم فلما كان ذلك نفروا منه وبادروه بالعداوة لم يكن هناك بد من أن تكون له حماية تمنع عنه ما عسى أن يهجم به أعداؤه من الفتك به حماية لدينهم وشرف آباؤهم ، وكان عمه أبو طالب سيد بيته وله الحق - بحسب أصول العربية - أن يجير ! فإن فعل كان التعدي على من يجيره ويحميه كأنه اعتدى على البيت بأسره . وبيت عبد مناف كان أشرف بيوت قريش على الإطلاق . فحذب أبو طالب على رسول الله وأجاره وقام دونه ومضى الرسول لشأنه في الدعوة والجهاد بما ينزل عليه من الوحي

لما رأت قريش أنه صار في منعة بجوار أبي طالب مشى رجال من أشرف قريش إليه يطلبون منه أن يكف ابن أخيه عن سب آلهتهم وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آباؤهم أو يخلى بينهم وبينه فردم أبو طالب رداً جميلاً فانصرفوا عنه . ولما رأوا أن هذه الوفادة لم تقدم شيئاً تدمروا وحض بعضهم بعضاً عليه ثم مشوا إلى أبي طالب مرة ثانية قائلين إنهم لا يصرون على هذا الحال !! وخبروه بين أن يكفه عما يقول أو ينازلونه وإياه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم

يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ولكنه قال له يا ابن أخى إن قوهك جاؤونى وقالوا لى كذا وكذا فأبى على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق فظن الرسول أن عمه خاذله ومسلبه وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه فقال : والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك دونه - ما تركته ثم استعبر وبكى فلما ولى ناداه أبو طالب فقال أقبل يا ابن أخى فلما أقبل عليه قال له اذهب فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً

فلما رأت قريش أن أباطالب قد أبى خذلان ابن أخيه مشوا إليه بعمارة ابن الوليد وقالوا له إن هذا الفتى أنهد فتى فى قريش وأجمله نخذه فلك عقلة ونصره واتخذ ولدأ فهولك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومه وسفه أحلامهم فنقتله فإنما هو رجل برجل فقال لهم أبو طالب لبئس ما تسومونى أتعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطىكم ابني تقتلونوه ؟ ! ولما رأى أبو طالب تألب قريش عليه قام فى أهل بيته بنى هاشم وبنى المطلب ولدى عبدمناف وقد كان هاشم والمطلب من أم واحدة دون أخويهما عبدشمس ونوفل - ودعاهم إلى ما هو عليه من منع ابن أخيه والقيام دونه فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم حمية للجوار العربى إلا ما كان من أخيه أبى لى فإنه فارقههم وكان مع قريش ولا أدرى أفضل حميته لدينه على حميته لشرف أخيه أم كانت هناك أسباب أخرى أدت إلى هذا الانفصال ؟ ولا أظن أن كونه من أم أخرى غير أم أبى طالب يدعو إلى مثل ذلك لأن هذا الاختلاف لم يكن - وثراً هذا التأثير فى قلوب العرب بين الإخوة لأن العصبية للأخ كانت عندهم فوق كل شيء ولا يبعد عندى أن زواجه بأم جميل بنت حرب دعاه إلى مثل هذا لأن أم جميل كانت من ألد أعداء رسول الله حتى أنها كانت تذبح عنه الأكاذيب فى مجامع النساء فتشعل بذلك الأكاذيب نار العداوة فى قلوبهن : ويعبر العرب عن مثل ذلك الفعل بحمل الحطب لأنه هو الذى يؤجج النيران ، ولذلك ذكرت فى السورة الحادية عشرة بعد المائة بلقب حمالة الحطب

قرب وقت الحج والعرب سترد من آفاق الجزيرة لزيارة الكعبة رأت قريش أنه لا بد من كلمة يقولونها للعرب فى شأن محمد حتى لا يكون لدعوته أثر فى أنفس العرب فاجتمعوا يتداولون فى تلك الكلمة لأنهم إذا اختلفوا وكذب بعضهم بعضاً فإن ذلك

يضعف من قولهم عند سائر العرب . فقال واحد منهم تقول كاهن فقال لهم الوليد بن المغيرة وهو ذوالسن فيهم ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان وما هو بزمنة الكاهن ولا سحبه فقال آخر تقول مجنون : فقال الوليد ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه ما هو بخقه ولا تخالجه ولا وسوسه : فقال آخر تقول هو شاعر : فقال ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر فقال آخر تقول ساحر : قال ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرم فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا فما تقول أنت ؟ قال والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته فتفرقوا على ذلك وصاروا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمتز بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا له أمره وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها ولما خشى أبو طالب دهاء العرب أن يركبوه مع قومه قال قصيدته المشهورة التي تعود فيها بحرم مكة وبمكانه منها وتودد فيها أشراف أهل بيته من بني عبد شمس ونوفل ، وهو على ذلك يخبرهم أنه غير مسلم رسول الله ولا تاركة لشيء أبداً فيها يقول :

كذبتهم - وبيت الله - نترك مكة ونظعن إلا أمركم في بلابل
كذبتهم - وبيت الله - نبزى محمداً ولما نطاعن دونه وتناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وفيها يقول :

فوالله لولا أن أجيء بسبة تجر على أشياخنا في المحافل
لكننا اتبعناه على كل حالة من الدهر جداً غير قول النهازل
لقد علموا أن ابننا لا يكذب لدينا ولا يعني بقول الأباطل

لما رأت قريش أنهم لم ينالوا من أبي طالب ما أرادوا عمدوا إلى الفتنة (١) فن

(١) يقال فنتت الفضة والذهب إذا ذبتها بالنار لتمييز الرديء من الجيد واستعملت في الابتلاء والامتحان والاختبار - والمراد بها في لسان الدين تعذيب المتدين حتى يرجع عن دينه

جهة الرسول أغروا به سفاهم وهم العدة في مثل هذه المواطن لكل من ضاد إصلاحا فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، وهو مظهر لأمر الله لا يستخفى منه مباد لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أو ثأنهم وفراقه إياهم على كفرهم لا يبالي بما يصنع سفاؤهم معه

وأما من جهة من اتبعه فإن كل قبيلة صارت تعذب من دان منها بالإسلام أنواعا من التعذيب يفزع قلب الحليم من ذكرها وهم يحملونها بصبر عجيب . ولما رأى الرسول ما يصنع بأصحابه - وهو غير قادر على حمايتهم مما يسامونه من سوء العذاب - قال لهم لو خرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجا مما أتم فيه فقرؤا إلى الله بدينهم ، وهذه كانت أول هجرة في الإسلام وكان المهاجرون أولا عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم تبعهم بعد ذلك جماعة آخرون حتى كانت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلا ، ومعهم من نساءهم سبع عشرة امرأة سوى من خرج معهم من أولادهم الصغار وكانوا من جميع بطون قريش

فلما وصلوا إلى الحبشة أكرم النجاشي مشواهم وأعلنوا هناك عبادتهم لا يخشون شراً ، فلما بلغ ذلك قريشاً لم يتركوها هؤلاء الذين فارقوهم وتركوا لهم البلاد يطمثنون في منزلهم الجديد !! فاختاروا رجلين منهم ليذهبا إلى النجاشي ويطلبوا منه ردّهم إلى بلادهم وأرسلوا معهم هدايا له ولبطارقتة وهذان الرجلان هما عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو ابن العاص فلما وصلا إلى بلاد الحبشة وأتحفا البطارقة والنجاشي بالهدايا قال له أيها الملك قد ضوى إلى بلادك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آباؤهم وأعمامهم وعشيرتهم لتردّهم عليهم فهم أهلي بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ويظهر أن هذين الرسولين لم يكونا مخلصين لقومهم في هذه الرسالة فإن السيدة أم سلمة إحدى المهاجرات ورواية هذا الخبر تقول ولم يكن شيء أبغض إلى عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهما النجاشي : فلما أديا الرسالة قال النجاشي لهما إذا لآسدهم إليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا في بلادى واختاروني على سوى - حتى أدموم فأسألم عمما يقول هذان في أمرهم ؟ فإن كان كما يقولان أسلتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم وأحسن جوارهم

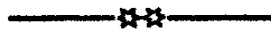
ما جاوروني ، ثم أرسل إلى جماعة المهاجرين فجاءوا فقال لهم ما هذا الدين الذي فارقتم به قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل فكلمه جعفر بن أبي طالب فشرح له ما كانت عليه حالهم قبل الدعوة الإسلامية وما أمر به الرسول من ترك عبادة الأوثان والرجوع إلى الله وما وصاهم به من مكارم الأخلاق : ثم قال إن قومنا بغوا علينا وأرادوا فتنتنا عن ديننا فخرجنا إلى ديارك واخترتناك على من سواك ورجبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك فطلب منه النجاشي أن يقرأ عليه شيئاً مما جاء به الرسول فقرأ له صدرآ من سورة مريم وفيه حديث ميلاد المسيح فقال النجاشي هذا والذي جاء به المسيح ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا . فلا والله لأسلمهم إليكما ولا يكادون ، فلما خرجا قال عمرو بن العاص لرفيقه والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم فقال عبد الله لا تفعل ! فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالمونا قال والله لا أخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد . ثم غدا على النجاشي فقال أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولا عظيما فسلمهم عنه فطلبهم النجاشي ولما دخلوا عليه سأل المتكلم عنهم عما قال عمرو ! فقال جعفر نقول فيه الذي جاءنا به نبينا هو عبد الله ورسوله وروحه وكنيته ألقاها إلى مريم العذراء البتول فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال والله ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود ، فأغضب هذا القول منه بطارقه واسكنه لم يحفل بذلك وقال لمعشر المهاجرين اذهبوا فأنتم شيوم - ومعنى هذه الكلمة بالحبشة آمنون ، ورد على الرجلين هداياهما

وهؤلاء المهاجرون رجع بعضهم إلى مكة - قبل الهجرة إلى المدينة وبعضهم أقام بالحبشة إلى السنة السابعة من الهجرة وسيدكر خبرهم بعد

كان قد أسلم قبيل هذه الهجرة رجلان من كبار قريش مشهوران بالفتوة والنجدة وهما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب الذي كان قبيل أن يسلم من أعظم المعارضين للإسلام والمتقمين بمن أسلم

ومما يدل على شدة شكيمته على المسلمين ما روته أم عبد الله بنت أبي حثمة قالت والله إنا لنرحل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف على وهو على شركه قالت وكنا ناتي مته البلاء أذى لنا وشدة علينا قالت فقال إنه الانطلاق

يا أم عبد الله قالت فقلت : نعم والله لنخرجن في أرض الله آذيتونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجا قالت فقال سبحانه الله ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف وقد أحزنه - فيما أرى - خروجنا قالت فجاء عامر (تعنى زوجها) فعات له يا أبا عبد الله لورأيت عمر آتفا ورقته وحزنه علينا ! قال أطمعت في إسلامه ؟ ! فقلت نعم ، قال فلا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب ، قالت ياسأ منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام



المحاضرة التاسعة

في مقاطعة قريش لبني هاشم والمطلب - هجرة الطائف - العرض على قبائل العرب وإجابة الأنصار - البيعة - الهجرة

رأت قريش أن حيلهم قد نفدت فرسول الله منعه عمه وقام معه بنو هاشم والمطلب - مسلمهم وكافرهم - والمسلمون قد لاذوا ببلاد الحبشة فأمنوا بها فعمدوا إلى حيلة أخرى وهى مقاطعة بنى هاشم والمطلب : فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعون منهم شيئا ، ولما أجمعوا أمرهم على ذلك كتبوا صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم بذلك ، فأنحازت بنو هاشم والمطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه فاجتمعوا إليه وخرج منهم أبو لهب بن عبدالمطلب إلى قريش فظاهرهم

أقام أبو طالب في الشعب أكثر من سنتين وهو ومن معه يقاسون أشد الجهد من مقاطعة قريش لهم ، والرسول مع ذلك مستمر على دعوته يدعهم ليلا ونهارا سرا وإعلانا مناديا بأمر الله لايتقى فيه أحدا من الناس

كان في رجالات قريش من تأثر لحال بنى هاشم وبنى المطلب وأعظمهم في ذلك أثرا كان هشام بن عمرو ، ومن بنى عامر بن لؤى وكان ابن أخى نضلة بن هاشم ابن عبد مناف لأمه ، وكان ذا شرف في قومه فمضى إلى زهير بن أبي أمية من بنى مخزوم ، وقال له يازهير : أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء

وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح اليهم :
أما إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دهورته إلى مثل مادعاك
إليه منهم ما أجابك إليه أبداً !! قال ويحك يا هشام إنما أنا رجل واحد والله لو كان
معى آخر لقممت فى نقض الصحيفة حتى أنقضها ، قال قد وجدت رجلا قال من هو ؟
قال أنا قال زهير ابغنا رجلا ثالثا فذهب إلى مطعم بن عدى وهو سيد بيت نوفل ابن
عبد مناف فقال له مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من عبد مناف وأنت شاهد
على ذلك موافق لقريش فيه أما والله إنى أمكتهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعا
قال ويحك ماذا أصنع فإنما أنا رجل واحد ، قال قد وجدت ثانيا قال من هو ،
قال أنا قال ابغنا ثالثا قال قد فعلت ، قال من هو ، قال زهير بن أبى أمية قال ابغنا رابعا
فذهب إلى أبى البختري بن هشام فقال له نحوا عما قال لمطعم وأهله بما اتفقوا عليه
فقال ابغنا خامسا فذهب إلى زمعة بن الأسود من بنى أسد ابن عبد العزى فكلمه
وذكر له قرابة بنى هاشم والمطلب وحقهم ، فقال وهل على هذا الأمر الذى تدعونى
إليه من أحد . قال نعم : وسمى له القوم فأتعدوا حطام الحجرون ليلا بأعلى مكة فاجتمعوا
هناك وتعاهدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها . وقال زهير أنا أبدوكم فلما أصبحوا
غدوا إلى أنديتهم وغدا زهير بن أبى أمية وعليه حلة فطاف بالبيت سبعا ثم أقبل على
الناس فقال يا أهل مكة أنا كل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكنى
لا يباعون ولا يبتاع منهم !! والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة
فقال أبو جهل بن هشام كذبت والله لا تشق فقال زمعة أنت أكذب مارضينا كتابتها
حيث كتبت ، قال أبو البختري صدق زمعة لانرضى ما كتب فيها ولا تقر به ، قال
المطعم بن عدى صدقتما وكذب من قال غير ذلك ! نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها
وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك . فقال أبو جهل هذا أمر قضى بليل تشور فيه
بغير هذا المكان وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها
فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم

مكثت الحال على ذلك والمسلمون كل يوم فى ازدياد من قريش ومن غيرهم ،
ولا يتمكن أعداء الرسول من الاعتداء عليه حتى كانت السنة العاشرة من النبوة فأصيب
الرسول بمصيبة عظيمة وهى وفاة عمه أبى طالب وزوجه خديجة بنت خويلد فى يومين

متقاربين في شهر شوال ، وكانت خديجة له وزهر صدق على الإسلام يشكو اليها وكان عمه عضدا وحرزا في أمره ومنعة وناصره على قومه وكان موتهما قبل الهجرة بثلاث سنين فنالت قريش من أذى الرسول ما لم تكن تطامع فيه في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فثر على رأسه ترابا

رأى الرسول أنه لا بد له من تضديوزاره ويدفع عنه أذى قومه حتى يؤدي رسالة ربه فذهب إلى الطائف - وبها بطون ثقيف - وعمد إلى أشرفهم وذوى الرئاسة منهم وهم إخوة ثلاثة عبد ياليل وسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفيون فجلس إليهم ودعاهم إلى الله وكلهم بما جاءه من نصرة الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه فرد عليه ثلاثتهم ردا قبيحا فانس منهم وعاد عنهم فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس والجثوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه . ولما قدم مكة أرسل إلى المطعم بن عدي يخبره أنه يدخل مكة في جواره فأجابه إلى ذلك ثم تسامح المطعم وأهل بيته حتى أتوا المسجد ، ثم بعث إلى رسول الله أن ادخل فدخل رسول الله نطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله ففى ذلك يقول حسان بن ثابت في رثاء المطعم لما توفى

أجرت رسول الله منهم فأصبحوا عبيدك ما لبى مهل وأحرما

كان الرسول يقوم في مواسم الحج داعيا من أقبل إلى مكة من سائر العرب ويقرأ عليه القرآن ويطلب منهم أن يقوهوا دونه حتى يؤدي رسالة ربه فكانوا لا يجيبونه إلى ذلك ، ومنهم من يرد عليه ردا قبيحا . عرض ذلك على بنى عامر بن صعصعة فقال كبيرهم أرايت إن نحن تابعتك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أن يكون لنا الأمر من بعدك قال الأمر لله يضعه حيث يشاء ، فقال له أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك اوعرض ذلك على بنى حنيفة من ربيعة فلم يكن أحد أقبح ردا منهم

فى ذلك الوقت كانت نيران العداوة متقدة فى يثرب بين الأوس والخزرج وكانت الخزرج أكثر عددا ففكر الأوس أنهم يستعينون بقريش فيحالفونهم على بنى عمهم من الخزرج فأرسلوا لذلك وفد أفهم أبو الحيسر أنس بن رافع وإياس بن معاذ فلما علم الرسول بمقدمهم جاءهم فجلس إليهم وقال لهم هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ فقالوا

وما ذاك ، قال أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وأنزل على الكتاب ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم شيئاً من القرآن فقال إياس بن معاذ - وكان غلاماً حدثاً أى قوم هذا والله خير مما جئتم له فأخذ أبو الحيسر حفنة من حصباء ورعى بها في وجه إياس وقال له دعنا منك لقد جئنا لغير هذا . فسكت إياس وقام الرسول عنهم وانصرفوا إلى المدينة

كان عقب انصراف هذا الوفد أن حصل في يثرب حرب شديدة بين الأوس والخزرج ويسمى يومها في التاريخ يوم بعث : وهو آخر حروبهم وانتصرت فيه الأوس نصراً مؤزرأ بعد أن انهزمت أول مرة

في الموسم الذي كان بعد هذه الحرب أقبل إلى مكة للحج جماعة من الخزرج فجاءهم الرسول ودعاهم إلى الإسلام كما كانت عادته وكان في أنفسهم شيء مما كانوا يسمعون به وهم في المدينة من يهودها عن بعثة نبي قرب وقت ظهوره يستظهر به اليهود عليهم ، فقال بعضهم لبعض إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه فأجابوه إلى مادعاهم بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام فقالوا له إما قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من المداورة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فدعوهم لأمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وكانوا ستة نفر من الخزرج فلما قدموا المدينة إلى قريتهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكره

فلما كان الموسم الذي قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر - وافى الموسم من أهل المدينة اثنا عشر رجلاً . فلقوا رسول الله بالعقبة وبايعوه على الإسلام بيعة تسمى في التاريخ بيعة النساء ، وإنما سميت بذلك لأنها كانت على الأمور التي ورد ذكرها في سورة الممتحنة خاصة ببيعة النساء وهي هذه الآية (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأيعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم)

وبعد أن تمت هذه البيعة بعث معهم مصعب بن عمير من بني عبد الدار أقصى

وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين ، فكان يسمى المقرئ وكان يؤمهم في المدينة لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض وكان إسلام هؤلاء النفر وذهاب مصعب معهم سببا كبيرا من أسباب دخول أشرف أهل يثرب في الإسلام فأسلم أسيد بن حضير من الأوس وكان أبوه قائد الأوس في يوم بعاث وأسلم سعد بن معاذ سيد بني عبد الأشهل من الأوس ولما أسلم ذهب إلى قومه في ناديسهم ، فقال يا بني الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة ، قال فإن كلام نساءكم ورجالكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، قالوا فرائه ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة

وكان لأسعد بن زرارة الذي نزل عليه مصعب قدم ثابتة في دعوة أهل المدينة إلى الإسلام حتى لم تبق فيها دار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلقات إلا بعض بطون خليلة من الأوس أخرها عن الإسلام صبي بن الأسلت المكنى بأبي قيس ، وكان شاعرا لهم قائداً يسمعون منه ويطيعونه : فلما كان المرسوم الأخير قدم مصعب بن عمير ، وخرج من المسلمين عدد كبير ، ومعهم حجاج من قومه لم يزالوا على الشرك ، وأرسل المسلمون إلى رسول الله يواعدونه المقابلة عند العقبة من أوسط أيام التشريق : فلما انتهى أمر الحج ومشاعره وحان الموعد خرج المسلمون من رحالم بعد انقضاء ثلث الليل يتسللون تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة وكانت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين - هما نسيبة بنت كعب من بني مازن ابن النجار الخزرجية وأسما بنت عمر وإحدى نساء بني سلة من الخزرج ، واستمروا منتظرين الرسول حتى جاءهم ومعه العباس بن عبد المطلب عمه ، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال : يا معشر الخزرج إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا من هو على مثل رأينا فيه فهو في عزم من قومه ومنعة في بلده وإنه قد أبي إلا الانحياز اليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه اليه وما نعوه من مخالفه فأتتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلووه وخاذلووه - بعد الخروج به اليكم - فن الآن فدعوه فإنه في عزم ومنعة من قومه وبلده ، فقال المتكلم من

الخزرج قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله نخذ لنفسك ولربك ما أحببت فتكلم عليه السلام فتلا عليهم القرآن ودعا إلى الله ورجب فيه ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني عما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فأخذ سيدهم البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أزرتنا فبايعنا يا رسول الله فإنا والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورتنا ما كبراً من كابر فقال أبو الهيثم بن التيهان يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حباً لا وإنما قاطواها (بني يهود المدينة) فهل عسيت : إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله - أن ترجع إلى قومك وتدعنا ، قال فتبسم الرسول ثم قال : الدم الدم والهدم الهدم يعني أنا منكم وأتم مني أحارب من حاربتهم وأسالم من سالمتم : ثم قال لهم أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيبا ليكروا نوا على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس فقال لهم : أتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومي وهاهي أسماء النقباء

(١) أسعد بن زرارة من بني النجار بن ثعلبة من الخزرج

(٢) سعد بن الربيع من بني مالك بن امرئ القيس من الخزرج

(٣) عبدالله بن رواحة من بني عمرو » » » »

(٤) رافع بن مالك من بني زريق بن عامر من الخزرج

(٥) البراء بن معرور من بني سلمة بن سعد

(٦) عبدالله بن عمرو » » » » من الخزرج

(٧) عبادة بن الصامت » غنم بن سالم » »

(٨) سعد بن عبادة » ساعدة » »

(٩) المنذر بن عمرو » »

(١٠) أسعد بن حضير من عبد الأشهل من الأوس

(١١) سعد بن خيشمة من بني كعب بن حارثة » »

(١٢) أبو الهيثم بن التيهان من بني عبد الأشهل من الأوس

وكان أول من ضرب بيده على يد رسول الله مبايعا البراء بن معرور وبنو النجار يزعمون أن أول من بايع هو أسعد بن زرارة وبنو عبد الأشهل يقولون إنه أبو الهيثم ابن التيهان : والقول الأول أثبت لأن البراء بن معرور كان كبير القوم : بعد أن انتهت

المبايعة أمرهم رسول الله أن يعودوا إلى رحالم فذهبوا إلى مضاجعهم فناموا ولما أصبحوا كان الخبر قد بلغ قريشا فجاء رؤسائهم إلى منازل الأنصار وقالوا يا معشر الخزرج قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ولأنه والله ما من حتى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم فانبعث من هناك من شركهم يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناهم وهم في يمينهم صادقون لأنهم لم يعلموه وقال لهم عبدالله بن أبي بن سلول - وهو سيد من ساداتهم لم يسلم أن هذا الأمر جسيم : ما كان قومي ليتفوتوا على بمثل هذا وما علمته فأنصرفوا عنه نفر الناس من هني وتجمست قريش الخبر فوجدوه قد كان لكن بعد أن فاتهم الأنصار بعد ذلك أمر الرسول أصحابه بالخروج إلى المدينة والحجرة إليها والحق بإخوانهم من الأنصار وقال لهم إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً آمنون بها فخرجوا لرسالة رجالا ونساء إلا من حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين لما رأت قريش أن رسول الله صارت له شيعه وأصحاب من غيرهم وغير بلدهم ورأت خروج أصحابه من المهاجرين إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم لم يبق إلا أخذ الحيلة لذلك

اجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره وكان بها أشرف قريش وذوو السن فيهم فقال قائل منهم الرأي أن نحبس في الحديد ونعلق عليه باباً ثم نترص به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم فقال شيخ فيهم ماذا لكم برأي أن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتهم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم فينزعوهم من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم . فقال آخر منهم نخرجه من بين أظهرنا فنتفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فوالله لا نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا أصاحنا أمرنا وألفتنا كما كانت : فقال ذلك الشيخ ما هذا لكم برأي !! ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به لوفعائهم ذلك ما أمنتهم أن يحل على حتى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليكم ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد : فقال أبو جهل بن هشام إن لي رأياً به ما أراكم وقعتم عليه ، وهو أن نختار من كل قبيلة شاباً حتى جلدأ

نسيباً وسيطاً فينا ثم نعطي كل قتي منهم سيفاً صارماً ثم يعددوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه ففستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومه جميعاً . فرضوا منا بالعقل فعلقناه لهم فكان رأيه هذا مقبولاً عند جميعهم واتفقوا عليه وعينوا الفتيان والليلة التي ينفذون فيها ما أرادوا

علم الرسول عليه السلام بهذا الخبر ، وبما أجمع عليه أعداؤه فتوجه إلى صديقه أبي بكر وأخبره أن الله قد أذن له بالهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فأجابه إليها ثم هياً ما يلزم لهذا السفر : را حلتين ودليلاً خريئاً يأخذ بهما أقرب الطرق واتعدا أن يكون السير في الليلة التي اتفقت فيها قريش على الفتك به في صباحها ، وفي تلك الليلة أمر ابن عمه علي بن أبي طالب أن ينام مكانه ويتسجى ببرده لئلا يرئب احد في وجده بيته وأمره بأن يبقى بمكة حتى تؤدى عنه ودائعه وكان كل من عنده شيء يخشى عليه بمكة يضعه عنده في الليلة التي تجهر فيها فتيان قريش ليفتسكوا به خرج إلى بيت أبي بكر ، وخرجا معاً من خوذة لأبي بكر في ظهر بيته ثم عمدا إلى غار بجبل ثور وهو جبل بأسفل مكة . فدخلوا وكان عبد الله بن أبي بكر يتسمع لها الاخبار وما يقال عنهما ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون ذلك اليوم من الخبر وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما يأتيهما إذا أمسى في الغار ليعني أثر عبد الله بن أبي بكر وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما

أصبحت فتيان قريش تنتظر خروج الرسول عليهم وإذابهم باتوا يحرسون علي بن أبي طالب لا محمد بن عبد الله ولما علمت بذلك قريش حاجت وأرسلت الرسل في طلبه من جميع الجهات وجعلوا لمن يأتيهم به حياً أرميتاً مئة ناقة فذهبت تلك الرسل يمينا وشمالاً ولكنها عادت بالخبيبة

أقام الرسول وصاحبه بالغار ثلاثة أيام حتى علما أن قد سكن الطلب فجاءهم الدليل - حسبما اتفقا معه - بالرا حلتين فركباهما وأردف أبو بكر خلفه عامر بن فهيرة ليخدمهما في الطريق والدليل اسمه عبد الله بن أريقط فسلك بهما إلى الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ثم سلك بهما على أسفل أمج ثم عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديداً ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار ثم ثنية المرة ثم القفا ثم مدلجة

لقف ثم استبطن بهما مدلجة بجاج ثم سلك بهما مرجح بجاج ثم تبطن بهما مرجح
ذى العصوين ثم بطن ذى كشد ثم أخذ بهما على الجداجد ثم على الأجرد ثم ذا سلم
من بطن أعداء مدلجة تعهن ثم على العبايد ثم أجاز بهما الفاجة ثم هبط بهما العرج
وهى من منازل الجادة بين مكة والمدينة ثم سلك بهما من العرج إلى ثنية الغائر عن
يمين ركوبة حتى هبط بهما بطن ريم ثم قدم بهما قباء على نبي عمرو بن عوف وذلك
يوم الاثنين لثمان خلت من ربيع الأول لثلاث وخمسين سنة مضت من مولده وهو
يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ من ميلاد المسيح عليه السلام
وإلى هنا انتهى القسم الأول من حياته عليه السلام فتبعه بفصلين أولهما في التشريعات
المكية والثاني في آثار هذه المدة

المحاضرة العاشرة

التشريع المكي

مكك الرسول في مكة من وقت النبوة إلى أن هاجر إلى المدينة اثنتي عشرة سنة
وخمسة أشهر و٢١ يوما إذا اعتبرنا آخر يوم لها هو يوم الوصول إلى قباء أنزل عليه
في أثناءها معظم القرآن والذي نزل منه بمكة ثلاث وتسعون سورة والباقي - وهو اثنتان
وعشرون سورة - نزلت بالمدينة ومنها أكبر سور القرآن وهى (٢) البقرة
(٣) آل عمران (٤) النساء (٥) المائدة (٨) الأنفال (٩) التوبة (٢٤) النور
(٣٣) الأحزاب (٤٧) القتال (٤٨) الفتح (٤٩) الحجرات (٥٧) الحديد (٥٨)
المجادلة (٥٩) الحشر (٦٠) المتحنة (٦١) الصف (٦٢) الجمعة (٦٣) المنافقون
(٦٤) التغابن (٦٥) الطلاق (٦٦) التحريم (١٠٠) النصر . وما عدا ذلك فهو مكي
وقد اشتمل التشريع المكي على أهم ما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم لأجله وبين
روحه قوله تعالى فى سورة الشورى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي
أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾
ثم قال ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهولهم وقل آمنت بما أنزل الله

من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لأحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴿

امتاز التشريع المكي بما يعبر عنه أبراسحاق الشاطبي في الموافقات بالتشريع الكلي وإنما سماه كذلك لأنه لم يتعرض فيه إلى تشريع أحكام جزئية خاصة بحال دون حال أو نوع دون نوع ، وكله - من الشرائع الأبدية التي لا يخالف فيها دين دينا ومن مصلحة العالم أجمع - فيما مضى وفيما هو آت - أن يكون متبعا لها متقادا لما جاء فيها ولذلك أطلق على ملته في القرآن في سورة الحج (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) وأعلن أنه إنما جاء مصدقا لمن سبقه من الأنبياء وقال له الله عنهم - في سورة الأنعام - بعد أن قص عليه أسماءهم (أولئك الذين هدام الله فهداهم اقتده) إلى غير ذلك وأهم ما جاءت به الآيات الملكية هو :

(١) التوحيد ورفض الأوثان والأصنام فلا يكون بين العبد وبين ربه واسطة . معلوم أن العرب كانت عامتهم تدين بالوثنية إلا قليلا منهم فلم يكن بد من مقاومة شديدة للأوثان والأصنام ، وكل ما هو منها بسبيل ولذلك رأينا معظم الآيات المكية على هذا النهج تثبت التوحيد وتقيم عليه وتناقش المعارضين وتذم الشرك والأوثان والأصنام وتنعى على المتوسلين بها مذاهبهم تصریحا وتلمیحا : ضربت الأمثال بالأم السابقة وما أصيبوا به من جراء شركهم بالله وتكذيبهم للأنبياء والرسل ، وكثرت ذلك تكرارا مؤثرا بأساليب مختلفة : لأن أشد ما يفعل في النفوس لإثبات التعاليم فيها إنما هو التكرار مع تنوع الأساليب . وأكثر الأنبياء ذكرا في آيات الكتاب موسى صلوات الله عليه وما حاور به فرعون مصر من سؤال وجواب لإثبات ألوهية الله وما اتصف به من عظيم الصفات ثم ما كان من شأنه مع قومه حينما كانت تحن أنفسهم إلى الوثنية فيتخذون العجل الذهبي معبودا ثم ما كان من تحذيره إياهم عن الوقوع في هذا الشرك ، وإبعادهم بالشرك إذا هم عادوا إليه : وقلنا نرى سورة من السور المكية الكبرى خلت من اسمه . ذكروهم بما كان عليه أبوم إبراهيم من كراهة الأوثان وتكسیرها ورفض عبادتها وضرب المثل فقال (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لأحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال

لئن لم يهدني ربي لا كونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذاربي ، هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما أشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ما أنا من المشركين) ضرب لهم الأمثال بالأمم الخالية من عرب وغيرهم كل ذلك للتأثير في هذه الأنفس التي أشربت حب هذه المعبودات الباطلة وجز ذلك - بالضرورة - إلى تحريم كل ما ذبح على النصب أو جعل فيه شيء لآلهتهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى وغيرها وهذا من باب المقاومة كما حرمت الشريعة ما لم يذكر عليه اسم الله ليكون الإنسان منهم على ذكر دأتم من رفض الوثن والصنم وهذه حركة مضادة لما كانوا يفعلون فإنهم كانوا يذبحون باسم أصنامهم فأمرُوا أن يذبحوا باسم الله حتى ينسوا تماماً ما كانوا عليه ، ومن هنا جاءت الشريعة طالبة بعد ذلك أن جميع الأفعال التي يشرع فيها الإنسان لا بد أن تفعل باسم الله لا باسم غيره من المعبودات ومن هنا أيضاً أقفلت الشريعة عليهم باب التصوير والتماثيل لأن الأمر كما علمتم - يحتاج إلى مقاومة شديدة فإن النفس المتشعبة بالشئ الذي نهيت عنه لا يؤمن أن تعود إليه متى ظهر أمامها فإنها إذ ذاك تحن إليه . للحركة النفسية مداخل غريبة ولذلك قال علماء الأخلاق إذا أهمك أن تنزع نفس عن شيء تعودته وأنست به فأخفه عنها فإن رؤيتها له مرة واحدة تدك معالم الأوامر والنواهي وتحدث مقاومة شديدة لما قدرت عليه النفس من اتباع الأوامر : مثلوا أمام نظركم حالة شارب الدخان إذا أمره الطبيب بتركه واقتنع بأن التدخين غير مفيد فتركه ثم رأى سيجارة يد غيره يدخن بها لاشك أنه يحسّ بحركة في نفسه تذكره بذلك الآلاف القديم فيحتاج عند ذلك إلى عزيمة قوية يغالب بها ذلك الحنين ، ولا ينسى الأمر بتاتا إلا بعد مرور زمن طويل والأمثلة على ذلك كثيرة لحفاية لهذا الضعف الإنساني كرهت التصاوير والتماثيل من باب الاحتياط وسد الذرائع : ولذلك لما رأى عمر ابن الخطاب بعض المسلمين يتبرك بالشجرة التي بايع عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في الحديبية أمر للحال بقطعها وإعفاء أثرها

(٢) لإثبات يوم آخر يجازى فيه كل امرئ بعمله إن خيراً فخيراً وإن شراً فشرّاً ، وقد نصبت الآيات المكية على ذلك كثيراً محذرة من شره مرغبة في خيره وكرره تذكراً عظيماً يقرب مما كان في أمر التوحيد والأوثان ونصت على أن العدل سيجرى

مجره بعد أن توزن أعمال الإنسان فن غلب خيره شره فاز ومن غلبت شروره خاب
إذ لا يمكن أن يعقل في الوجود الإنساني من هو خير محض أو من هو شر محض
والموازنة بين أعمال الخير وأعمال الشر بحسب ما كانت تديجتها في الناس
وقد وصف القرآن دار الجزاء وما فيها من خير وشر أوصافاً ترغب وتخيف
وكرر ذلك في مواطن كثيرة منه

لم يجعل اليأس يتسرب إلى النفس الإنسانية بما اجترمته من الخطايا ولا الآمال
الكاذبة تستولى عليها فتطلب النجاة من غير وجهها بل جعل عمل الخير والشر عنواناً
على ما يناله صاحبه مهما دقّ (ولا يظلم ربك أحداً) (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً
يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) أخاف أصحاب الشر وفتح أمامهم باب الرجوع
إلى فعل الخير وأخبرهم أن الحسنه إذا تلت السيئة محنها . والذي يفهم من القرآن أن
الحسنات المؤثرة في محو السيئات إنما هي العملية

(٣) بين لهم الخصال التي تقرب إلى الله والتي تبعد منه ومعظمها يرجع إلى الأخلاق
والمملكات في معاملة الناس بعضهم مع بعض : يقول في سورة الشورى (وجزاء سيئة
سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فأجره على الله) ثم يقول (ولمن اتصر بعد ظلمه فأولئك
ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير
الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور)

ويقول في سورة الأعراف (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین)
ويقول في الشورى (وأمرت لأعدل بينكم) ويقول فيها (قل لا أسألكم عليه أجراً
إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور) .
وقال في سورة فصلت (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن
فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) جمع لهم في سورة الإسراء وصايا جميلة
بأبدع أسلوب وأشده تأثيراً فيرونه يتلى كل وصية بفائدتها اقرؤا - إن شئتم - من
قول الكتاب (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) إلى قوله (ذلك مما أوحى إليك
ربك من الحكمة) وصف عباد الرحمن في سورة الفرقان بصفات يطلب منهم أن
لا يتعدوها لتكون لهم صفة عباد الرحمن وصدورها (وعباد الرحمن الذين يمشون على
الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) ، إلى آخر السورة ، واستقصاه

ذلك يستدعى وقتاً طويلاً وإنما نحن نشير إلى ذلك ونطلب منكم مراجعته . ولا تجعلوا بينكم وبينه سداً من الأوهام حتى تعلموا بهم كأن يوصيهم وكيف كانوا يحيونه ؟؟ فإنه لا شيء أدل على سيرته وآدابه وتعاليمه من الكتاب الذي أنزل الله عليه (٤) عبادات عملية تربطهم بالله وتوجههم نحو الخير ، والبدني منها هو الصلاة فقد ورد الأمر بأدائها في كثير من الآيات المكية وقد عدله الوحي كيف يؤديها - كما ورد في الأخبار الصحيحة - والصلاة وحدها هي التي فصلت تمام التفصيل بمكة . وتفصيلاً إنما كان عملياً لأن آيات الكتاب لم تبين بصراحة أجزاءها ولا أوقانها وإنما أخذ منها بطريق الإشارة وقد نقلت نقلاً عملياً . وقد وصف القرآن تلك الصلاة التي أمر بها بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر واعتبر في سورة الماعون بمن يستحقون الويل (الذين هم يراؤون) وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذي فرضت فيه الصلاة : فقال بعضهم إنها فرضت ليلة الإسراء حينما عرج برسول الله إلى الملاء الأعلى وقال آخرون بل قبل ذلك

ونحن نقول كلمة عن الإسراء والمعراج ثم تتبعها بما يظهر لنا : الإسراء مصدر أسرى يقال أسرى به أى جعله يسرى : والسرى هو السير ليلاً ، ويراد به - في لسان المحدثين - تلك السياحة الليلية التي وصل فيها رسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إريه الله من آياته . والمعراج مأخوذ من العروج وهو الصعود ، والمعراج أداته يعنى السبل المثلثة ويراد به صعود رسول الله إلى الملاء الأعلى الإسراء ورد ذكره في الكتاب في أول سورة سميت باسمه قال تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) وقد اتفق المؤرخون على وقوع الحادثة ورسول الله بمكة لأن السورة مكية ولكنهم لم يعينوا وقتها بالضبط وإن رسول الله أخبر بها قومه في صبح تلك الليلة فكانت مشاراً لهجهم وسخرتهم وصدق بها المؤمنون وفي مقدمتهم أبو بكر الذى سمي في ذلك اليوم بالصديق - وكذب بها المشركون وبعض الضعفاء المفتونين من المسلمين حتى أن بعضاً منهم ارتد

واختلف المتكلمون في أمر الإسراء : فروى عن معاوية بن أبى سفيان أن الإسراء كان رؤيا صادقة رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم : وروى عن عائشة أن الإسراء

إنما كان بروحه لأن جسمنه لم يزل من مكانه ونرى أن نتيجة القولين واحدة ، لأن الإسراء بالروح ليس معناه أن الجسم قدمات إذ لم يقل بهذا القول أحد لاعائشة ولا غيرها ، وإنما تلك الروح الطاهرة أطلها الله في حالة النوم على شيء من الآيات التي هي في جهات بعيدة عن موطنها ، والرؤيا - كما قدمنا - نوع من الوحي للأنبياء ويستدل أصحاب هذا الرأي بقوله تعالى في السورة نفسها (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) وقد قال الحسن البصري راوى حديث الإسراء فأنزل في ذلك قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا) الخ

وجمهور المسلمين على أن الإسراء كان بجسمنه ويستدلون على رأيهم بأن الإسراء لو كان رؤية ما كان هناك داع لاستغراب المشركين وضعفاء المسلمين لأنه ما الذي يستبعد من اطلاع إنسان على أقصى ما في الأرض في رؤيا يراها

بعض المؤرخين يميلون إلى رأى عائشة ومعاوية ، لأنهم يحيلون أن يقع للأنبياء أمر خارق للعادة ، بل لأنهم لا يتمسكون من هذه الخوارق إلا بما شاهده رواه عيانا وصرحوا بمشاهدته في رواياتهم ووصل إليهم من طرق مأمومة الخطأ أو صرح به الكتاب : قالوا إن إقدام عائشة ومعاوية على القول بأن الإسراء كان رؤيا صادقة يدل على أن هذا القول لم يكن بدعا في زمنهما لأنه لم ينقل إلينا التاريخ أن أحدا قام في وجههما رادا عليهما رأيهما ، بل بالعكس رأينا ابن إسحاق يقول فلم ينكر ذلك من قولها القول الحسن فأنزل الله في ذلك (وما جعلنا الرؤيا) الخ وعائشة زوج الرسول - وإن لم تكن كذلك حين وقوع الحادثة - أدري الناس بما كان من حوادثه التي أكرمه الله بها فمن البعيد أن تكون أقدمت على هذا القول من غير توقيف منه ، والمعروف عنها أنها كانت تسأله عن مشكلات القرآن فيفسرها لها . ومعاوية كان خليفة للمسلمين فيبعد أن يظهر برأى يتفق على خلافه جمهور أمته خصوصا في مثل هذه الحادثة الكبرى ثم لا يقوم في وجهه الصعابة معارضين على حين أنهم كانوا يرتدون عليه القول رداً شديداً في أيسر الأمور فكيف بهذا الأمر الجلل . لما رجع هؤلاء المؤرخون إلى الكتاب في أمر هذه الحادثة وجدوه يقول « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لئريه من آياتنا ، والمتفق عليه أن المراد بعبده محمد صلى الله عليه وسلم وإطلاع الله نبيه في نومه

على ما يريد إطلاعه عليه لا يختلف شيئاً عن إطلاعه إياه في يقظته لأن رؤيا الأنبياء حق - تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلا يمنع هؤلاء من رأيهم إضافة الإسراء إلى عبده والروح إذا جلى لها المسجد الأقصى تتمكن من رؤيته ومعرفة تفاصيله ومشاهدة آيات الله وعجائبه أكثر من الرؤية العينية ليلاً

أما استغراب المشركين فأمره ظاهر لأنهم قوم معاندون يريدون إظهار رسول الله أمام الناس بما ينفرهم فيكفي - لأن يجدوا فرصة لذلك - أن يسمعوا منه عليه السلام أسرى في الليلة إلى بيت المقدس ، وعند ذلك يكبرون في أنفس الناس قوله ، وقد كان يقول بعضهم لبعض - كما جاء في الكتاب - (لانسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)

قال ابن إسحق بعد أن ذكر القولين والله أعلم أي ذلك كان قد جاء وعين فيه ما عين من أمر الله على أي حاله - نائماً أو يقظان - كل ذلك حق وصدق اه
أما المعراج فلم يرد ذكره في القرآن صريحاً ولكن تضافرت به الأخبار ورواه جمع من الصحابة وأخرجته كتب الصحاح ولكن هذه الروايات لم تنفق في شرح حوادثه لذلك قال بعض المحدثين إنه حصل جملة ميزات منها المرة التي كانت ليلة الإسراء وأصحاب الإسراء الروحي يقولون بالمعراج الروحي والجمهور يقولون إنه يجسمه وأكثر من فصل أحاديث الإسراء والمعراج أحمد بن محمد القسطلاني في كتابه المسمى بالمواهب اللدنية فقد كتب فيها نحواً من ٤٥ صفحة فليراجعها من أحب زيادة التوسع ، ودافع محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن رأي من يقول بالإسراء الجسمي لما كان كثير من المحدثين يرون أن الصلاة فصلت ليلة المعراج لزم أن يكون في أوائل البعثة وقد أغرب بعض الرواة لجعله قبل أن يوحى إليه ولكنهم لم يعولوا على هذه الرواية وقد جعله ابن إسحق بعد فشق الإسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها ولكنه سرد تاريخه قبل أن يذكر وفاة عمه أبي طالب - ويلزم من ذلك أن الرسول وأصحابه لم يكونوا في أول الأمر يصلون الصلوات الخمس ، وإنما كانوا يصلون صلوات أخرى - وبذلك قال جمع من المحدثين

وخلاصة القول أن الصلاة فرضت على المسلمين من أول الدعوة وبعد ذلك بزمن لم يحدد تماماً فرضت الصلوات الخمس فعليه الوحي أعداد ركعاتها وأوقاتها والشكل

الذى تفعل به : مما فرض بمكة الزكاة فإننا قلنا نجد من الأوامر المكية ذكر الصلاة إلا وبجانبه إيتاء الزكاة وطلبت زكاة ما يخرج من الأرض في سورة الأنعام (وأتوا حقه يوم حصاده) إلا أن هذه الحقوق الواجبة لم تفصل بمكة فقد كان ذلك موكولاً لما في النفوس من الجود وبحسب حاجة الناس

ومما يلفت النظر إلى الآيات المكية أن قارئها يحسّ فيها بأمر مدهش ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بمكة مضطهداً في حاجة إلى من يدفع عنه أذى أعدائه الذين وقفوا في سبيل دعوته في ذلك الحين كانت الآيات المكية تبلغ له من الله على غاية من الشدة مما يدل على أن الرسول كان على يقين من الله تام بأن العاقبة له وهو مرة يهان من قومه الذين تمالوا عليه ومرة يرد أقبح رد من العرب الذين يردون الموسم ، وما نحن أولاء نمثل أمامكم تلك الشدة بما تلووه عليكم من الآيات (١) (ولتعلنن نبأه بعد حين) (٢) (إنا لنصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) (٣) (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) (٤) (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براعة في الزبر؟ أم يقولون نحن جميع منتصر؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر) (٥) (ولوترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب) (٦) (قل رب إمامتيني ما يوعدون رب فلا تجعاني في القوم الظالمين) (٧) فقد كذبوا (فسياًتهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن) (٨) (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها) (٩) (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) (١٠) (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) (١١) (فأعرض عنهم واتظر لئنهم منتظرون) (١٢) (فارتقب لئنهم مرتقبون) إلى غير ذلك من الآيات الشديدة الوقع والتي ظهر نبؤها بعد حين

كان يفعل الأمر ويرغب به استمالة عظماهم لما كان عليه من الرأفة بهم وإرادة الخير لهم ويكون من نتائجه أن صغيراً من المسلمين أعرض عنه فيجيئه الوحي مشتداً ومنبهاً كما حصل في حادثة عبدالله بن أم مكتوم الأعمى فقد حدث أن رسول الله قابل جمعاً

(١) سورة ص (٢) سورة غافر (٣) سورة فصلت (٤) القمر (٥) سبأ

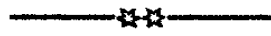
(٦) المؤمنون (٧) الشعراء (٨) النمل (٩) الروم (١٠) السجدة

(١١) السجدة (١٢) الدخان

من هؤلاء العظماء فتلا عليهم القرآن ورجا أن تلين قلوبهم لما يدعوهم إليه ؛ فجاءه ابن أم مكتوم وقال يا رسول الله علني بما عليك الله فعبس رسول الله وأعرض عنه طمعا في أولئك العظماء ، فجاءه الوحي بقول الله (عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعة الذكري أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك أن لا يزكى ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى) وهذه شدة أدبه الله بها كما قال : أدبني ربي فأحسن تأديبي

(٥) مما شرع في آخر أيامه بمكة الإذن له بالقتال

ولما كان هذا النوع من المشروعات يستدعى عناية كبرى في بحثه أردنا أن نقول كلمة فيه غير مقتصرين على ما شرع بمكة لأن الموضوع يلزم أن يأخذ بعضه ببعض حتى لا يتجزأ فتضيع الفائدة ؛ وبحسنا قاصر على الجهة التاريخية ، ولذلك تقتصر على ما جاء من أوامر القرآن وسنتبعه بما كان من التنفيذ الفعلي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونترك للفقهاء ما امتازوا به من دقة الاستباط لأن ذلك ليس من عملنا



المحاضرة الحادية عشر

أسباب شرعية القتال - الموائيق والعهود - أسرى الحرب -

الاسترقاق - لم شرع القتال - ؟

بين الكتاب في مواضع منه السبب الذي من أجله أذن للمؤمنين بالقتال وذلك يرجع إلى أمرين (الأول) الدفاع عن النفس عند التعدي ، الثاني : الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد في سبيلها بفتنة من آمن أي باختباره بأنواع التعذيب حتى يرجع عما اختاره لنفسه دينا أو بصدد من أراد الدخول في الإسلام عنه أو يمنع الداعي من تبليغ دعوته وهذه هي المواضع التي جاء فيها ذلك الموضوع من القرآن

الموضع الأول - جاء في سورة الحج ، وهو أول ما أنزل في أمر القتال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع

وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكنتهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور)

بينت هذه الآية أن القتال أذن فيه للمسلمين ثم أعقبته ببيان السبب وهو أنهم ظللوا وأخرجوا من ديارهم بغير حق ألا قولهم ربنا الله يعني أنهم لم يظلموا من أهل مكة إلا بسبب اعتقادهم وهذا بمثابة التفسير لآية الشورى (وإن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق) ثم بينت أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت أماكن العبادة على اختلاف أشكالها ونسبها فلا يكون لله في الأرض ذكر . ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال بأوصاف هي في الحقيقة تنبيه لهم إلى ما يجب أن يفعلوه إذا هم انتصروا على من ظللهم وذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر الموضع الثاني - قوله في سورة البقرة المدنية (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وقاتلوا من حيث ثقتهم وهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم - والفتنة أشد من القتل - ولا تقاتلوا عند المسجد الحرام حتى يقاتلوك فيه فإن قاتلوكم قاتلوا كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ، وقاتلوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله - فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين - الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات خصص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واملوا أن الله مع المتقين)

بينت هذه الآية سبب القتال حيث وصفت من أمر المسلمون بقتالهم بالذين يقاتلونكم وأخرجوكم من دياركم وفتنوكم في دينكم بما فعلوا من الأذى والظلم وجعلت لهذا القتال غاية وهي أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله بأن يكون الإنسان حراً في دينه لا يدين به إلا الله لا خوفاً ولا طمعاً وقد بين الكتاب أن الفتنة أشد من القتل لأنها اعتداء على العقيدة والوجدان وذلك شر ما يكون من نبي الإنسان : نهى الآيات عن الاعتداء وأعلنت أن الله ينقض المعتدين ، وهم الذين يبدأون غيرهم بالشر ، وبينت أن الجزاء عند الاعتداء - لا ينبغي أن يتجاوز به مافعله البادئ بالعدوان (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله)

الموضع الثالث - قوله في سورة النساء المدنية « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً » بينت هذه الآية سيدين للحدث على القتال وهما (أولاً) سبيل الله : وقد بينته آية البقرة وهو الغاية التي يسعى إليها الدين أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله (ثانياً) سبيل المستضعفين الذين كانوا مسلمين بمكة وحبل بينهم وبين الهجرة فعذبهم قريش وقتلهم حتى أضربوا إلى الله طالبين منه الخلاص ، فهو لاه لا بد لهم من حماية ترفع عنهم أذى الظالمين وتزيلهم الحزية فيما يدينون وما يعتقدون

الموضع الرابع - قال من قوم مشركين لم يحبوا أن يقاتلوا قومهم ولا أن يقاتلوا المسلمين فاعتزلوا الذين جازباً : (فإن اعتزلوكم لم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سيلاً) على شرط أن يكون ميلهم إلى السلام حقيقياً لا ذبذبة هدم فإن كانوا كذلك فقد شرح حالهم بقوله (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلا ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يهتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم نخذوهم واقتلوهم حيث تفتحوهم وأوائكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً) بينت هذه الآيات أن لا سبيل للمؤمنين على من اعتزل الفتنة وترك القتال وألقى إليهم السلام

الموضع الخامس - قال في سورة الانفال (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير) وهذه تؤدي ما أدته آية البقرة

الموضع السادس - قال في السورة السابقة (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم)

بينت هذه الآية أنه مأمور بالجنوح إلى السلم متى جنح أعداؤه لها لأن الغرض هو تأمين الدعوة وأن لا تكون فتنة والسلام كفيلاً بهما ولو كان الجانحون إلى السلم يريدون به الخداع

الموضع السابع - قال في سورة التوبة المدنية (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر أنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون ، ألا تقاتلون

قوما نكثوا أيما هم وهمرا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ؟ أتخشونهم ؟
قاله أحق أن أن تخشوه إن كنتم مؤمنين)

بينت هذه الآية سبباً لا يخرج عما تقدم وهو نكث العهد والعود إلى الطمن في الدين بالفتنة وذكرت المخاطبين بأنهم بدأوا بالقتال أول مرة فهم المعتدون أولاً والنالكثون عهدهم آخراً وأنتم قد أبيع لكم مجازاة من اعتدى عليكم
كان اليهود قد مالوا قريشاً والمنافقين على المسلمين وأخافوا المسلمين في غزوة الأحزاب حتى زلزلوا زلزالاً شديداً بعد أن كانت بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد مكتوبة فنقضوها وأخلوا بما تقضى به تلك العهد فأمر المسلمين بقتالهم كما جاء في سورة التوبة (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

كان أمر القتال أولاً قاصراً على قريش ومن يمالؤهم من يهود المدينة فلما اتحد معهم قبائل الجزيرة من العرب قال الكتاب (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) فالعلة في هذا الأمر بينها الكتاب نصاً وهي اتحادهم على المسلمين ووقوفهم في سبيل الدعوة

هذا ماورد في الكتاب خاصاً بأمر القتال ، وكما يعلن أن القتال لم يشرع لإدفاعاً عن أنفسهم ، وتأميناً للدعوة من أن تقف الممتنة في طريقها وأعلن أنه لم يجيء متعبداً بنهيهم عن الاعتداء وأنه يجزح إلى سلم من سالمه

ومما يؤيد تلك الروح السلبية ويوضحها ما جاء في سورة الممتحنة (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)

العهود والمواثيق

عما اعتنى به الكتاب عناية شديدة أمر العهود والمواثيق وكرهه الإخلال بها وقد نص على ذلك نصوصاً مؤكدة فمنها عام ومنها خاص فمن العام : قول الكتاب في أول سورة المائدة « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعهد » وقوله في سورة الاسراء (وأوفوا

بالعهد إن العهد كان مشرولاً ﴿ وقوله في سورة النحل ﴾ (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تنكروا كالتى نقضت غرلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة) ﴿
وأما الخاصة

فها قوله تعالى في سورة براءة بعد أن أعلن البراءة من المشركين ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ وقال في السورة نفسها بعد ذلك ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾ وهذا يدل على أن البراءة إنما كانت من مشركين أدخلوا بعهودهم ، أو ظهرت عليهم دلائل الخيانة لأن أول السورة ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ ثم استثنى منهم هؤلاء الذين ذكروهم وهذا تنفيذ لما ورد في سورة الأنفال ﴿ وإما تخافون من قوم خيانة فأنذروهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ والخوف إنما يكون بعد ظهور ما يدل عليه من أعمال العدوان لأن من لم ينقص من عهده ولم يظاهر عدواً والمستقيم على عهده لا سبيل عليهم بالنص

ومها أنه لما حضهم في سورة النساء على وجوب إبعاد المنافقين الذين يشتغلون سرّاً ضدكم قال ﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ وهذا نص على وجوب احترام أرض ذرى الميثاق وأنها تحمي الواصل إليها

ومنها أنه جعل في سورة النساء قتل رجل خطأ من قوم لهم ميثاق موجباً لما يوجب قتل مسلم خطأ فقال ﴿ وإن كان - المقتول خطأ - من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ﴾ وهذا بيمينه هو الذى أوجبه في قتل مسلم خطأ (ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا) وجعل الدية الواجبة في قتل المؤمن من قوم أعداء أوفى من ذلك فقال ﴿ فإن كان من قوم عدولكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾

ومنها أنه قال عن مؤمنين بأرض العدو لم يهاجروا منها ﴿ وإن استصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ فجعل حق الميثاق فوق كل حق

لم يجعل للسلم أمدا بل ذكره مطلقا في قوله « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »
أسرى الحرب

بين الكتاب حكم الأسرى بصراحة بقوله في سورة القتال « حتى إذا أنزختموهم
فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، لجعل ماخير فيه
أولياء الامور المن وهو العفو والإرسال من غير شيء والفداء وهو أخذ العوض
ولم تر في الكتاب غيرهما

وأما المزم الآن أن أقول كلمة عما جاء في القرآن في أمر الرقيق

كان الرقيق موجوداً بأيدي العرب حين جاء القرآن فأقرهم على ما كان بأيديهم ،
فقد قال في سورة المؤمنین المكية « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو
ما ملكت أيمنهم فإنهم غير ملومين » وقال مثل ذلك في سورة المعارج المكية
أيضاً أى قبل أن يحصل من المسلمين أى حرب أو قتال وقال في سورة النساء المدنية
« فإن خفتهم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمنكم ، ثم رغبتهم شديداً في
تحرير الرقاب وإزالة الرق عنها بطرق ثلاث

الأولى - أنه جعله في سورة البلد المكية من آيات الواحبات على الإنسان إذا
أراد أن يشكر الله على نعمه فقال بممتنا على الإنسان « ألم نجعل له عينين ولساناً وشفقتين
وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقعة أو إطعام في يوم
ذى مسغة يتما ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر
وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة ، فجعل فك الرقبة في مقدمة الخصال التي بها
يقوم الإنسان بشكر نعم الله المتتالية

الثانية - أنه لما بين مصارف الزكاة جعل للرقاب سهما من ثمانية يعنى أن الإمام
الذى يأخذ الزكاة من المسلمين يجعل ثمنها في فك الرقاب

الثالثة - أنه جعل تحرير الرقاب في مقدمة كفارات كثيرة من جرائم تجترم فقال
في كفارة القتل الخطأ « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، وقال في كفارة
الظهار « والدين يظاهرون من نساءهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن
يتأسا ، وقال في كفارة اليمين « فكفارتها إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون
أهلكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، ذلك كله فضلا عن الترغيب الكثير من

صاحب الشريعة في تحرير الرقاب والوصايا المتكررة برحمة ما كان في أيديهم منها هذا ما أحببنا أن نورد على أسمائكم من المبادئ التي سار عليها الكتاب غير متعرضين للاستنباط الدقيق الذي امتاز به فقهاؤنا رحمهم الله لأن ذلك علماءهم أدري به. ما وركزاً غير مركزنا التاريخي الذي يقضى علينا أن نقف عند حد لا يسمح للدورخ بتجاوزه

حياة المدينة

لما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء أقام بها أربعة أيام من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول (٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢) أسس فيها مسجد قباء وفي ذلك اليوم سار إلى المدينة يحف به الأنصار وصلى الجمعة بمسجد في بطن وادي رانوماء في منتصف الطريق بين قباء والمدينة ثم سار على راحلته وكلمها من على قبيلة من قبائلهم ناداه رئيسها فلم لإينا يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة فكان يقول لهم خلوا سيولها فإنها مأهورة (لداقته) حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت محل باب مسجده فلم ينزل ثم وثبت وسارت غير بعيد، ثم عادت إلى مبركها الأول ببركت فيه ووصعت جرائها نزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ههنا المنزل إرشاء الله فأخذ رحله أبو أيوب خالد بن زيد فوضعه في بيته ثم سأل عن المرشد الذي بركت الدابة فيه؟ فقال له معاذ بن عفراء هو يا رسول الله لسهل وسهيل اني عمرو وهما يتيمان لي وسأرضيما منه (١) فاتخذ مسجداً فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجداً ونزل على أبي أيوب حتى بنى مسجده وهسا كيه فانتقل من بيت أبي أيوب إليها ثم تلاحق المهاجرين فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو مجوس أما المدينة فعم أهلها الإسلام إلا قليلا منهم

ومن أول الاعمال التي عملها عليه السلام أنه كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعادهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط لهم وقد جاء فيه «وأن

(١) روى من طريق آخر أنه قال يابني النجار ثامنوني بمناطكم فقالوا لا والله لانطاب ثمه إلا إلى الله . ويروى أنه أبي إلا بالثمن والذي اخترناه هو رواية ابن إسحق وهي توافق رواية مسلم وبعض روايات صحيح البخاري

من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وفيه
وأن اليهود يتفقون مع الوثنيين - ماداموا محاربين - وأن يهود بني عوف أمة مع
المؤمنين ، لليهود دينهم والمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم فإنه لا يوقع إلا
نفسه وأهل بيته : وهكذا قال عن غير يهود بني عوف وفيه وأن على اليهود نفقتهم
وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن الجار
كالنفس غير مضار ولا آثم وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها وأنه ما كان بين أهل
هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخاف فساده فإن مرتد إلى الله عز وجل وإلى محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الله على أتقى . في هذه الصحيفة وأبرته وأنه لا تجار قریش
ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صالح يصالحونه
ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويابسونه

ثم آخى بين المهاجرين والأنصار فكان يأخذ بيدي المهاجري والأنصاري ويتمول
تأخوا في الله أخوين

وبعد أن تم ذلك بدأت الأعمال العظيمة التي كان لها أكبر النتائج ولكيلا يكون
هناك تشريش في التاريخ قسما أعمال المدينة إلى ثلاثة أقسام نذكرها غير مختلطة :
الأعمال الحربية - التشريع - الأخلاق التي ساس بها أمته

المحاضرة الثانية عشر

ودان -- بواط -- العشيرة -- بدر الكبرى -- بني قينقاع

الأعمال الحربية

كانت قريش أمة معادية آذت المسلمين وأخرجتهم من ديارهم بعد أن فعلت بهم
الأفاعيل واستولى مشركو أمكة على مآثر مكة المسلمون فيها بعد أن بارحوا أوطنهم مرغمين
فكان ذلك داعيا إلى أن يصادر عليه السلام تجارتهم التي يذهبون بها إلى الشام والتي
يجلبونها منه فبعد أن أقام بالمدينة اثني عشر شهرا أخرج في صفر من السنة الثانية إلى ودان^(١)

(١) سمي المؤرخون ما خرج فيه النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة حارب فيها أم

وكان يريد قريشاً ونى ضمرة من كدانة فوادعته بنو ضمرة ، ثم رجع ولم يلق كيداً :
أقام بالمدينة بقية صفر وصدرأ من ربيع الأول . وفي مقامه هذا بالمدينة بعث عبدة
ابن الحارث في ستين راكباً من المهاجرين حتى وصل ماء بالحجاز بأسفل ثنية المسرة^(١)
فاقوا بها جمعا من قريش ، فلم يكن بين الفريقين قتال : ثم انصرف القوم عن القوم
وللسلدين حامية . وبعث في هذه المدة حمزة بن عبدالمطلب إلى سيف البحر من ناحية
العيص^(٢) في ثلاثين راكباً فاقى أبا جهل بن هشام في ذلك الساحل في ٣٠٠ راكب من
أهل مكة فجز بين الفريقين مجدى بن عمرو الجهنى وكان موادعا للفريقين فانصرف
بعض القوم عن بعض

بواط^(٣)

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول يريد قريشاً حتى بلغ بواط
من ناحية رضوى ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها إلى جمادى الأولى
العشيرة^(٤)

في جمادى الأولى خرج حتى نزل العشيرة من بطن يذع فأقام بها جمادى الأولى
وليلالى من جمادى الثانية ووادع فيها نبي مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ثم عاد إلى المدينة
ولم يلق كيداً : وفي مقامه بالعشيرة بعث سعد بن أبي وقاص في ثمانية رهط من المهاجرين
نخرج حتى بلغ الحرار^(٥) من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيداً

سماوا

أقام عليه السلام بالمدينة قليلا بعد قدومه من العشيرة فعلم أن كرز بن جابر
لم يحارب وما خرج فيه أحد قاداته سرية . وودان من ناحية الفرع بينها وبين الأبواء ثمانية
أميال قريبة من الجحفة التي هي على أربع مراحل من مكة وست من المدينة
(١) ثنية في شمال قديد من بادية مكة (٢) مكان على ساحل البحر بطريق قريش
التي كانوا يأخذون منها إلى الشام (٣) موضع قرب جبل رضوى : ورضوى على
مسيرة يوم من ينبع ، ومن المدينة على سبع مراحل وهناك طريق يختصره العرب
إلى الشام (٤) واد بالقرب من مكة قريبا من قديد (٥) واد قريب من ينبع

الفهرى أغار على سرح المدينة فخرج في طلبه حتى بلغ واديا يقال له سفوان (١) من ناحية بدر فلم يدركه فعاد إلى المدينة وأقام بها إلى رمضان وفي مقامه هذا أرسل عبدالله بن جعش - ومعه ثمانية رهط من المهاجرين - بأمر غير مفتوح - وأمره أن يفتحه بعد أن يسير يومين ولما فتحه وجد فيه (إذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم) فمضى وسلك الحجاز حتى إذا كان بنخلة مرت به غير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي حليف لقريش فأمر بها عبدالله هو ومن معه (ولم يكن هذا ما بعثوا له) وصموا على أخذها وكان ذلك آخر يوم من رجب فلم يحفلوا باليوم الحرام فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأثر اثنان وهرب رابعهم فأخذوا العير والأسيرين وقدموا بهم إلى المدينة فلما رآهم الرسول وعلم بما فعلوا استاء منهم ؛ وقال ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم ووقف العير والأسيرين فقط في أيدي القوم وعنفهم المسلمون بما صنعوا وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا الدم الحرام وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال ولما كثرت الكلام في ذلك جاءه الوحي بقول الله (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصدعن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) يعني إن كنتم قتلتهم في الشهر الحرام فقد فعلوا ما هو أشنع . صدوا عن سبيل الله وكفروا به وبالمسجد الحرام وأخرجوكم منه وأنتم أهله وفتنوا الناس في دينهم والفتنة أكبر من القتل ثم هم مقيمون على أشد من ذلك وأعظم غير تائبين ولا هاتبين . وفي هذا قطع لاعتراضاتهم لأن المتلبس بكثير من الشرور ليس له أن يكثر الكلام في زلة قد ارتكب هو أشنع منها . ولما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف قبض عليه السلام العير والأسيرين ثم ردهما بعد إلى قريش بعد أن دفعوا فديتهما

بدر الكبرى

خرجت عير من مكة يقدها أبو سفيان بن حرب ومعه ثلاثون أو أربعون رجلا

من قريش فذهبت إلى الشام وباعت وابتاعت وحينما عادت العير علم بها الرسول ، فندب إليها أصحابه وقال هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلتكموها فاتدب الناس نخبت بعضهم وثقل آخرون لانهم لم يكونوا يظنون أن الرسول يأتي حربا وكانت عدة من خرج معه ٣١٤ رجلا ٨٣ من المهاجرين و ٦١ من الاوس و ١٧٠ من الخزرج

كان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يسير محترساً أمامه العيون فأخبر - وهو يسير أن محمداً قد استنفر أصحابه للعير فحذر واستأجر رجلا يذهب إلى مكة يستنفر قريشاً إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض العير في أصحابه فخرج ذلك الرجل حتى أتى مكة وصرخ ببطن الوادي - يامعشر قريش : اللطيمة اللطيمة يامعشر قريش أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمداً في أصحابه لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث - فجهز الناس سراعا وكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلا فكانت عدتهم بين التسعمائة والالف ولم يزالوا في سيرهم حتى نزلوا بالعدوة القصوى من وادي بدر .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه خرج من المدينة يوم الاثنين لثمان خلون من رمضان (أو ٩ منه حسب تقويم محمد مختار باشا المصري ٥ مارس سنة ٦٢٤) حتى إذا كان قريبا من الصفراء بعث العيون إلى بدر لاستطلاع أخبار العير ، حتى إذا قارب بدرأ جاءتة الاخبار عن قريش بأنهم نفرؤا لحماية عيرهم فاستشار الناس بعد أن أخبرهم فتكلم أبو بكر وعمر فأحسنا ، وقال له المقداد بن عمرو ارض يا رسول الله لما أمرك الله فنحن معك ! والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد ^(١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له الرسول خيرا ثم قال أشيروا علي أيها الناس وإنما كان يريد الأنصار ، لان العدد فيهم ولم تكن بيعتهم إلا على أنهم يمنعونه مادام في ديارهم فكان يتخوف أنهم لا يرون نصرته إلا على من دمه في المدينة من عدوه ، وليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج ديارهم ؛ فقال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله : قال

(١) موضع أقصى أراضى هجر

أجل فقال له سعد قد آمنابك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا وموثيقنا على السمع والطاعة فاهض يا رسول الله لما أردت فتحن معك ! فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا العدو غداً إننا نصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله فسرّ عليه السلام بقول سعد ونشطه ذلك ؛ ثم قال سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ؛ والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم ثم ارتحل عليه السلام حتى إذا وصل قريبا من بدر بلغه أن أباسفيان قد نجا بالهير وإن قريشا وراء وادي بدر - وكان أبوسفيان قد ساحل بالهير فنجأ ، وأرسل إلى قريش يخبرهم ويطلب منهم العودة إلى مكة لنجاة العير فأبى ذلك أبو جهل وقال والله لا نرجع حتى زيد بدرأ (وكان بدر موسما من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام) فنقيم فيه ثلاثا فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتنزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبسيرنا ويجمعنا فلابسفلون يهابوننا أبداً بعدها فامضوا : ولما رأى الأحنس بن شريق الثقفي حليف بنى زهرة تشدد أبي جهل من غير داعية أشار على حلفائه من بنى زهرة أن يرجعوا ، فاتبعوا مشورته وعادوا فلم يشهد بدرأ في صفوف المشركين زهري ، وكذلك لم يشهد من بنى عدى أحد : مضت قريش حتى نزلت بعدوة الوادي الدنيا ، ونزل المسلمون على أول ماء من بدر فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله ؟ وقال له يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أم نزلا أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال بل هو الرأي والحرب والمكيدة ! : قال يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فنزله ثم نعور ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال له لقد أشرت بالرأى وفعل كما قال

ثم إن سعداً قال الرسول يا رسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ؟ ثم تلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحبنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فاحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يابى الله مانحن بأشدك حبا منهم ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك

يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك فأنتى عليه الرسول ودعا له بخير وأمر ببناء العريش فبنى له

نراى الجيشان : فلم يكن بدمن الحرب فى صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان سنة ٢ (١٣ مارس سنة ٦٢٤) ابتدأت الحرب بالمبارزة - حسب القواعد العربية - فخرج من صفوف المشركين ثلاثة : عتبة بن ربيعة بن عبدشمس وابنه الوليد وأخوه شيبة فطلبوا من يخرج إليهم فبرز لهم ثلاثة من الأنصار فقال لهم القرشيون لاجابة لايكم نطلب أكفأنا من بنى عمنا فخرج لهم حمزة بن عبدالمطلب وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعلى بن أبى طالب فكان عبيدة بإزاء عتبة وحمزة بإزاء شيبة وعلى بإزاء الوليد فأما حمزة وعلى فلم يمهلأصاحبيهما أن قتلاهما - وأما عبيدة وشيبة فاختلفا ضربتين كلاهما أثبت من صاحبه فحمل على وحمزة على عتبة فذقفا عليه واحتملا عبيدة وهو جريح إلى صفوف المسلمين : ثم بدأ الهجوم بين الصفوف ولم تطل الحرب فى ذلك النهار ، فإن الهزيمة حلت بصفوف قريش ، بعد أن قتل جمع من صناديدهم فيهم أبو جهل ابن هشام رأس هذه الدن كلها وأسرى من قريش نحو السبعين وهرب الباقيون : ولما انتهت الواقعة أمر عليه السلام بدفن القتلى من قريش ومن المسلمين ، وكانت هذه عادته فى حروبه . ثم أمر بجمع الغنائم لجمعت ثم أرسل بشيرين إلى أهل المدينة يشرانهم بالفتح أحدهما - وهو عبدالله بن رواحة إلى أهل العالية ، والآخر - زيد ابن حارثة - إلى أهل السافلة ثم عاد عليه السلام إلى المدينة وفى عودته قتل رجلين من الأسرى أحدهما النضر بن الحارث لأنه كان غالباً فى عداوة المسلمين بمكة يكثر أذاهم ويعلم القيان الشعر الذى يهجو به المسلمين ليغنين به ، والثانى عقبة بن أبى معيط وهو مثله فكان لقتلهما سبب خاص ولم يقتل من الأسرى غيرهما

ولما أقبل بالأسرى فزقهم بين أصحابه ، وقال استوصوا بهم خيراً قال أبو عزة ابن عمير : كنت فى رهد من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر فكانوا إذا قدم غداءهم أو عشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم بنا ماتقع فى يدرجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها ! قال فأستحى فأردتها على أحدهم فيردها على مايسها وكان أبو عزة هذا صاحب لواء المشركين بيدر ثم استقر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن استشار أصحابه على قبول الفداء

من قريش في الأسرى ، وكان بعض الصحابة - ومنهم عمر وسعد بن معاذ - يريدون قتلهم ، وكان رأى أبي بكر وأكثر الصحابة لا يريدون ذلك ، ويريدون قبول الفداء (وذلك كله قبل أن تنزل آية القتال) فرضى عليه السلام رأى أبي بكر ، ولما لم يكن ذلك عن أمر من الله خصوصاً أنه لم يسبق لنبى أن أكل شيئاً من الغنائم ، فإن موسى عليه السلام كان يحرقها ولا يبقى شيئاً منها لذلك كان هذا القرار سبباً لعتاب الله سبحانه بقوله (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، فكرا بما غمتم حللاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم) وقـ كان من رأى سعد حين القتال أن المسلمين لا يأسرون ثم أمره الله أن يتلطف بهؤلاء الأسرى فقال له (يا أيها النبى قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم)

علمت قريش بما كان فأرسلت في فداء أسراها فن حضر فداؤه أرسل ومنهم من من عليه بغير فداء منهم أبو عزة الجمحى الشاعر بعد أن تعهد أن لا يكون ضد المسلمين بشعره وكان فداء بعض الأسرى الذين يكتبون أن يعلم عشرة من صبيان المدينة الكتابة نزل في هذه الغزوة من القرآن سورة الانفال بأسرها وهى السورة الثامنة ، وقد بدأت بأمر الانفال وأنها صارت لله والرسول يقضى فيها الله بما شاء ، ثم قضى فيها بأن الخمس لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فالباقي - وهو أربعة أخماسها - للغنائم : وقد خص عليه السلام منهم ذى القربى بنى هاشم والمطلب ابنى عبد مناف ولم يعط منه بنى نوفل وعبد شمس ، ثم قص في السورة خروج المسلمين إلى هذه الحرب وأنه ثبتهم فيها وأيدهم بالملائكة بشرى لهم ولنطمئن به قلوبهم وأنه أوحى إلى الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا . وتسكلم فيها عن قريش وما فعلوه من الأذى والفتنة والصد عن سبيل الله وتسكلم : فيها عن السلم والجنوح إليها متى جنح لها أعداء المسلمين وعن أمر الأسرى إلى غير ذلك من الأحكام

وأمر هذه الغزوة بما يلفت النظر إلى حال المسلمين وما أودع الله فيهم من القوة والطمانية فإن عددهم كان ٣١٤ رجلاً ليس معهم سوى ثلاثة أفراس وسبعين بعيراً يعتقونها ، وقريش كانت بين اتسمائة والالف وعندهم من العدة ما ليس مع المسلمين

وهؤلاء عرب وأولئك عرب عنصروهم واحد وعند قريش من الغيرة على دينهم والحفيظة على شرفهم مالا يخفى مكانه . ومع كل هذا ظهر من رجحان المسلمين على أعدائهم ما يستغرب فإن الحرب لم تستمر أكثر من نصف نهار قتل فيها من قريش نحو السبعين وأسر نحو السبعين ، وانهمزمت بقيتهم لآتوى على شيء فلا بد لذلك من سبب آخر غير أمر العدد والعدد ، ذلك أن المسلمين كانوا يحاربون وهم واثقون بالظفر ، لما أخبرهم به عليه السلام من أن الله وعده لإحدى الطائفتين ، وقوله : والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم وزادهم الله ثباتاً حين الموقعة بما أيدهم به من الملائكة تثبت قلوبهم وتفيض عليهم الطمأنينة والثقة ، كانوا يرون أنفسهم في موقف يدافعون فيه عن أهز شيء في الوجود وهو رسول الله الذي بين أظهرهم فلا يهتم الواحد منهم أن تحين منيته لأنه واثق بما بعدها فهو يعد الشهادة لإحدى الحسينين وكل هذا للمحارب بمثابة امدادات يراها متواليه الورد

وقد قيل في هذه الغزوة كثير من الشعر قاله شعراء المدينة وشعراء مكة ومن أرق

ما قيل منه ما قاله قتيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث

يارا كبا إن الأيـل مظنة	من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتا بأن تحية	ما إن تزال بها النجائب تخفق
منى إليك وعبرة مسفوحة	جادت بواكفها وأخرى تخفق
هل يسمعنى النضر إن ناديتـه	أم كيف يسمع ميت لا ينطق؟
أحمد ولدتك خير نجبية	في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما	من الفقى وهو المغيط المحقق؟
أو كنت قابل فدية فلينفقن	بأعز ما ينفق لو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة	وأحقهم - إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بنى أيه تنوشه	لله أرحام هناك تشقق
صبراً يقاد إلى المنية متعبا	رسف المقيد وهو عان موثق

فيقال والله أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - لما بلغه هذا الشعر -

لو بلغنى هذا قبل قتله مننت عليه

وكان الفراغ من هذه الغزوة في عقب شهر رمضان

الكدر

لم يقم بالمدينة إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بنى سليم فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فأقام عليه ثلاث ليال ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها بقية شتوالم وذا القعدة ، وفي مقامه هذا فدى جل أسارى بدر

السويق

كان أبو سفيان حين رجع فل قريش من بدر نذراً لايمس رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً فخرج في مائتي راكب من قريش ليبر يمينه حتى - كان من المدينة - على نحو يريد ، ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير تحت الليل فأتى حبي بن أخطب فضرب عليه بابيه فأبى أن يقبله فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم سيد بنى النضير المعاهدين لرسول الله وللمسلمين ففتح له بابيه وأكرمه وأعلمه أبو سفيان بخبره ثم خرج في عقب ليلته ، حتى أتى أصحابه فبعث رجالاً منهم فأتوا ناحية يقال لها العريض فخرقوا نخاعها ووجدوا رجلين من الأنصار فقتلوهما ، ثم انصرفوا راجعين ونذروهم الناس فخرج عليه السلام في طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر ، ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو سفيان ، وسميت بغزوة السويق لكثرة ما طرح المشركون من أزوادهم التي أكثرها السويق حتى يتخففوا للنجاة وقال أبو سفيان هند منصرفه لما صنع به سلام بن مشكم

وإني تخيرت المدينة واحداً	لخلف فلم أندم ولم أتلوم
سقاني فرواني كيتاً مدامه	على عجل منى سلام بن مشكم
ولما أتولى الجيش قلت - ولم أكن	لا فرحه - أبشر بغزو معتم
تأمر فإن القوم سر وإنهم	صريح أوى لا شماطيظ جرم
وما كان إلا بعض ليلة راكب	أنى ساعياً من غير خلة معدم

ذى أمر

لما رجع عليه السلام من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذى الحجة أو قريباً منها ثم غزا نجداً يريد غطفان فأقام بنجد صفراً كله أو قريباً من ذلك ولم يلق كيداً ثم رجع إلى المدينة فلبث فيها شهر ربيع الأول كله أو لإقليلاً منه

الفرع

خرج عليه السلام في أواخر ربيع الأول يريد قريشا حتى بلغ بحران وهو معدن.

بالحجاز من ناحية الفرع فأقام بها شهرا - ربيع الآخر ثم رجع ولم يلق كيدا
أمر بني قينقاع

كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا عهودهم - كما قاله ابن إسحاق عن عاصم بن عمر
ابن قتادة - وظهر منهم بعد بدر ما كان خافيا من أعدائهم إذ أنهم قالوا له يا محمد
لا يغرنك أنك لفيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة والله لئن حاربناك
لتعلمن أننا نحن الناس وقد ابتدأ الشر بينهم وبين المسلمين ظاهرا بحادثة وقعت في سوق
بني قينقاع ، سبها تعدى رجل من اليهود على امرأة من العرب تعديا معيبا فصاحت
مستغيثة فأغاثها رجل من المسلمين فقام إلى اليهود فقتله ، وقامت اليهود على المسلم فقتلوه
وبذلك وقع الشر واستحكم العدا بين الفريقين فخرج إليهم رسول الله وحاصروهم في
ديارهم خمس عشرة ليلة في آخرها نزلوا على حكمه فأجلاهم عن المدينة فخرجوا منها
إلى أذرعات بالشام وأقاموا فيها

كان من نتيجة بدر أن قريشا حذرت طريقها المعتاد فسلكوا طريق العراق فخرج
أبو سفيان ومعه تجار واستأجروا رجلا من بكر بن وائل يدلمهم على الطريق فعلم بذلك
عليه السلام وأرسل إليهم زيد بن حارثة فلقبهم على الفردة - ماء من مياه نجد -
فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزه الرجال فقدم بالعين على رسول الله صلى الله عليه وسلم
أمر كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف يهوديا من طي ثم من بني نبهان وأمه من بني النضير ، فلما
انتصر المسلمون ببدر وأرسل الرسول زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران
أهل المدينة بانتصاره وقتل من قتل من قريش ، قال كعب والله لئن كان محمداً صاب
هؤلاء القوم لبطن الأرض خبير من ظهرها ولما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة
فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي فأنزلته امرأته وأكرمته وجعل يحرض على
رسول الله ويقول الأشعار ويبكى أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر فقال

طعنت رجا بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت شرارة الناس حول حياضهم لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب به من أبيض ماجد ذى بهجة تأوى إليه الضيع
طاق اليمين إذا الكواكب أخلفت حمل أثقال يسرد ويربع

ويقول أقوام أسر بسخطهم
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا
صار الذي أثر الحديث بطعنة
نبئت أن بني المغيرة كلهم
وابنا ربيعة عنده ومنبه
نبئت أن الحارث بن هشامهم
ايزور يثرب بالجموع وإنما
ثم رجع إلى المدينة فشعب بنسأه المسلمين حتى آذاهم فأرسل له عليه السلام نفرأ من
الأنصار فقتلوه جزاء خيائه العهد

المحاضرة الثالثة عشر

أحد

لما أصيب يوم بدر من قريش من أصيب ورجع فاهم إلى مكة ورجع أبو سفيان
بعيره مشى عبدالله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان ابن أمية في رجال من
قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوتهم يوم بدر فكلّموا أبا سفيان بن حرب
ومن كانت له تلك العير من قريش تجارة فقالوا يامعشر قريش إن محمداً قد وتركم
وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، فعلمنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا
فقلعوا واجتمعت قريش لحرب المسلمين بأحاديثها ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل
تهامة وكان أبو عزة الجمعي الذي من عليه الرسول ببدر طلب منه صفوان بن أمية
أن يخرج معهم فقال له إن محمداً قد منّ عليّ فلا أريد أن أظاهر عليه قال فأعنا بنفسك
فلك الله على أن رجعت أن أغنيك وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي يصبن
مأصابتن من عسر ويسر ، فخرج أبو عزة يسير في تهامة ويدعو كنانة ودعا جبير
ابن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له وحشى يقذف بحربة له قذف الحبشة قلنا يخطئ
بها فقال له اخرج مع الناس فإن قتلت حمزة عم محمد بمعنى طعيمة فأنت عتيق فخرجت
قريش بحدها وجدها وأحاديثها ومن تبعها من كنانة وأهل تهامة وخرجوا معهم

بالطعن التماس الحفيظة وأن لا يفروا فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل يبطن السبخة من
قناة على شفير الوادي مقابل المدينة

لما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنزولهم استشار أصحابه أخرج إليهم
أم يقيم في المدينة ؟ فقال له عبدالله بن أبي بن سلول - وكان رأساً في الانصار إلا أنه
كان يضم نفاقاً - نرى أن نقيم بالمدينة وندعهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر
مقام وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها وكان ذلك رأى رسول الله لكن كان رأى جمهورهم
أن يخرج إلى المدق فدخل عليه السلام إلى بيته فابس لامته وذلك يوم الجمعة لأربع
عشرة خات من شوال (١) حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم وقد ندم الناس
وقالوا استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لنا ذلك ، فلما خرج عليهم قالوا
استكرهناك يا رسول الله ولم يكن ذلك لنا فإن شئت فاقعد فقال عليه السلام ما ينبغي
لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل فخرج عليه السلام في ألف من الصحابة
حتى إذا كان بالشوط انخزل عنه عبدالله بن أبي بن سلول بثلاث الناس ، وقال أطاعهم
ودعنا ما ندرى علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس ؛ فرجع بمن اتبعه من قومه وهم
أهل نفاق وريب وهضى رسول الله حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي إلى
جبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال لا يقاتن أحد منكم حتى تأمره بالقتال ثم
تبي عليه السلام القتال وهو في ٧٠٠ رجل وأمر على الرماة عبدالله بن جبير وقال
له انضح الخبل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فائت . مكانك
لا تؤت من قبلك ، وكان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير . وتعبت قریش وهم
ثلاث آلاف رجل ومعهم مائتا فرس قد جنبوها ، وكان على ميمنة خيلهم خالد بن
الوايد ودلى ميسرتها ذكوة بن أبي جهل ، وقال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بني
عبد الدار يابني عبد الدار إنكم قد وائتم لوامنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم وإنما
يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا إما أن تكفونا لوامنا وإما أن تغلوا
بيننا وبينه فكف يكوه فهموا به ونواددوه ، وقالوا نحن نسلم إليك لوامنا ستعلم غداً

(١) حسب تقويم مخنار باشا المصرى كان أول شوال الاحد فالجمعة ١٣ منه

(١٩ مارس سنة ٦٢٥)

إذا التقينا كيف نصنع وذلك ما أراد أبو سفيان
التقى الناس ودارت رحا الحرب واشتهر بأعظم عمل فرسان معلون من المسلمين
منهم حمزة بن عبدالمطلب وأبو دجاجة سماك بن خرشة الساعدي وعلي بن أبي طالب
 وغيرهم فأبلى المسلمون بلاء حسناً فأنزل الله عليهم نصره وصدقهم وعده فحسوا عدوهم
 بالسيف حتى كشفوهم عن العسكر ، وكانت الهزيمة لاشكّ فيها - إلا أن الرماة لما
 رأوا المشركين انكشفوا مالوا إلى العسكر وخلوا ظهور المسلمين للعدو فالتفت خيالة
 المشركين بقيادة خالد بن الوليد حتى جاءتهم من خلفهم وبعضهم مشتغل بأخذ الغنيمة
 فاخذت صفوفهم وأخذت لواء المشركين عمرة بنت علقمة الحارثية زرفعته لقريش
 فلاثوا به وتراجعوا لما رأوا الخلل في صفوف المسلمين حتى دهشوا ، وعماراد في
 دهشهم وأضعف عزائمهم أن رجلاً قتل مصعب بن عمير وأذاع عند قتله أن محمداً
 قد قتل فكان هذا الخبر شديداً على أنفس كثير منهم فانكشفوا فأصاب فيهم العدو
 وكان يوم بلاء وتمحيص حتى خلس العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
 وحتى رمى بالحجارة ووقع لشقه فأصيبت رباعيته وشجّ وجهه وكلمت شفته
 ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ووقع في حفرة من الحفر التي حفرها
 أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون فأخذ عن بن أبي طالب بيده ورفع طلحة
 ابن عبيد الله حتى استوى قائماً ولما غشيه القوم قام دونه خمسة نفر من الأنصار
 يردون عنه العدو ، ثم فاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه وقانلت في ذلك اليوم
 أم نسيبة بنت كعب وهي بمبايع بيعة العقبة وكانت في أول النهار تسقى الماء فلما
 رأت هزيمة المسلمين انحازت إلى رسول الله وباشرت القتال وصارت تذب عنه
 بالسيف وترمي عن القوس وجرحت في ذلك اليوم جرحاً شديداً ، وقدامتاز جماعة
 من الأنصار والمهاجرين بوقوفهم دون رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبو دجاجة
 وكان البيل يقع في ظهره وهو منحني على رسول الله حتى كثر فيه النبل ومنهم سعد
 ابن أبي وقاص وكان رامياً ومنهم عبد الرحمن بن عوف
 كان بعض المسلمين ترك الموقعة لظنه قتل الرسول حتى عرفه كعب بن مالك أحد
 الأنصار فنادى بأعلى صوته يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله فأشار عليه
 السلام أن انصت ولما علم بذلك بعض من انهزم عادوا إليه ونهض معهم نحو الشعب

معه كبار أصحابه وذوو الأثر الصالح في هذه الموقعة فلما أسند ظهره إلى الشعب أقبل
أبي بن خلف وهو يقول أين محمد لا نجوت إن نجا فتناول عليه السلام الحربة من
الحرث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدادأمنها عن فرسه مراراً وخذش
في عنقه فاحتقن الدم وكان ذلك سبباً لموته وهو عائد إلى مكة وهو الرجل الوحيد
الذي قتل بيده عليه السلام

ولما انتهى إلى قم الشعب خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ درقته ماء من المهراس
جاء به إلى الرسول ليشرّب منه فوجد له ريحاً فعاقه فلم يشرب منه فغسل عن وجهه
الدم وصب على رأسه . وبينما هو بالشعب معه أولئك النفر من أصحابه يمنعونهم
لذعلت عالية من قريش الجبل فذهب إليهم من المسلمين من أنزلهم عنه

يظهر أن قريشاً رأّت بما فعلت أنها قد شفت أنفسها مما تجرد من عار بدر فكتفت
به وعولت على الانصراف فصعد أبو سفيان ربوة ونادى بأعلى صوته - بحيث يسمعه
من في الشعب - وقال أنعمت فعال : إن الحرب سجال يوم بيوم بدر ، أعل هبل ،
فقال عليه السلام قم يا عمر فأجبه فقل الله أعلى وأجل لاسواء : قتلانا في الجنة وقتلاكم
في النار ، فلما سمع أبو سفيان صوت عمر قال له هلم إليّ يا عمر ، فقال له الرسول أنته
فانظر ما شأنه فجاءه فقال له أبو سفيان أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً ؟ قال عمر اللهم
بلا وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال أنت أصدق عندي من ابن قتيبة وأبرّ ثم نادى
أبو سفيان إنه كان في قتلاكم مثل والله مارضيت وما سخطت وما أمرت وما نهيت ، ثم
نادى إن موعدكم بدر للعام المقبل فأمر عليه السلام من يقول له نعم هو بيننا وبينك موعد
وكان الذي يهيم الرسول صلى الله عليه وسلم في موقعه أن يعلم ذات نفس قريش ،
أيريدون المدينة أم ينصرفون إلى مكة فأرسل علي بن أبي طالب فقال اخرج في أثر
القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ وما يريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل
فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذي
نفسى بيده لئن أرادوها لاسيرن إليهم فيها ثم لانا جزئهم نخرج عليّ في أثرهم فرآهم
جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة

فرغ المسلمون إلى قتلاهم فدفنوها ، وكان منهم حمزة بن عبد المطلب قتله وحشى
ومثلت به هند بنت عتبة زوج أبي سفيان

ثم انصرف عليه السلام راجعاً إلى المدينة فاقبته في الطريق حنة بنت جحش فنعى إليها أخاءا عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت فقال عليه السلام إن زوج المرأة منها ليمكن لها رأى من تثبتها على أخيها وخالها وصياحها على زوجها . ومر بامرأة من بنى دينار من الانصار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها فلما نعوا لها قالت فما فعل رسول الله ؟ قالوا خيراً يأم فلان هو بحمد الله كما نحين قالت أرونيه حتى أنظر إليه ؟ فأشير لها إليه حتى إذا رآته قالت كل مصيبة بعدك جلل - تريد صغيرة

في غد ذلك اليوم وهو يوم أحد ١٦ شوال أو ١٥ منه أذن مؤذن رسول الله أنه يطاب العدو ، وأذن مؤذنه أن لا يخرج معنا إلا من حضر يومنا بالأمس وإنما فعل ذلك ليرهب قريشاً وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم خرجوا بهم عليه من التعب والجراح حتى بلغوا حراء الأسد - وهي من المدينة على ثمانية أميال فأقام بها الاثني والثلاثاء والاربعاء وقد مر به معبد بن أبي معبد الخزاعي وكانت خزاعة مسلمهم ومشرکہم عيبة نصح للمسلمين بتهامة صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئاً كان بها ومعبد يومئذ مشرك ؛ فقال يا محمد : والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم ثم تركه بحمراء الأسد وسار حتى أتى أبا سفيان وأصحابه بالروحاء ؛ وقد جمعوا الرجعة فإنهم قال بعضهم لبعض أصبنا أحداً أصحابه وأشرفهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصاهم انسكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم لما رأى أبا سفيان معبداً قال له ما وراءك يا معبد ؟ قال محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحزقون عليكم تحرقاً قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وتدموا على ماضيهم من الخنق عليكم - شيء لم أر مثله قط قال ويحك ما تقول قال والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل فتني ذلك أبا سفيان ومن معه والذي اعترض به القرشيون على أنفسهم يرد بخاطر كل إنسان حياً يربلك الموقعة فقد كان لهم النصر في نهاية اليوم بأحد وقتلوا كثيراً من المسلمين ؛ وانهمز عنهم كثير ثم علموا أن الرسول بالشعب هو وجمع قليل من الحماة يدافعون عنه ومع ذلك لم يخطر ببالهم أن يتعموا هذا الانتصار بالوقوف عليهم ؛ ثم لما ظهر لهم النصر وانصرفوا

عن أحد لم يرجوا على المدينة ليقال إن النصر قد تم لهم لم يفعلوا هذا ولا ذاك حتى إذا كانوا على نحو يومين من المدينة خطر لهم خاطر الرجوع والظاهر أن القوم كان عندهم شيء من الحذر لأنهم كانوا يعلمون أن كثيراً من الانصار تخلف عنه بالمدينة خافوا أن يعلم المتخلفون أن إخوانهم أصيبوا فيسرعوا إلى نجاتهم فيكون ماتسكروه قريش فاكتفوا بما أصابوا من الدماء التي رأوها سائلة في وادي أحد وكانت القتلى تقرب من قتلاهم في يوم بدر فاشتفت أنفسهم ، وهذا كل ما كانوا يريدون وما يدل على ذلك أن أباسقيان كان يريد أن يعرج على المدينة عقب انصرافه من أحد فقال له صفوان بن أمية بن خلف لا تفعلوا فإن القوم قد حاربوا وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان فارجعوا فارجعوا وعند انصراف الرسول من حراء الأسد ظفر بأبي عزة الجمحي الذي من عليه بعد بدر ، فقال له أفاني يا محمد فقال عليه السلام والله لا أمسح عارضيك بمكة بعدما تقول خدعت محمداً مرتين : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ثم أمر بضرب عنقه والذين استشهدوا بأحد من المسلمين ٧٠ رجلاً أربعة من المهاجرين وباقيتهم من الانصار والذين قتلوا من المشركين ٢٢ رجلاً

أنزل الله في هذا اليوم سـنين آية من القرآن : في سورة آل عمران وهي السورة الثالثة من أول قوله تعالى « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم » إلى قوله فآمنوا بالله ورسوله وإن تؤمنوا وتتنقوا فللكم أجر عظيم وقد جمعت هذه الآيات أموراً (١) أجل تعزية لهم على ما أصابهم يوم أحد (٢) أن صفة الصبر وعلو النفس لا يتبين أثرهما إلا عند النكبات (٣) توبيخ لهم - بالطف إشارة - على ما كان من ضعفهم حينما أشيع أن محمداً قتل (٤) بيان الأسباب الحقيقية لما كان يوم أحد (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ماتحبون) وكل هذه متى حصل أمر منها في جيش فقد النظام والروح التي بها يستحق الظفر وهي الفشل والتنازع والعصيان (٥) ما كان منهم حين الانصراف عن الموقعة وكيف كان يدعوهم إلى الثبات والصبر (٦) التنديد بجماعة المنافقين الذين أكثروا من غمز المسلمين والشتمات بهم (٧) إعلان العفو عن المنزمنين (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما

استزلم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلیم)
(٨) الثناء على شهداء الواقعة والإخبار أنهم (أحياء عند ربهم يرزقون فرحين
بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف
عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين)
وأخيراً أشار إلى ما كان من خروجهم ثانی يوم أحد بعد أن أصابهم القرع ووعدهم
الذين أحسنوا منهم واتقوا أجراً عظيماً
وقد قيل في هذه الواقعة كثير من الشعر العربي قالت قريش والمسلمون : نقله
ابن هشام في سيرته

يوم الرجيع

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد رهط من عضل والقارة وهما
بطنان من خزيمة بن مدركة فقالوا يا رسول الله إن فينا إسلاماً فلو أرسلت معنا نفرأ
من أصحابك يفقهوننا في ديننا ويقرونا القرآن ويعلموننا الإسلام فبعث معهم ستة
من أصحابه أميرهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي فخرجوا معهم حتى إذا كانوا بالرجيع
غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلاً فلم يرع القوم في رحالم إلا الرجال بأيديهم
السيوف قد غشوم فأخذ المسلمون أسياهم ليقاتلهم فقاتلهم هذيل إنا لا نريد قتلكم
ولسكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نغدر بكم
فلم يقبل هذا القول ثلاثة منهم فقاتلوا حتى قتلوا وأجاب إلى العهد الثلاثة الآخرون
فقتل أحدهم بالطريق والآخران ببياعهم فقتل أحدهم وقال أبو سفيان لأحدهم وهو
زيد بن الدثنة - حين قدم ليضرب عنقه - أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا
الآن في مكانك يضرب عنقه وأنت في أهلك قال والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه
الذي هو فيه تصيبه شركة تؤذيه وأنا جالس في أهلي فيقول أبو سفيان ما رأيت من
الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً

حديث بئر معونة

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفر من السنة الرابعة أبو براء عامر
ابن مالك الملقب بملاعب الأسنة العامري فعرض الرسول عليه الإسلام فلم يسلم

ولم يبعد ، وقال يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدهوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبيوا لك ، فقال عليه السلام إنى أخشى عليهم أهل نجد : فقال أبو براء أنا لهم جار فابعثهم فليدهوا الناس إلى أمرك فبعث عليه السلام أربعين رجلا عليهم المنذر بن عمرو الساعدي فخرجوا حتى نزلوا بئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحررة بني ساهم فلما نزلوها بعثوا أحدهم بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل فلما جاءه الكتاب لم ينظر فيه حتى عدا على الرجل فقتله ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا أن يخفروا جوار أبي براء فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم : عصية ورعل وذكوان فأجابوه إلى ذلك فخرج بهم حتى غشوا القوم في رحالهم فلما رأهم المسلمون أخذوا سيوفهم فقاتلوه حتى قتلوا عن آخرهم ماعدا رجلين : عمرو بن أمية الضمري لأنه كان في الرحال وكعب بن زيد فإنه ترك بالمعركة جريحا فذلق موته فارتك من بين القتلى وقد كان عمرو أسر لما ذهب يتفقد القوم ثم أطلقه عامر بن الطفيل فعاد إلى المدينة وبينما هو عائد قابله رجلان من بني عامر فاغتالها وكان معهما عقد من رسول الله لم يعلم به عمرو

فلما وصل إلى المدينة وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بخبر القوم والقتيلين قال هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارها متخوفا ثم قال لعمر بن الخطاب لقد قتلت قتيلين لأدينيهما

المحاضرة الرابعة عشرة

إجلال بن النضير — ذات الرقاع — بدر الآخرة — الخندق
وقريظة — بني المصطلق

إجلال بن النضير

خرج عليه السلام إلى بني النضير يستعينهم في أمر ذينك القتيلين اللذين قتلها عمرو بن أمية وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف فلما جاءهم وطلب منهم المعاونة قالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا لأنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه (وكان جالسا إلى جنب جدار من بيوتهم) فن

رجل يعلو هذا البيت فباتى عليه صخرة فيرىحنا منه فانتدب لذلك أحدهم فصعد ليلقى الصخرة كما قال - ورسول الله في نفر من أصحابه - فجاءه الوحى بما عزم عليه القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة وأخبر أصحابه الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدربه وأمر بالتهيؤ للحربهم والسير إليهم وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ٤ فتحصنوا منه في الحصون فأمر بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها

أرسل جماعة من منافق أهل المدينة إلى بنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلحكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم . فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا واشتد بهم الخوف فطلبوا أن يجلوا ويكف عن دماهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة فرضى الرسول بما طلبوه فاحتلوا من أموالهم ما استقلت به الإبل وخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام

ونزل في أمر بنى النضير من القرآن سورة الحشر وهى السورة الستون من القرآن قص فيها الحادثة وما كان من المنافقين الذين راسلوا بنى النضير ثم عين حكم الأموال التي تركوها وسماها فينا وجعل أمرها لرسول الله يضعها حيث أمره الله (لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) ثم عذر المسلمين على ما فعلوه من قطع بعض نخيلهم بأنه لم يكن المقصود منه الفساد ، وإنما كان بإذن الله ليضعف به أمر العدو ثم أمر المسلمين بالتقوى وأن تنظر النفس ما قدمت لغد

ذات الرقاع

خرج عليه السلام من المدينة فى جمادى الأولى من سنة ٤ يريد بنى محارب وثعلبة من غطفان حتى إذا نزل نخلا اتى بها جمعا عظيما من غطفان فتقارب الناس ولم يكن حرب وقد خاف بعضهم بعضا حتى صلى الرسول بأصحابه صلاة الخوف ثم انصرف بالناس

بدر الآخرة

جاء شعبان من السنة الرابعة وفيه سوق بدر وهى موعد أبى سفيان فخرج عليه السلام بأصحابه حتى نزل بدرأ وأقام ينتظر أباسفيان أما هذا فإنه خرج بقريش

حتى بلغ مجنة أو عسفان ثم بداله فقال أيها الناس إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب
ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جذب ولاني راجع
فارجموا فرجع الناس ، وكان ذلك مما أخذه الناس على أبي سفيان لعدم وفائه ولكنها
الحروب ولقاء الموت تحمل الناس كثيراً على ما يكرهون
الخنديق

خرج نفر من اليهود ثم من بني النضير الذين أجلاهم رسول الله إلى خيبر ومعهم
جماعة من بني وائل حتى قدموا مكة على قريش فدعهم إلى حرب رسول الله وقالوا
إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت لهم قريش يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب
الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفدينا خير أم دينه ؟ قالوا بل دينكم
خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فسر ذلك قريشا ونشطوا لمادهم اليه فاجتمعوا
لذلك واتعدوا له ثم خرج أولئك النفر حتى أتوا غطفان فدعهم إلى مثل مادعوا
اليه قريشا وأخبرهم أنهم سيكونون معهم وأن قريشا قد تابعهم على ذلك فاجتمعوا
معهم فيه فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم
عبيدة بن حصن في بني فزارة والحريث بن عوف في بني مرة ومسعر بن دخيلة في بني
أشجع بن أريث

لما سمع رسول الله بما اجتمعت عليه قريش وأحزابها ضرب الخنديق على المدينة
بإشارة سدان الفارسي وقاسي المسلمون في حفره متاعب شديدة وما زالوا حتى أحكوه
ثم جاءت قريش ومن معها حتى نزلوا بهجمع الأسيال من دومة بين الجرف وزغابة
في عشرة آلاف وجاءت غطفان حتى نزلوا بذي ندى نعي إلى جانب أحد وخرج رسول
الله والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين وضرب
هنالك عسكره والخنديق بينه وبين العدو وأمر بالنساء والذراير لجعلوا في الآطام
خرج حي بن أخطب النضيري حتى أتى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة
وصاحب عقدهم وعمدهم وكان عاقد رسول الله وعاهده على أن ينصره إذا أصابته
حرب كما تقدم فضرب عليه حتى الباب فأغلقه دونه فما زال يكلمه حتى فتح له بابه
ثم قال - إنني قد جئتك يا كعب بعز الدهر ويبحر طام جئتك بقريش على قاداتها وساداتها
حتى أنزلتهم بذنب نعي وقد عاهدوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل

محمداً ومن معه فقال له كعب جئتني والله بذل الدر وبجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء ويحك يا حيي فإني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء فلم يزل حي بكعب يقتله في الذروة والغارب حتى نقض كعب بن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين المسلمين فلما انتهى الخبر إلى الرسول وإلى المسلمين بعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عباد سيد الخزرج ليعلما له خبر بني قريظة وكان أمرهم بهم أكثر مما بهم أمر قريش وغطفان لأن هؤلاء في بلده والحياة منهم تؤثر كثيرا في مركز جيشه فلما انتهى السعدان إلى بني قريظة وجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا من رسول الله لا هديتنا وبين محمد؟ فشا تمهم سعد بن معاذ وكان رجلا فيه حدة فقال له سعد بن عباد دع عنك مشاتمهم فما بيننا وبينهم أربي من المشاتمة ثم جاء السعدان إلى رسول الله وأعلوه بما عليه القوم فعظم عند ذلك البلاء عند المسلمين واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين .

أقام المسلمون على ذلك الحال بعضاً وعشرين ليلة لم يكن بينهم حرب إلا المراماة بالنبل والحصار. ولما اشتد بالناس البلاء رأى عليه السلام أن يفعل أمراً يفرق به كلمة الأحزاب فبعث إلى عيينة بن حصن الفزاري والحارث بن عوف المري وهما قائدا غطفان فراوضهما أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفا بجيوش غطفان قبلا ولكنه قبل أن يبرم الأمر أرسل إلى السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عباد فاستشارهما فيما رأى فقالا يا رسول الله أمراً نحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به أم شيئاً تصنعه لنا قال بل شيء أصنعه لكم فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان لانعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطعمون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو يبيعاً أخين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا والله مالنا بهذا من حاجة والله مانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال عليه السلام أنت وذاك فرجع رئيساً غطفان واستمر الأمر كما كان وقد استفزت النعرة بعض الشبان من قريش فاقتحموا الخندق بأفراسهم فنهزم من وقع فيه واندق عنقه ومنهم من برز له شجيمان من المسلمين فقتلوه ومنهم من قر :

جاء ذات يوم نعيم بن مسعود الأشجعي فقال يا رسول الله إني أسلمت ولم يعلم قومي
يا سلامي فرني بما شئت فقال له عليه السلام : إنما أنت رجل واحد نخذل عنا
ما استطعت فإن الحرب خدعة فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديماً في الجاهلية
فقال يا بني قريظة قد علمتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم وإن قريشا ليسوا مثلكم .
البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدر أن تتحولوا منه إلى غيره
وإن قريشاً وغطفان قد جاؤا للحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتهم عليه وبلدهم وأهلهم
ونسائهم بغيره فإن رأوا نهرة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلصوا بينكم
وبين الرجل ولا طائفة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا رهناً
من أشرافهم يكونون بأيديكم ! قالوا : لقد أشرت بالرأي ، ثم خرج أتى قريشاً
فقال لأبي سفيان بن حرب - ومن معه من رجال قريش - قد عرفتم ودي لكم وفراق
لمحمد وإنه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم . إن معشر يهود
قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا
فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجلاً من أشرافهم فنعطيهم
لك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم
أن نعم فإن طلبت منكم يهود أحداً من أشرافكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً
ثم جاء غطفان فلبب بعقولهم بمثل ذلك :

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة ٥ أرسلت قريش وغطفان إلى بني قريظة
عكرمة بن أبي جهل في نفر من القبيلتين فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخلف
والخافر فاغدوا للقتال حتى تاجز محمدأ فقالوا لهم : إن غداً السبت ، وهو يوم
لا نفعل فيه شيئاً ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمدأ معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم
يكونون بأيدينا ثقة لنا فلما رجع عكرمة ومن معه بذلك الرسالة تأكدت قريش
وغطفان من خبر نعيم بن مسعود وأرسلوا إلى بني قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم أحداً
من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فمأكدت قريظه حينئذ مما قال لهم
نعيم وامتنعوا من القتال حتى يأخذوا الرهائن فأبوا عليهم ودبّ حينئذ إلى القلوب
الفشل والرعب وهما كافيان لخذلان أعظم جند وصادف أن جاءتهم ريح في ليلة
شامية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آيتهم

لما علم عليه السلام بما حصل بين الاحزاب من الخلاف أرسل حذيفة بن اليمان ليعلم له خبر القوم فجاء معسكرهم في ذلك الليل فاذا أبوسفيان يقول لهم لينظر امرؤ من جلسه قال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي فقلت له من أنت ؟ قال أنا فلان بن فلان ثم قال أبوسفيان يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة الريح ماترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث ما أطلق عقاله إلا وهو قائم فتبعته قريش وسمعت غطفان بما كان فانشمروا راجعين إلى بلادهم وبذلك أزيحت هذه الغمة الثقيلة التي علتهم كيف يخندقون على ديارهم إذا جاءهم عدو أكثر منهم عدداً فكان يوم أحد كان درساً لهم استفادوا منه الأناة في ملاقات الأعداء واضطروا - بحكم ما هم فيه من الشدائد - أن يستعينوا بالخدع التي تفرق بين الأعداء الذين اعتدوا عليهم وعرفوا أن من عافدوهم من بني قريظة لا عهد لهم ولا رادع عما استكن في أنفسهم من العداة الشديد فلم يكن هناك بد من جزائهم جزاء شديداً يناسب ذلك الجرم الفظيع

لذلك أمر عليه السلام - بعد انصراف الاحزاب - أن يتوجه المسلمون إلى بني قريظة ليعاقبوا عقوبة الخائن الغادر فذهب المسلمون إليهم وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف في قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم سعد بن معاذ حليفهم فحكم عليهم حكماً يناسب جرمهم وهو قتل مقاتلهم فنفذ الحكم فيهم وكان الأوس يريدون من سعد أن يحكم فيهم بما حكم به عبدالله بن أبي في مواليه من قينقاع بإجلالهم فلم يرض ومن الغريب أن إخوانهم بالشام في هذه الآونة كانت تدور عليهم تلك الكأس المرة من يد هرقل بعد غلبته كسرى من جراء ما فعلوه بنصارى الشام حينما كان الظفر لفارس فكانوا في الجهتين أعداء للطرفين

ذكر الله قصة الاحزاب في سورة سميت باسمهم وهي السورة الثالثة والثلاثون وأولها قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى

المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً) والذين كانوا من فوقهم بنو قريظة والذين كانوا أسفل منهم قريش وغطمان ، ثم بين حال المماقين ومثل ما كانوا عليه من الخوف أحسن تمثيل ثم بين حال المؤمنين حينما رأوا الأحزاب (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً) ثم ذكر أمر بنى قريظة الذين ظاهروا الأحزاب في عدوانهم والآية تدل على أن القتل لم يعمهم (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً)

واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة نفر من المسلمين منهم سعد بن معاذ أصابه سهم في ذراعه فقطع أكله وقدمات بعد حكمه على بنى قريظة وقتل من المشركين ثلاثة نفر وبعد الانصراف من الأحزاب انضم إلى صفوف المسلمين قائدان عظيمان من قواد قريش وهما عمرو بن العاص السهمي وخالد بن الوليد المخزومي وذلك يدل أن الحرب قد شرعت تضع أوزارها بين الفريقين وقد كان ذلك فإنه لم تحصل مراقف مهمة بين الفريقين بعد ذلك

بنى حيان

أقام عليه السلام بالمدينة — بعد الخندق — إلى جمادى الأولى سنة ٦ وفيه خرج إلى بنى حيان يطالب بأصحاب الرجيع فسار حتى نزل بغيران وهو واد بين أمج وهسفان ينزله بنو حيان فوجدهم حذروا وتفرقوا وتمنعوا في رموس الجبال فعاد إلى المدينة

ذى قرد

لم يقم بالمدينة إلا ليالي قلائل حتى أغار عيينة بن حصن — في خيل من غطفان — على لقاح لرسول الله بالغابة وفيها رجل من غفار وامرأته فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة فنذر بهم سلة بن عمرو بن الأكواع الأسلي فأشرف في ناحية سلع وصرخ واصباحاه ثم خرج يشدد في أثر القوم وكان رامياً مجيداً فصار يرميهم بالنبل ويقول خذها وأنا ابن الأكواع فإذا انعطفت عليه الخيل انطلق هارباً ثم يعود فيفعل كما كان يفعل وكان قصده أن يؤخرهم ريثما يلحقهم جند المدينة ، بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح ابن الأكواع فصرخ بالمدينة الفرع الفرع فترامت إليه الخيول فلما اجتمعوا أمر عليهم سعد

ابن زيد وقال له اخرج في أثر القوم حتى ألحقك فخرجوا يشتدون في أثر القوم حتى أدركوهم فناوشوهم حتى لحقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنقذوا منهم بعض اللقاح وهربت غطفان بالباقي وأقام المسلمون بذي قرد يوما وليلة ثم عادوا قافلين إلى المدينة وقتل منهم رجل واحد

بنو المصطلق

أقام عليه السلام بالمدينة إلى شعبان وفيه خرج يريد بنى المصطلق وهم بطن من خزاعة وكان بلغه أنهم يجمعون له وقائدهم الحرث بن ضرار فلما سمع عليه السلام بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال لهم المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فانهمزمت خزاعة وحاز المسلمون أهوالهم وأبناءهم ونساءهم فقسم السبي في المسلمين وفيه جويرية بنت الحرث رئيس القوم

ويظهر أنه عليه السلام كان يميل للنسب على السبي وإطلاقه فتزوج جويرية بنت الرئيس فخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية بنت الحرث فقال الناس أصهار رسول الله وأرسلوا ما بأيديهم قالت عائشة فلقد أعتق بتزوجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق فما علم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها

الحديبية

أقام عليه السلام بالمدينة إلى ذى القعدة من سنة ٦ وفيه خرج يريد مكة معتمرا لا يريد حربا وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له وكان قد أراه الله في منامه أنه هو وأصحابه يدخلون المسجد الحرام آمنين؛ فسار بهم حتى بلغ الحديبية وكانت قريش قد سمعت بمسيره إلى مكة فتأهبوا للذود عنها

ولما اطمأن به المقام جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة يسألونه عن سبب مجيئه؟ فأجابهم أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا للبيت معظما له فرجعوا إلى قريش وأعلموهم بذلك فاتهمتهم قريش وجبهوهم وقالوا وإن كان جاء لا يريد قتالا فوالله لا بدخلها علينا عنوة أبدا ولا نتحدث بذلك عنا العرب ١١ ثم

بعثوا اليه رسولا آخر من بني عامر فأخبره عليه السلام بمثل ما أخبر به بديلانم بعثوا اليه الحليس بن علقمة الكنانى سيد الاحابيش فلما رآه عليه السلام قال هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه فلدارأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لإعظاما لما رأى فقال لهم ذلك فقالوا اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك فغضب الحليس عند ذلك وقال يا معشر قريش ما على هذا حالنا كم أیصد عن البيت من جاء معظما له ؟ والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لفرن بالاحابيش نفرة رجل واحد فقالوا له مه - كف عنا يا حليس حتى نأخذه لأنفسنا ما نرضى به . ثم بعثوا له عروة ابن مسعود الثقفى وأمه سبيعة بنت عبد شمس فخرج حتى جاءه ، وقال له يا محمد أجمعت أوباش الناس ثم جئت بهم إلى بیضتك لتفضنا بهم لأنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد ابسوا جلود النور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا وأیم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك . ولما كانت هذه الكلمة شديدة لا یحتملها المسلمون نال منه أبو بكر ثم كله عليه السلام بما كلم به أصحابه وأخبره أنه لم یأت يريد حربا وقد هال عروة ما رآه من شدة احترام المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبتهم له فرجع إلى قريش وقال لهم يا معشر قريش قد جئت كسرى فى ملكه وقیصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه وإنى والله ما رأیت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ولقد رأیت قوما لا یسلونہ لشیء أبدا ، فروا رأيكم

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك عمر بن الخطاب لیرسله إلى قريش حتى يبلغهم عنه ما جاء من أجله فقال عمر يا رسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى وایس بمكة من بنى عدى أحد یمتنعنى وقد عرفت قريش عدوانى لها وغلظتى عليها ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى عثمان بن عفان فدعا عليه السلام عثمان فبعثه إلى أنى سفیان وأشراف قريش یخبرهم أنه لم یأت للحرب وإنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما له فخرج عثمان إلى مكة فلقیه أبان بن سعید بن العاص بن أمية حين دخل مكة فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى يبلغ الرسالة فبلغها ثم قالوا له إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبست قريش عندها عثمان فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل ، فلما بلغت تلك الإشاعة رسول الله قال لا تبرح حتى

تناجز القوم ، ثم دعا أصحابه إلى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان - تحت الشجرة - على أن لا يفرّوا ، ثم تبين بعد ذلك بطلان تلك الإشاعة .

بعثت قريش بعد ذلك سهيل بن عمرو العامري وقالوا له انت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عما عامه هذا فوالله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً : فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه عليه السلام قال أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فجاء سهيل وتكلم مع الرسول في أمر الصلح واتفقا على قواعده وهي هذه :

(١) أن الرسول يرجع من عامه فلا يدخل مكة ، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً ثم سارح الراكب ، السيوف في القرب بعد أن تخرج منها قريش :

(٢) وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض :

(٣) من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا من مع محمد لم يردوه عليه :

(٤) من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه :

ثم دعا عابداً ليكتب الكتاب بذلك فأولى عليه بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : اكتب باسمك اللهم فأمره عليه السلام بذلك ثم أملى هذا ما صلح عليه محمد رسول الله فقال سهيل لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال عليه السلام : اكتب هذا ما صلح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . ولما كتبت الصحيفة دخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلت بنو بكر في عهد قريش :

وبينا الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد انقلت إلى المسلمين فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه وقال يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتك هذا قال صدقت وأبو جندل ينادي يا معشر المسلمين أوردوا إلى المشركين يفتنونني في ديني ولم تكن هناك حيلة إلا أن يرد أبو جندل - عملاً

بوثيقة الصلح - عملاً بالآية الكريمة (وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) :

كانت حال بعض المسلمين عند ما انتهى الصلح شديدة لما رأوه من رجوعهم دون أن يطأونوا بالبيت ، وقد كانوا لا يشكون في ذلك لمكان رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لما رأوه من هذه الشروط التي رضىها عليه السلام وظن بعضهم أنها لا تليق بالمسلمين حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يا رسول الله ألسنت برسول الله ؟ قال بلى قال أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى قال أوليسوا بالمشركين ؟ قال بلى قال فعلم نعطى الدنيا في ديننا قال أنا عبد الله ورسوله إن أخالف أمره ولن يضيعني : لم يبق بعد ذلك إلا أن يتحال المسلمون من عمرتهم بنجر الهدى وحق الرءوس أو تقصيرها فنجر عليه السلام وحق فتواثبوا إلى هديهم ينحرون ثم حلقوا رؤسهم أنزل الله في هذه الحادثة سورة الفتح بأسرها

وقد سميت في أولها هذه الحادثة فتحاً مبيئاً وذلك واضح فإن الناس أمن بعضهم بعضاً بسببها وأمن طريق الدعوة التي ما كانت كل هذه الحروب إلا لأمنها فتفرغ عليه السلام لمكاتبة الملوك ورؤساء العشائر يذهب رسله ويؤوبون وهم آمنون من شر قريش ومن شر حلفائهم والذي ضحى في نيل ذلك إنما دوشىء قليل جداً ولكن الناس لا يصبرون - ثم ذكر في السورة البيعة فجعل الذين يبايعونه إنما يبايعون الله ووعد الموفى وأوعد الناكث ، ثم تكلم عن أمر الأعراب الذين تخلفوا عنه حينما خرج إلى الحديبية وأبان ما سيغذرون به ووبخهم على ما فعلوا لأنه لم يقبل اعتذارهم ثم أعلن رضاه عن أصحاب بيعة الشجرة ، ثم بين للناس الأسباب التي من أجلها امتنع الرسول عن الحرب - ثم تكلم عن رؤيا رسول الله فقال (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون فلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) ثم ختم السورة بوصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمثيلهم أحسن تمثيل

بهذه الهدنة أمن المسلمون شر قريش وصارت لهم الحرية يسرون حيث شاؤوا إلا أنهم كان لهم عدو بالقرب منهم يتربص بهم الدوائر وذلك العدو هم أهل خيبر الذين لا يفسون ما حل بهم وإخوانهم نصم عليه السلام على المسير إليهم والاستراحة منهم

نخرج في محرم السنة السابعة حتى حلّ بساحتهم ونازل حصونهم وصار يفتحها منهم حصنا حصنا حتى جاء على آخرها وصالح أهلها على أن يبقوا فيها ويدفعوا نصف ما يخرج من أرضهم وإذا شاء المسلمون أخرجوهم وبعد أن انتهى من خيبر ذهب إلى وادي القرى فحاصر أهله ليالي ثم عاد إلى المدينة بعد أن صالحه أهل فدك على مثل صلح أهل خيبر

وفي يوم فتح خيبر قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحبشة بقية من كان بها من المهاجرين ، وفي مقدمتهم جعفر بن أبي طالب وكان قدومه بهم على أثر بعث الرسول إلى النجاشي عمر بن أمية الضمري يطلب توجيههم إليه فأرسلهم النجاشي على مركبين وكانوا ستة عشر رجلا معهم من بقي من نسائهم وأولادهم وبقيتهم جاؤا إلى المدينة قبل ذلك

ولما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليه السلام بأصحابه الذين صدروا في العام الماضي ليقضوا تلك العمرة التي فاتتهم حسب ههذه الحديبية فوصل إليها في ذي القعدة من السنة السابعة وحينئذ خرج منها أهل مكة ودخلها المسلمون ، وكانت قريش تتحدث أن أصحاب محمد في جهد وشدة ووقفوا أمام دار الندوة مضطفين ينظرون حال المسلمين فلما دخل عليه السلام المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى وقال رحم الله أمراً أراهم اليوم قرة من نفسه ثم استلم الركن وخرج بهرول وبهرول أصحابه معه حتى إذا وراه البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الحجر الأسود ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرهما

ثم أقام عليه السلام بمكة ثلاثاً ثم انصرف إلى المدينة في ذي الحجة

مؤنة

كان من ضمن رسل النبي عليه السلام الحارث بن عمير الأزدي ، وكان رسولا إلى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني فكان ذلك شديداً على رسول الله فجهدت تلك السرية للقصاص من قتله وكان عدتها ثلاثة آلاف نفر وكان رئيس السرية زيد بن حارثة ، وقال لهم عليه السلام إن قتل زيد فرئيسكم جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فرئيسكم عبدالله بن رواحة ، فخرجوا في جمادى الأولى سنة ٨ حتى نزلوا معان من أرض الشام

فبلغ الناس أن هرقل (١) قد نزل مأب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم وانضم إليهم من عرب الشام مثلهم فأقام المسلمون ليلتين في عمان ثم شجعوا أنفسهم على الهجوم على ذلك العدو ، وهم في العدد القليل ، فساروا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف فأنحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ثم التقى الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قتل فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فما زال يقاتل حتى قتل فأخذ الراية رجل من المسلمين وطلب منهم أن يصطلحوا على أمير لهم فاتفقوا على خالد بن الوليد وفي ذلك الوقت أظهر مهارته في تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه ، وصار يتأخر بهم قليلا قليلا — مع حفظ نظام جيشه ولم يتبعه الروم لأنهم ظنوا أنه يخدعهم حتى يرمى بهم في الصحراء ثم عاد خالد بذلك الجيش إلى المدينة . وعندنا أن تلك الأعداد التي يذكرها المؤرخون لجنود الروم والعرب الذين معهم مبالغ فيها لأن غاية ما رآه المسلمون أنهم رأوا عددا كثيرا أمامهم ولا يمكن بحال أن يعطوه قدره الحقيقي له وثلاثة آلاف عدد قليل جدا في جانب مائتي ألف لا تمكنهم المقاومة بحال والمؤرخون إذا عدوا من قتل في هذه الموقعة لا يزيدون عن اثني عشر رجلا ومن المحال أن يصدم جيش عظيم القدر بجيش نسبه إليه ضئيلة ثم لا يقتل في الميدان إلا اثنا عشر نفرا

فتح مكة

كانت بطرن خزاعة قد دخلت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قدمنا . وبكر دخلت في عهد قريش وكان بين الحيين في الجاهلية دماء ، فلما كانت الهدنة اغتتمتها بنو الديل من بني بكر وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم فخرجوا وقائدهم نوفل ابن معاوية الديلي ورفدتهم قريش بالسلاح ، وخرج منهم نفر يساعدون بأنفسهم فانضموا إلى صفوف بني بكر وقاتلوا خزاعة حتى تحرموا منهم بالحرم بعد أن أصابوا

(١) في تاريخ هرقل أنه قدم أورشليم ٦٢٩ ميلادية بعد انتصاره على الفرس ليشكر الله على ما قبضه له من النصر ورد الخشبة المقدسة التي كان الفرس قد استلبوها وطرده اليهود من أورشليم ولعله علم حينذاك بورود المسلمين فسار إليهم أو أنفذ لهم بعض قواده ليردوهم

فيهم تخرج من خزاعة عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على الرسول بالمدينة فوقف عليه وهو جالس في المسجد فأنشده شعرا يخبره فيه بنقض قريش لعهدهم ومظاهرتهم، لبني بكر على خزاعة ويطلب منه النصح وفاء بالعهود، ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة حتى أتوا رسول الله فأخبروه بما نقضت قريش من العهد، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة. أحست قريش بما فعلت وعلمت أن الخبر لا بد أن يصل إلى المسلمين فرأى أبو سفيان أن يسير إلى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة فلم ينجح وكان مجيئه - على هذه الصورة - مما أكد الخبر عند رسول الله والمسلمين فأمرهم أن يتجهزوا إلى مكة وأمرهم بالجد والتبؤ ولم يكن يجب أن تعلم قريش بمسيره فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم بمسير المسلمين وأرسله مع امرأة فلم بذلك عليه السلام فأرسل إليها من جاء بالكتاب منها وسأل حاطباً عن سبب كتابة هذا الكتاب فاعتذر وقبل عذره وكانت عتة من خرج في هذا الجيش عشرة آلاف رجل وكان خروجهم لعشره من شهر رمضان سنة : ٨ (أول يناير سنة ٦٣٠) فساروا حتى نزلوا بئر الظهران قريباً من مكة

كانت قريش محسة بأنه لا بد من شيء بعد أن فعلت ما فعلت ولكن عميت عليهم الأخبار فلم يعلموا بشيء من مسير المسلمين. وبينما المسلمون بئر الظهران خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار فظفرت بهم جنود المسلمين وكان أول من لقي أبا سفيان العباس بن عبد المطلب فأردفه على عجز بغلته وسار به سيراً حثيثاً ليستأن له الرسول وخاف أن يسرع إليه من يخضه فيها كما فلما وصل العباس وأبو سفيان إلى خيمة الرسول وجد عمر قد سبقه وهو يطلب أن يأمر بقتل أبي سفيان فقال العباس يا رسول الله قد أمنتته فقال للعباس اذهب به إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به فذهب به حتى إذا كان الصباح غداً به فقال الرسول لاني سفيان ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال بآبي أنت وأمي ما أحملك وأوصلك وأكرمك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال بآبي أنت وأمي ما أحملك وأكرمك وأوصلك أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً، وبعد كلام وحوار أسلم أبو سفيان وشهد شهادة الحق فقال العباس يا رسول الله إن أبا سفيان.

رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً فقال عليه السلام من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ثم أطلق فذهب إلى مكة مسرعاً ونادى بأعلى صوته يامعشر قريش محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم وأعلن لهم كلمة الرسول ففرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، ثم سار عليه السلام بجنوده حتى دخل من أهلي مكة ولم يحصل بين المسلمين وقريش إلا مناوشات لا تستحق الذكر ، فلما نزل مكة واطمأن الناس سار إلى البيت فطاف به سبعة على راحلته ثم أخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة اليشبي ثم وقف على باب الكعبة وقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى به فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ثم قال يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب . ثم قال يامعشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال :

«اذهبوا فأنتم الطلقاء»

ثم رد مفتاح الكعبة إلى سادنها فهي في أعقابه إلى اليوم . ثم دخل البيت فأزال ما به من الصور والتماثيل المختلفة وأمر -ين- دخوله مكة - بقتل أفراد ذوى جرائم خاصة بهم فقتل أكثرهم ودخل في الإسلام في هذا اليوم معظم قريش لم يتخلف منهم إلا القليل ثم أسلموا بعد . يعتبر فتح مكة حداً فاصلاً بين المدة السابقة عليه وبين ما بعده فإن قريشاً كانت في نظر العرب حماة الدين وأنصاره والعرب في ذلك لهم تبع تخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثني في جزيرة العرب

أمر حنين

إلا أن بطون هوازن رأت من نفسها عزا وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالتخضوع فاجتمعت إلى مالك بن عوف النضري ودخل معها في ذلك بطون ثقيف وكلهم من قيس عيلان وأجمعوا أمرهم على المسير إلى حرب المسلمين ، فلما سمع بهم رسول الله خرج إليهم ومعه اثنا عشر ألفاً وهو أكثر جند خرج به فلما استقبلوا وادى حنين

وشرعوا ينعثرون فيه كانت هوازن وثقيف قد كنوا في شعابه فشدوا على المسلمين شدة رجل واحد قبل أن يهيه هؤلاء صنفهم فانشمر الناس راجعين لايلوى أحد على أحد فانحاز عليه السلام جهة اليمين وهو يقول هلموا إلى أيها الناس أنا رسول الله أنا محمد بن عبدالله ولم يبق معه في موقفه إلا عدد قليل . فقال للعباس عمه وكان جهير الصوت أصرخ يامعشر الأنصار يامعشر أصحاب السمره فأجابوا ليك ليك فيذهب الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر عليه فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله فيؤم الصوت حتى إذا اجتمع اليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتلوا ثم تلاحق بهم من كانوا تركوا الموقعة وكانت حدة العدو قد انكسرت فلم تكن إلا ساعات قلائل حتى هزموا عدوهم هزيمة منكرة وقتل من ثقيف - وخدمهم نحو السبعين : وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وضمن ولفد أنزل الله في هذه الموقعة في سورة التوبة « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيرا فلم آغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين »

وبعد انتهاء حنين سار عليه السلام إلى ثقيف بالطائف فصارهم مائة ، ثم عاد عنهم بدرن أن يفتح الطائف فسار حتى نزل الجعرانة فأتاه هناك وفد من هوازن مسلمين فقالوا يارسول الله إنا أصل وعشيرة ، وتد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فن علينا من الله عليك وقال له رجل من هوازن إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضتك اللاتي كن يكفلنك ولو أنا ملحننا للهارث بن أبي شمر الغساني أول للنعمان ابن المنذر ثم نزل بنا بمثل الذي نزلت رجونا عطفه وعائده علينا وأنت خير المكفولين فقال لهم عليه السلام أبناءكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم فقالوا أخيرتنا بين أموالنا وأحسابنا بل ترد إلينا نساءنا وأبنائنا فهو أحب إلينا فقال لهم أما ما كان لي ولبنى عبد المطالب فهو لكم وإذا أنا صليت الظم بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونساءنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم فلما صلى الظهر قاموا فتكلموا بمثل ما قال لهم فقال لهم عليه السلام أما ما كان لي ولبنى عبد المطالب فهو لكم فقال المهاجرون والأنصار

ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلك رد عليه السلام إلى هوزان أبناءهم ونساءهم ثم وفد عليه بعد ذلك مالك بن عوف فرد عليه أهله وماله وأعطاه فوق ذلك مائة من الإبل فحسن إسلامه واستعمله عليه السلام بعد ذلك معتمراً من الجمرات فآدى العمرة وانصرف بعد ذلك راجعاً إلى المدينة بعد أنولى على مكة فتاب بن أسيد وكان رجوعه إلى المدينة لست ليال بقيت من ذى القعدة

تبوك

أقام عليه السلام بالمدينة إلى رجب من السنة التاسعة وفيه أمرهم أن يتجهزوا لغزو الروم الذين سبقت منهم وقعة زيد بن حارثة ومن أصيب معه في مؤتة ويسمى هذا الجيش بجيش العسرة لأنّ التأهب لها كان في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجذب من البلاء وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم فيه فتجهز الناس وأنفق الكرام ما يتجهز به ضعفاء الحال ولما تجهز الجيش خرج بهم عليه السلام حتى وصل تبوك وهناك جاءه يحنه بن ربيعة صاحب أيلة فصالح الرسول وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأهل أذرح فأعطوه الجزية فكتب ليحنة (بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن ربيعة وأهل أيلة سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر) ثم بعث وهو بتبوك خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة فذهب إليه وأسرته وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتل له دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله فرجع إلى قريته وأقام المسلمون بتبوك بضعة عشرة ليلة ثم انصرف قافلاً إلى المدينة وحديث هذه الغزوة وما كان فيها قصة الله في سورة التوبة

وهذه الغزوة آخر مرة خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم محارباً

التشريع في المدينة

بيننا فيما سبق أنّ الذي نزل بالمدينة من القرآن إحدى وعشرون سورة وهو يبلغ نحو ثلث القرآن .

ويمتاز المدني من القرآن عن المكي منه بأمرين (الأول) ما فيه من قصص الغزوات وأسبابها وما كان فيها مما يصح أن يكون درساً نافعاً للمسلمين (الثاني) ما تناول من الشرائع الاجتماعية والدينية ونعني بالدينية ما شرعه ليكون أساساً لمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الشرائع الدينية

(١) الصلاة لم يزد الكتاب في تفصيلها شيئاً إلا أنه شرع صلاة الجمعة في اليوم الذي اختير ليكون خاصاً بالمسلمين وقد ورد ذكر هذه الصلاة في سورة سميت بالجمعة وشرع صلاة الخوف في حال تقابل الصفوف وقد بينها في سورة النساء : ثم زاد المسلمين حثاً على إقامة الصلاة والمحافظة عليها

(٢) الصيام شرع في المدينة في السنة الثانية وميز به رمضان لأنه الشهر الذي نزل فيه القرآن لأول مرة وقد بين ذلك في سورة البقرة

(٣) الحج شرع في المدينة في السنة السادسة وقد بين الحج في موضعين من سورة البقرة (الأول) في قوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم) (الثاني) في قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) إلى قوله (فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون) وذكره في سورة آل عمران من قوله (ولله هلي الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً)

وقد بين في سورة الحج المكية شيء من تاريخ الحج والغاية منه (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) الآيات ولم يحج عليه السلام إلا في السنة العاشرة من الهجرة وتسمى حجته بحجة الوداع لأنه ودع فيها الناس وقال لهم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا وأوصام فيها بكثير من الوصايا وبين لهم تفاصيل الحج عملاً

(٤) الزكاة لم يرد في تفصيلها في الكتاب شيء جديد وإنما بينها السنة وبين القرآن مصارفها في سورة التوبة

الشرائع الاجتماعية

كنا نحب أن نجمل في مقدمتها الزكاة والحج ولكن لما كان فقهاؤنا يعدونها من

العبادات لم نستجز أن نخالفهم وإلا فواضح أنهما من الشرائع الاجتماعية لأن الغرض من الزكاة إعانة الأغنياء للفقراء فهي أمر مالي محض والمقصد من الحج أن يكون موفداً عاماً يشهد فيه المسلمون منافعهم ويذكرون اسم الله

ما ورد في الكتاب من الشرائع الاجتماعية ثلاثة أنواع

الأول - ما يتعلق بالبيوت وتكوينها ونظامها وهو الذي يسميه الناس الآن أحوالاً شخصية وهذا الاسم ترجمة حرفية للفظ الأفرنجي ولكننا لا نستجيز إطلاق هذا الاسم عليه لأن نظام البيوت ليس بالأمر الشخصي الذي ترجع أوامره ونواهيها إلى الشخص وحده وإنما هو أمور اجتماعية عامة وهي أليق المشروعات باسم الأحوال الاجتماعية العائلية إن رضينا لأهل اللغة باسم العائلة وإلا سميناهم الأحوال البيتية لأنها ترجع إلى تكوين البيت ونظامه

الثاني - ما يتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الثالث - ما يتعلق بالقصاص والحدود

نظام البيوت

(١) الزواج : شرع القرآن الزواج وسمى عقده (ميثاقاً غليظاً) وامتن على الناس بأن جعل بين الزوجين (مودة ورحمة) وجعل كلا من الزوجين لباساً للآخر (من لباس لكم وأنتم لباس لمن) ومعنى هذا أنكم تسكنون إليهم ويسكن إليكم كما قال جعل لكم الليل لباساً أي تسكنون فيه

(٢) حزم التزوج بنساء يبينن فنهى في البقرة عن تزوج المشركات وتزويج المشركين ونهى في سورة النساء عن تزويج نساء يبينن من أول قوله تعالى ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء، الآيات

وأجاز في سورة المائدة تزوج المحصنات من أهل الكتاب

أباح التزوج بأكثر من واحدة إلى أربع ولكنه اشترط لذلك أن لا يكون المتزوج خاتماً من عدم العدل فهو إذا ما مور بالانتصار على الواحدة والأسلوب الذي جاءت به آية لإباحة التعدد مما يلفت نظر الإنسان إلى التنبه جيداً لأمر العدل والاحتراس من التورط حتى لا يقع فيما نهى عنه الشارع فإنهم بعد أن تأمرهم بالمحافظة على أموال اليتامى كانوا يخافون من أمرهم والوصاية عليهم فقال لهم

إن خفتم أن لاتقسطوا في اليتامى فكذلك خافوا أن لاتعدلوا في النساء فلا تنكحوا من تخافون معه من عدم العدل وعبر عن ذلك المعنى بقوله (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) يعنى إن أمتهم أن تعدلوا فإنه قال بعد (فإن خفتم أن لاتعدلوا فواحدة) وما يلفت النظر أنه قال في السورة نفسها (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة)

(٣) أمر بإعطاء النساء مهراً عند الزواج (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) ولكنه لم يجعل لهذا المهر حداً معيناً يبتدىء به ولا ينتهى إليه

(٤) العشرة : كثر في القرآن وصاية الرجل بالمعروف في معاشرته امرأته (فإمسك بمعروف) البقرة ٢٢٩ (فأمسكوهن بمعروف) البقرة ٢٣١ والطلاق ٣ وجعل للرجل الرياسة في البيت (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) وهذه الرياسة لاتجعل لها امتيازاً في الحقوق فإن الكتاب يقول (ولن مثل الذى عليهن بالمعروف والرجال عليهن درجة) فهذه تسوية واضحة توجب على الرجل أن يؤدي لها من الحقوق مثل الذى يطلب منها من الواجبات وله درجة الرياسة جمع ذلك في جملة وجيزة هي أساس كبير لكل نظام يكون لحياة الزوجين اهتم الكتاب كثيراً بأمر عقدة الزواج حتى لاتحل بسبب ما يحصل بين الزوجين من النفور فأقول الامر شكك الزوج في وجدانه إذا أحس من نفسه بكراهة لزوجته فقال مخاطباً الأزواج (وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) وأى زوج لا يتأثر بما ذكره الله بشكل توقع فإنه توقع الخير الكثير ممن يكرهها الرجل ثم أباح الرجل أن يؤدب الزوجة إن بدا منها النشوز وتعدت الحدود المشروعة

ثم خاطب المسلمين أنهم إن خافوا شقاقاً بين الرجل وزوجه أن يبعثوا حكماً من أهلها وحكماً من أهلها للسعى في التوفيق حتى لا تنفصم عروة الزوجية وضمن التوفيق بين الزوجين إذا كان الحكمان يريدان إصلاحاً فقال (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهلها وحكماً من أهلها إن يريدان إصلاحاً يوفق الله بينهما)

وإذا لم يقف بعد ذلك الزوجان عند الحدود المشروعة كان الطلاق أمراً لا بد منه لئلا تكون المعيشة تنغيصاً عليهما (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) وشرع في

الكتاب نظاما للطلاق لواتبع - كما جاء - لافاد المسلمين وأزال عنهم وصحات شائنة
هى لاصقة بهم ماداموا على حالهم

بين ذلك النظام فى سورتين من الكتاب إحداهما البقرة وقد جعل فيها الطلاق
مرتين يخير الإنسان بعدهما بين الامساك بالمعروف والتسريح بالاحسان ثم الثالثة
تكون بعدها الفرقة المؤبدة لأن ذلك دليل على عدم اتلاف القلوب وزوال السعادة
مع تلك الحياة فتنظر المرأة زوجاً غيره فربما رضيته ورضيها فإن حصلت
فرقة بين الزوجة وزوجها الثانى وظنت هى وزوجها الاقرب أن فى إمكانهما أن يقيما
حدود الله فلا جناح عليهما إذا تراجعا (فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن
ظنا أن يقيما حدود الله)

جعل للطلاق مدة تحصل الفرقة الفعلية بعدها إن لم يبد للزوج أن يعود إلى عشرة
زوجته بإحسان (وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا) وحتم أن هذه
المدة تقيمها المرأة فى بيتها الذى كانت تعيش فيه مع زوجها لا تخرج ولا تخرج إلا إن
كانت بذية اللسان وذلك هو المراد بالعاشة المدينة . اقرؤا إن شئتم سورة الطلاق
وتأملوا قوله فى حكمة بقائها فى بيتها (لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) ثم قال (فإذا
بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم
وأقيموا الشهادة لله)

لم يكتف الشارح بذلك بل أمر المرأة إذا طلقت بمتعة عوضا عما يكون قد نالها
من الاذى بسبب هذه الفرقة فقال (ومتعوهن على المرسع قدره وعلى المفترقه قدره متاعا
بالمعروف حقا على المحسنين) وقال (وللطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) وقال
(فتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا) وقال (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج
وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهانا وإثما مبينا وكيف
تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا،
فلا نرى الكتاب اهتم بأمر كما اهتم بالمحافظة على العشرة الزوجية بما وضعه من
هذا النظام

٥٥، فصل الكتاب أمر الميراث وجعل للنساء منه نصيبا مفروضا بعد أن كانت
العرب لاتورث النساء فهدم قاعدتهم بقوله وللرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون

وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو أكثر نصيباً مفروضاً) ثم بين تلك الانصباة بياناً تاماً في سورة النساء

(٦) اهتم الكتاب بأمر اليتامى فأمر بالمح فظة على أموالهم ونهى عن أكلها وجعل الذين يأكلونها إنما يأكلون في بطونهم ناراً وبين الوقت الذى يؤتون فيه أموالهم كل ذلك مبين فى أول سورة النساء كما بين أموال السفهاء الذين لا يمكنهم أن يحسنوا الصرف فى أموالهم

بذلك وبأمثاله وضع لهم أساس نظام عائلى قوى فالذين يقولون ليس فى الإسلام اعتناء بذلك النظام نراهم ابتعدوا جدا عن معرفة ما شتمل عليه الكتاب

المحاضرة السادسة عشرة

المعاملات - الحدود - الدعوة ونتائجها

المعاملات

جمع الكتاب أساس المعاملات فى مواضع من كتابه

(١) أمر أمراً عاماً بالوفاء بالعقود وهى كلمة تشمل جميع الالتزامات التى يلتزمها الإنسان الإنسان

(٢) نهى عن أكل أموال الناس بالباطل والإدلاء بها إلى الحكام وأباح الربح من التجارة (إلا أرتكون تجارة عن تراض منكم)

(٣) نهى عن أكل الربا أشد نهى ومثل آكله أشنع تمثيل كما ترونه فى سورة البقرة

(٤) بين شكل التعامل فى أطول آية من القرآن وهى آية الدين أمر فيها أمراً مؤكداً بكتابة الدين والاستشهاد عليه وقال فيها (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تدبرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها) ثم جعل الرهن وثيقة بما فى الذمة إن لم يجدوا كاتباً ثم وكلهم إلى أنفسهم وذمهم إن أمن بعضهم بعضاً وأمر من أؤتمن أن يؤدى أمانته

هذه هي الاصول العامة التي اعتنى الكتاب بوضعها

وقد نبه بعد ذلك على آداب اجتماعية منها :

(١) آداب الاستئذان وقد بينها في سورة النور في موضعين (الاول) (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلبوا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أذكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) (الثاني) في آخر السورة حيث يقول (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات) إلى آخر الآيتين

(٢) نهى النساء عن أن يبدن زينةهن إلا ما ظهر منها وهو ما كان على الأعضاء الظاهرة وأمرهن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن وقد أباح إبداء الزينة بمحضر أقارب لمن ساهم في سورة النور وأمرهن في الأحزاب بإدناء الجلباب ليكون شعاراً للحرارة حتى لا يتمرض لمن أحد في طريقهن كما يفعل ذوو الدعارة

(٣) أمر في التحية أن يحيا الإنسان بأحسن تحية أو بمنثلها إلى غير ذلك من الآداب الخلقية التي بها يتم تعاطفهم وإفهام

الحدود والقصاص

شرح الكتاب القصاص ، وأثبت في سررة الإسراء أن من قتل مظلوماً قد جعل الدين لوليّه السلطان ونهاه أن يسرف في القتل وكان ولي الدم عند العرب أقرب عاصب الإنسان (ويتولاه الآن ذر الولاية العامة فهو الذي صار له الحق أن يقيم دعوى القصاص وغيرها لأن العصبية العربية لم بعد لها أثر) وبين في البقرة أن كتب القصاص في القتل وأن القصاص لا ينبغي أن يتجاوز القاتل فالحر يقتل بالحر ولا يقتل به غيره مهما تكن قيمة القاتل والعبد يقتل بالعبد ولا ينبغي أن يتجاوز ذلك إلى ساداته والأثني بالأثني ولا ينبغي أن يتجاوز ذلك إلى رجالها أو عصبتها ولم يمنع العفو من ثبت له الحق في القصاص وهو الولي وذكر الكتاب أن من الشرائع التي كتبها على قوم موسى القصاص فقال « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص »

أما الحدود فقد ذكرها ثلاثة ، الأول ، حد الزاني وقد جعله الكتاب مائة جلدة
، الثاني ، حد القذف وقد جعله الكتاب ثمانين جلدة وهذا الحدان في سورة النور
، الثالث ، حد السارق وقد جعله الكتاب قطع اليد ، الرابع ، حد قطاع الطريق
وهم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلهم الإمام أو يصلبهم
أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفيم من الأرض ، وقد ذكر الكتاب
تلك العقوبات على شكل التخيير . ولكن الفقهاء وزعواها على جرائم مختلفة وعلى كل
حال فإن الكتاب قال (فإن تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم)
وهذان الحدان في المائة

هذه جملة صغيرة من الظام الذي شرعه الله في هذا الدين ليكون أساساً لأعمال
المسلمين وقد قصدنا بذلك أن ترجعوا إلى هذا الكتاب لتوسعوا فيما أشرنا إليه
الدعوة ونتائجها

هاجر عليه السلام من مكة والذين دخلوا في دينه جمع من قريش ومن حلفائهم ومواليهم
وقليل غيرهم من سائر العرب ثم جماعة الأوس والخزرج من سكان يثرب وهم الذين
سموا بالانصار وكان الإسلام يعمهم لولا توقف عدد قليل منهم تشابهت عليهم الطرق
أو خافوا على سيادتهم أن يزيلها الإسلام فرفقوا وتبعهم فريق من لهم الرياسة عليه
إلا أنهم كانوا في الظاهر مشاركين المسلمين في الإسلام وأضروا خلاف ما أظهروا
فسامم المؤمنون باسم المفاقيين ، ويظهر لي أن هذا الاسم من المحدثات الدينية فإن
لم أرا العرب تستعمل النفاق بهذا المعنى قبل الإسلام وكان الرسول يترفق بهؤلاء الناس
حتى تخاف قلوبهم حتى أنه لمسامت عبدالله بن أبي بن سلول رأسهم صلى عليه وكفنه
في قبره له ونزل في قبره مع أنه كان سبياً عظيماً في مصائب كثيرة ولكن الرسول كان
يتألف قلوب القوم ويودّ لو يكون باطنهم كظواهرهم لأن في هذه قوة كبرى

ودخل في الإسلام قليل من يهود المدينة كعبدالله بن سلام ومن سار على رأيه : كان عليه
السلام يدعو الناس من سائر العرب يرسل إليهم الرسل ويكتب إليهم الكتب ولكن لم تكن
النتيجة كبيرة قبل أن ينهى الحال مع قريش ، ومما يزيد النردة عندهم أن الحرب كانت بين
الفريقين سجالاتاً فإن اتصر المسلمون بيدرقدا انتصرت قريش بأحد ولم يظهر المسلمون في
الحنديق بمظهر من يقدر على مساواة قريش والوقوف أمامها وجهاً لوجه كل ذلك

كان مما يجعل الدعوة في سائر العرب واقفة عند حد لا تتعداه

فلما كان صلح الحديبية أمن المسلمون شر قريش وما كانوا يتظاهرون به من الطعن في الدين الإسلامي فكان ذلك سبباً مهماً من أسباب النجاح لأن القرآن كان يهاجم عقولهم بأسلوبه البديع فيؤثر فيها وليس هناك ما يعارض هذا الأثر . حتى إذا فتحت مكة ودخلت قريش في الإسلام ثبت عند سائر العرب أن المسلمين لهم قوة تؤيدهم فإن الظفر ببيت الله الحرام واكتساب السيادة فيه أمر عظيم في نظر العرب لم يكن ينال إلا بمعونة من الله القادر الذي يعبده كل منهم فلانت شكيمتهم بعد الإباء وشرعوا يفدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أفواجا قد دانوا بالإسلام ورضوا بما يوجبه عليهم من الفرائض العملية والمالية وتسمى السنة التاسعة سنة الوفود

فمن وفد عليه ثقيف . بعد أن انصرف عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون رأوا أن الإسلام عمٌّ من بجانهم فأرسلوا عنهم وفداً يبائع الرسول على الإسلام وفي مقدمة الوفد عبد ياليل بن عمرو فلما قدموا عليه ضرب لهم قبة في ناحية مسجده ثم حادثوه فيما يريدون من الإسلام وطلبوا منه أشياء أبأها عليهم وأشياء أعطاهم ليأها طلبوا إليه أن يعفيهم من الصلاة فقال لا خير في دين لا صلاة فيه وطلبوا منه أن لا يكسروا أو ثأنهم بأيديهم فأعفاهم من ذلك وبعث معهم أباسفيان بن حرب والمغيرة ابن شعبة لهدم طاغيتهم (اللات) وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص منهم وكان أحدثهم سنأ لأنه كان أعلمهم وأوصاه قبل رحيله بقوله يا عثمان تجاوز في الصلاة وأقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف رذا الحاجة وكانت ثقيف من أصدق القبائل إسلاماً ومن وفد عليه بنو تميم وفد عليه أشرافهم منهم عطار بن حاجب بن زرارة والاقرع ابن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهم وقيس بن عاصم ولما قدم هذا الوفد إلى المسجد نادوا من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد . وفيهم نزل أول سورة الحجرات ولما خرج عليه السلام استأذنه لخطيبهم أن يتكلم فخطب مفتخراً بقرمه وعشيرته فأجابه علي خطبته قيس بن شماس خطيب المسلمين وقد أثنى في خطبته على المهاجرين والأنصار ثناء دينياً ثم قام شاعرهم فألقى كلمة يفتخر - وأولها

نحن الكرام فلا حتى يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع

فقام حسان بن ثابت شاعر المسلمين وأجابهم بقصيدة ربما كانت أحسن ما قال حسان وأولها

إن الذوائب من فخر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريره تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوم أو حاولوا النفع في أشياءهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
ولما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس وأبي إن هذا الرجل لما وقى له لخطيبه أخطب
من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولاصواتهم أحلى من أصواتنا ولما فرغ القوم
أسلوا وأجازهم عليه السلام

ومن وفد من قيس : بنوعامر فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وكان بنوعامر
قالوا لابن الطفيل يا عامر إن الناس قد أسلوا فأسلم قال والله لقد كنت آليت أن
لا أتهمي حتى تتبع العرب عقبي أفأنا أتبع هذا الفتى من قريش ؟ ثم سار اليها مضمرا
غدرا فلم يفز برغبته ولم يسلم ومات بالطاعون وهو عائد

وقدم عليه وفد بني سعد بن بكر وكان وافدهم ضمام برثعلبة وكان رجلا جلدا أشعر
ذا غديرتين فلما دخل المسجد والرسول بين أصحابه قال أيكم ابن عبدالمطلب فقال عليه
السلام أنا ابن عبدالمطلب قال أحمد قال نعم قال يا ابن عبدالمطلب إنى سأتلك ومغاظ
عليك في المسئلة فلا تجدن علي في نفسك قال لا أجد في نفسي فسئل عما بدالك قال أنشدك
الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آله بعثك اليا رسولا ؟ قال
اللهم نعم قال فأنشدك الله الخ آله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك
به شيئا وأن نخضع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال اللهم نعم قال
فأنشدك الله الخ آله أمرك أن تصلى هذه الصلوات الخمس ؟ قال اللهم نعم ثم جعل
يذكر فرائض الإسلام فريضة الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها
حتى إذا فرغ قال فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وسأؤدى
هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنتقص ؛ ثم خرج حتى أتى قومه
فما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما بعد أن علمهم
الإسلام وشرائعه

ومن وفد عليه من ربيعة بنو عبد القيس رئيسهم الجارود بن بشر بن المعلى وكان
نصرانيا فأسلم هو ومن معه وكان الجارود من أشد الناس تمسكا بالإسلام

ومن وفد عليه من ربيعة بنو حنيفة ، ومنهم مسيلة بن حنيفة الذي لقب بالكذاب
لادعائه النبوة بدموت الرسول صلى الله عليه وسلم فأسلوا وأجازهم الرسول ولما عادوا
إلى بلادهم ارتد مسيلة وأدعى النبوة وصار يسجع لهم أسجاعا يحاكي بها القرآن
ومن وفد عليه من قحطان زيد الخيل يقدم وفد طيء فأسلموا وحسن إسلامهم وقال
عليه السلام في زيد ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيت دون ما قبل فيه
إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه ثم سماه زيد الخير وأقطعه فبدأ وأرضين معه ، ثم
وفد عليه من طيء عدى بن جاتم الطائي فأسلم وحسن إسلامه والسبب في وفادته أخته
ثم أقبل عليه وفود من مراد وزيدة وكندة وقدمت عليه رسل ملوك حير بإسلامهم
وهم الحارث بن عبد كلال وأخوه نعيم والنعمان قبل ذى رعين ومغافروهمدان وبعث إليه
زرعة ذويزن مالك بن مرة الرهاوى بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله فكتب إليهم
الرسول عليه السلام كتابا يبين لهم فيه فريضة الزكاة وأرسل مع الكتب رسلا من أصحابه
يفقهون الناس في الدين

ومن كتب إليه بإسلامه فروة بن عمرو الجذامى وكان عاملا للروم على من يليهم
من العرب ، وكان منزله معان من أرض الشام فلما بلغ الروم إسلامه أخذوه فحبسوه
ثم قتلوه ولما قدموه ليقتل قال

بلغ سراة المسلمين بأنتى سلم لربي أعظمى ومقامى

ثم تدم عليه وفد بنو الحارث بن كعب مع خالد بن الوليد مسلمين ولما سألم عليه
السلام بهم كنتم تغابون من قاتلكم في الجاهلية ؟ قالوا له كنا نجتمع ولا نفرق ولا نبدأ
أحدا بظلم ثم قدم عليه رفاعة بن زيد الجذامى وافداً عن قومه وقدم وفد همدان
يتقدمهم ذوالمشار المكنى بأبي ثور

وهكذا دخل الناس في الدين أفواجا حتى كان رسول الله في حجة الوداع آخر سنة
هشر من الهجرة أكثر من مئة ألف كلهم دانوا بهذا الدين في حياته صلى الله عليه
وسلم والذين لم يكونوا معه في هذه الحجة أكثر منهم أضعافا مضاعفة إلا أنه لا يمكننا
القول إن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم لأنه كان في وسطهم كثير من
الاعراب الجفاة الذين أسلموا تبعاً لآساداتهم ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد ما تأصل
فيها من الميل إلى الغارات ولم تكن تعاليم الإسلام قد هدبت أنفسهم تمام التهذيب

وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة «الاهراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم» (ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم) وقد أتى على آخرين منهم فقال «ومن الاهراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم»

أما الحاضرون منهم في المدينة ومكة وثيف وكثير من اليمن والبحرين فقد كان الاسلام فيهم قويا ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين ولما كانت رسالة محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم عامة بنص القرآن لم يقتصر في دعوته على الجزيرة العربية بل أرسل كتبه ودعائه إلى الملوك ورؤساء الأمم إلى الدين حتى لا يكونوا ممن يصد عن الاسلام أو يقف في سبيل دعوته ومعلوم بالبداهة أن الدعوة في تلك الأزمنة وتلك الحكومات لا بد أن تبدأ بالكبراء وذوى الزعامة لأنهم لا يمكن أن يتركوا لداعية حرية إذا كانوا مخالفين له

اختار من أصحابه رسلا لهم معرفة وخبرة وأرسلهم إلى الملوك فاختر دحية بن خليفة الكلبي رسولا إلى ملك الروم وكتب له كتابا هذائمه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم : السلام على من اتبع الهدى . أما بعد أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك)

ونقل هنا مارواه ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب قال كنا قوما تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى أنهكت أموالنا فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله لم نأمن أن لانجد أمنا فخرجت في نفر من قريش تجاراً إلى الشام وكان وجه متجرنا منها غزاة فقدمتاها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس وأخرجهم منها وانتزع له منهم صليبه الأعظم . وكانوا قد استلبوه إياه . فلما بلغ ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ له وكانت حصص منزله خرج منها يمشى على قدميه متشكراً لله حين ردّ عليه ماورد ليصلى في بيت المقدس تبسط له البسط وتلقى عليه الرياحين فلما انتهى إلى إيليا وقضى فيها صلواته ومعه بطارقه وأشرف الروم أصبح ذات غداة مهموما يقرب طرفه إلى السماء فقال له بطارقه والله لقد أصبحت أيها

الملك الغداة مهموما قال أجل رأيت في هذه الليلة أن ملك الحثان ظاهر قالوا له أيها الملك ما نعلم أمة تختن لإيهود وهم في سلطانك وتحت يدك فابعث إلى كل من لك عليه سلطان في بلادك فره فليضرب أعناق كل من تحت يديه من يهود واسرح من هذا اللهم فوالله إنهم لفي ذلك من رأيهم يدبرونه إذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده وكانت الملوك تهادى الأخبار بينها فقال أيها الملك إن هذا الرجل من العرب من أهل الشام والإبل يحدث عن أمر حدث ببلادته عجب فسله عنه

فلما انتهى به إلى هرقل رسول صاحب بصرى قال هرقل لترجمانه سله ما كان هذا الحدث الذي كان ببلادته فسأله فقال خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي قد أتبعه ناس وصدقوه وخالفه ناس وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة فتركنهم على ذلك فلما أخبر الخبر قال جزديره فإذا هو مختور فقال هرقل هذا والله الذي رأيت لاماتقولون أعطوه ثوبه ثم قال لصاحب شرطته قلب لي الشام ظهراً وبطاحتي تأتيني برجل من قوم هذا الرجل قال أبو سفيان فوالله إننا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته فقال أنتم من قوم هذا الرجل الذي بالحجاز قلنا نعم قال انطلقوا بنا إلى الملك فانطلقنا معه فلما انتهينا إليه قال أنتم من رمل هذا الرجل قلنا نعم قال أيكم أمس به رحما قال أبو سفيان أنا فقال ادنه ادنه فأقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي ثم قال إني سأسأله فإن كذب فردوا عليه فوالله لو كذبت ما ردوا عليّ ولكني كنت امرأ سدياً أتكرّم عن الكذب وعرفت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذتته أن يحفظوا عليّ ذلك ثم يحدثوا به عني فلم أكذبه فقال أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعى ما يدعى لـ لجملت أزهد له شأنه وأصغر له أمره أقول له أيها الملك ما همك من أمره إن شأنه دون ما يلغك لجمل لا يلتفت إلى ذلك ثم قال أنبئني عما سألك عنه من شأنه كيف نسبه فيكم قلت محض أو سطنا نسبا قال هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقوله فهو يتشبه به قلت لا قال فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه لرياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه قلت لا قال فأخبرني عن أتباعه منكم من هم قال قلت الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء وأما ذروا الأستان والشرف من قومه فلم يتبعه منه أحد قال فأخبرني عن تبعه أيحبه ويلزمه أم بقلبه ويفارقه قلت ماتعه رجل ففارقه قال فأخبرني كيف الحرب بينكم وبينه قلت سجال يدال علينا وندال عليه قال هل يغدر فلم أجد شيئاً لما سألتني عنه أغمره فيه غيرها قلت لا ونحن منه في هدنة ولا أمن

غدره فوالله ما التفت إليهم ثم كثر على الحديث قال سألتك كيف نسبة فيكم فرعمت أنه محض من أوسطكم نسبا وكذلك يأخذ الله النبي إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسبا وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول قوله فهو يتشبه به فرعمت أن لا وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه فرعمت أن لا وسألتك عن أتباعه فرعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان وسألتك عن يتبعه أحببه ويلزمه أم يقلبه ويفارقه فرعمت أن لا يتبعه أحد يفارقه وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلبا فتخرج منه وسألتك هل يغدر فرعمت أن لا فلئن كنت صدقتني ليغلبني على ماتحت قدمي هاتين ولوددت أني عنده فأغسل قدميه انطلق لسألتك قال فقامت من عنده وأنا أضرب إحدى يدي على الأخرى وأقول أي عباد الله لقد أمر أمر ابن أبي كبشة أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه في سلطانهم بالشام . وقد قدم عليه إذ ذاك دحية بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما ترجمه لقبصر جمع بطارقه و عرض عليهم الكتاب واستشارهم في اتباعه فأظهروا كراهة ذلك ولمسأرى فقورهم قال إنما قلت ما قلت لأختبر صلابتكم في دينكم ومن هنا نفهم السبب في احتشاد الروم والعرب لمحاربة المسلمين حينما بلغهم مجيء زيد بن حارثة ومن تبعه وكانت وقعة مؤتة . كأنهم أرادوا أن يسأصلوا الأمر قبل استفحاله

وبعث عليه السلام شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمه إلى المنذر بن الحارث ابن أبي شمر الغساني صاحب دمشق وكتب إليه (سلام على من أتبع الهدى وآمن بي إني أدعوك إلى ارتؤ من بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك) ولما وصله الكتاب قال من ينزع ملكي مني أنا سائر إليه ولم يسلم

وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي بكتاب بدعوه فيه إلى الإسلام ويطلب منه أن يرسل جعفر أ ومن معه من مهاجري الحبشة ففعل النجاشي ما طلب منه فأرسل جعفر أ وأجاب إلى الإسلام كما أعلن بكتابه ولما بلغ الرسول وفاته صلى عليه بالمدينة

وبعث عبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى ومعه كتاب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من أتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا أسلم تسلم فإن آيت قائما عليك إثم الجوس) فزق كسرى كتابه ولما بلغ ذلك الرسول صلى الله عليه

وسلم قال مزق الله ما بك ثم كتب كسرى إلى باذان عام له على اليمن ابعت إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلد بن فليأتياني به فاختر باذان رجلين من عنده بكتاب إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معه إلى كسرى فلما قدما المدينة وقابل النبي صلى الله عليه وسلم قال أحدهما إن شاهنشاها ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثني إليك لتتطابق معي وقالوا قولنا تهدينا في ذلك الوقت كان شيرويه بن كسرى قد قام على أبيه فقتله وأخذ الملك لنفسه وعلم رسول الله الخبر من الوحي فأخبرهما بذلك فقالا هل تدري ما تقول إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا أفنكتب هذا منك ونخبره الملك قال نعم أخبراه ذلك عنى وقولاله إن ديني وساطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي إلى منتهى الخف والحافر وقولاله إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك وما سكتك على قوهك من الأبناء فخرجان عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه وقال له شيرويه في كتابه انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبي إليك فلا تمجه حتى يأتيك أمرى وكان ذلك سببا في إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن وهم الأبناء

وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم مصر فلم يسلم ولم يبعث وهو الذي بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشارية القبطية أم إبراهيم فكان بذلك الرحم التي بين العرب وأهل مصر

وبعث سليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي الحنفي وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين وعمرو بن العاص إلى جيفر وأخيه عباد الأزديين بذلك كان عليه السلام قد بلغ الدعوة إلى أكثر ملوك الأرض يعلنهم بدهوته ويطلب منهم اتباعه وكان هذا الإعلان سببا في إجابة بهض وشاغلا لفكرة الآخرين فلم يلحق بربه إلا ومعظم الجزيرة العربية قد اتبعته وانقادت لدينه وفي غيرها عرف اسمه ودينه وعلم به الرقوس والسادات

المحاضرة السابعة عشرة

صفة الرسول وأخلاقه وبيته - ختام القرآن - الوفاة

صفته وأخلاقه وبيته

ومما كان سبباً كبيراً في نجاح الدعوة الإسلامية على يدي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما امتاز به من جمال خلقه وكمال خلقه وقد كان بعض المدعوين لا يحتاج إلى دليل على صدقه فوق ما هو معروف عنه من الفضائل فقد قالت له خديجة - حينما أخبرها بأمره أول مرة - ما كان الله ليخزيك أبداً إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق . الأخلاق الفاضلة في الداعي ملاك أمره كله ألا ترى الله سبحانه يقول (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) وهذا واضح فإنه يستحيل أن ينال بالشدة قلب ، لهذا رأينا أن نوضح لكم ما كان عليه الرسول من الأخلاق والعادات حسبما اتصل اليها

الظافة الظاهرة - مما يروى عنه عليه السلام : بنى الدين على الظافة ، وكان قد خص من الظافة بما لم يكن لغيره وكان يحب الطيب حتى إنه لم يكن يمر في طريق فيدبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيبه وكان يصافح المصافح فيظل يومه يجدر يمجها العقل والذكاء - لا مرية أنه عليه السلام كان أعقل الناس وأذكاهم

ومن تأمل تديره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته العامة والخاصة فضلاً عما أفاده من العلم وقزره من الشرع دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب لم يشك في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهية ساس تلك الأمة الجافية حتى كان أحب إلى أفرادها من آباءهم وأبائهم وفدوه بأنفسهم وذلك محتاج - بعد معونة الله وتوفيقه - إلى أكل عقل وأرجحه

فصاحة اللسان وبلاغة القول - كان عليه السلام من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل ، سلاسة طبع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلم أوتي جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم السنة العرب يخاطب كل قبيلة بلسانها

ويحاورها بليتها ليس كلامه مع قريش والانصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع
ذى المشعار المزداني وطهفة النهدي وغيرهما من قحطان وقد كتب كثير من المؤرخين
في المأثور من كلامه الجامع ومنه مالا يوازي فصاحة ولا يبارى بلاغة نحو قوله
(لاخير في صحبة من لا يرى لك ماترى له - الناس معادن - ماهلك امرؤ عرف قدره
المستشار مؤتمن وهو بالخيار مالم يتكلم - رحم الله عبداً قال خيراً فغتم أو سكت فسلم
إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى يجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً
الذين يآلفون ويؤلفون - ذو الوجهين لا يكون وجيهاً عند الله - اتق الله حيثما كنت
وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخفاق حسن - الظلم ظلمات يوم القيامة) وهذا
قليل من كثير . قال له أصحابه يوماً ما رأينا الذي هو أفصح منك قال وما يمنعني وإنما
أنزل القرآن بلساني لسان عربي مبين وقال مرة أخرى أما أفصح العرب بيدأني من
قريش ونشأت في بني سعد لجمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة ألقاظ
الحاضرة وروثق كلامها إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي والحلم والاحتمال والعفو
هند المقدرة والصبر على المكروه صفات أدبه الله بها فقال (خذ العفو وأمر بالعرف
وأعرض عن الجاهلين) وقد بين له الوحي معناها بقوله أن تصل من قطعك وتعطي
من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال له (واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور)
وقال له (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وقال (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن
عزم الأمور) ولاخفاء بما يؤثر من حله واحتماله . كل حلیم قد عرفت منزلة وحفظت
عنه هفوة وهو لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً وهلى إسراف الجاهل إلا حلاً
قالت عائشة ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرين قط إلا اختار أيسرهما
مالم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه وما انتقم لنفسه إلا لإرانتك حرمة
الله فينتقم لله بها . ولما حصل له بأحد ما حصل قيل له لودعوت عليهم فقال إنى لم
أبعث لعانا ولكنى داعياً ورحمة اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون . فلم يقتصر على
السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم ولما قال له
الرجل اعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله لم يزد في جوابه أن بين له ما جهله
ووعظ نفسه وذكرها بما قال له فقال ويحك فمن يعدل إن لم أعدل خبت وخسرت إن لم أعدل
ونهى من أراد من أصحابه قتله . لم يؤخذ عبد الله بن أبيّ وأشباهه من المناققين بمعظم ما نقل عنهم

في جهته قولا وفعلابل قال لمن أشار بقتل بعضهم (لائلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) والحديث عن حله وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر من أن تأتي عليه وحسبك صبره على قسوة قريش وأذى الجاهلية ومصابرتة الشدائد الصعبة معهم فلما أظفـره الله عليهم وحكمه فيهم ما زاد على أن قال اذهبوا فأنتم الطلقاء أقول كما قال أخى يوسف لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . وكان عليه السلام أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا الجود والكرم - كان عليه السلام في هذا الخلق لا يبارى ، بهذا وصفه كل من عرفه . قال جابر : ما سئل عليه السلام عن شيء فقال لا . وقال ابن عباس : كان أجود الناس بالخير وأجود ما يكون في شهر رمضان وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة . وعن أنس أن رجلاً سأله فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى بلده وقال أسلوا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى فاقة وأعطى غير واحد مئة من الإبل وهذه كانت حاله قبل النبوة وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فما ردت سائلاً حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال ما عندي شيء ولكن اتبع عليّ فإذا جاء ما شئ قضينا فقال له عمر ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فـكره النبي ذلك فقال رجل من الأنصار يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقل لا فتيسم صلى الله عليه وسلم وعرف البشر في وجهه وقال بهذا أمرت

الشجاعة والنجدة - كان عليه السلام منهما بالمكان الذي لا يجهل حضر المواقف الصعبة وفتز عنه الكفار الأبطال غير مرة . وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح وما شجاع إلا وقد أحصيت له فترة وحفظت عنه جولة سواه . وقف يوم حنين على بغلته والناس يفترسون عنه وهو يقول أنا النبي لا كذب . أما ابن عبدالمطلب : فما روى أحد يومئذ كان أشد منه وكان إذا غضب لا يغضب إلا الله ولم يتم غضبه شيء وقال على كفا إذا حى البأس واحزرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس عرى والسيف في عنقه وهو يقول لن تراهوا

الحياء والإغضاء - كان عليه السلام أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء قال أبو سعيد كان عليه السلام أشد حياء من العذراء في خدرها وكان إذا كره شيئاً عرفناه

في وجهه وكان لطيف البشرة رقيق الظاهر لا يشافه أحداً بما يكره حياءً وكرم نفس وقالت عائشة : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا ولكن ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ينهى عنه ولا يسمى فاعله . وروى أنه كان من حياته لا يثبت بصره في وجه أحد وأنه يكنى عما اضطزه الكلام بإليه مما يكره .

حسن العشرة والادب بسط الخلق مع أصناف الخلق - قال علي في وصفه : كان عليه السلام أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة . وقال قيس بن سعد بن عبادَةَ زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أراد أن ينصرف قُرب له سعد حماراً وطأ عليه بمطيفة فركب ثم قال سعد يا قيس اصحب رسول الله قال قيس فقال له عليه السلام اركب فأبيت فقال إما أن تتركب وإما أن تنصرف فانصرفت وكان يؤلفهم ولا يفرم ويكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى أحد منهم بشره ولا خلقه ، يتفقد أصحابه ويعطى كل جلساته نصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً تكرم عليه منه من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ومن سأله حاجة لم يردّه إلا بها أو بميسور من القول قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لحم أبا وصاروا عنده في الحق سواء وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صنّاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤنس منه وكان يجيب من دعاه ويقبل الهدية ويكافئ عليها وقال أنس خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف قط ! وما قال لشيء صنعته لم صنعته ولا لشيء تركته لم تركته وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المرضى في أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس إليها إن أبي ويكنى أصحابه ويدهوم بأحب أسمائهم تكريماً لهم ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام ويروى أنه كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته فإذا فرغ عاد إلى صلاته وكان أكثر الناس تبسماً وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يخطب

الشفقة والرأفة والرحمة - وصفه الكتاب بذلك (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) . روى أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال أحسنت إليك يا أعرابي قال الأعرابي لا ولا أجلت . فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئاً ثم قال أحسنت إليك قال نعم لجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال له النبي صلى الله عليه وسلم إنك قلت ما قلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يديّ حتى يذهب ما في صدورهم عليك فلما كان العشي جاء فقال عليه السلام إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى كذلك ؟ قال الأعرابي نعم لجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليه السلام مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يردوها إلا نفوراً فناداهم صاحبها خلوا بيني وبين ناقتي فإنى أرفق بها منكم وأعلم فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردّها حتى جاءت واستناخت وشدّ عليها رحلها واستوى عليها وإنى لو تركتم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار وروى عنه عليه السلام أنه قال لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر . كان يسمع بكاء الصبي فيتجوّز في صلاته

الوقاء وحسن العهد وصلة الرحم - قال عبدالله بن أبي الحساء بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبعيت له ببقية فوعده أن آتية بها في مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فإذا هو في مكانه فقال يا فتى لقد شققت علىّ أنا مهنا منذ ثلاث أنتظرك . وقال أنس كان عليه السلام إذا أتى بهدية قال اذهبوا بها إلى بيت فلانة إنها كانت صديقة لخديجة إنها كانت تحب خديجة . دخلت عليه امرأة فوش لها وأحسن السؤال فيها فلما خرجت قال إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وكان يصل ذو رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم وقال إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء غير أن لهم رحماً مائة سأبلاها بيلاتها ولما قدم وفد النجاشي قام عليه السلام بنفسه يخدمهم فقال له أصحابه نحن نكفيك فقال إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإنى أحب أن أكافئهم . وكان يبعث إلى ثوية مولاة أبي لهب مرضعته بصلة وكسوة فلما ماتت سأله لبق من قرابتها أحد فقيل لا أحد

التواضع - كان عليه السلام أشد الناس تواضعا وأقلهم كبرا ، عن أبي أمانة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئا على عصا فقمنا له فقال لا تقوموا كما تقوم الأماجم يعظم بعضهم بعضا وكان يعود المساكين ويجالس الفقراء ويحبب دهوة العبد ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم حيثما انتهى به المجلس جلس وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب ورجع على رث وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم فقال اللهم اجعله حجا لارباب فيه ولا سمعة . هذا وقد أهدى في حجه ذلك مائة بدنة . ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كادت تمس قامته تواضعا لله تعالى . ومن تواضعه قوله لا تفضلوني على يونس بن متى ولا تفضلوا بين الأنبياء ولا تخيروني على موسى . ودخل عليه رجل فأصابته من هيبتة رعدة فقال له هون عليك فإنني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد

العدل والأمانة والعفة وصدق اللمجة - كان عليه السلام آمن الناس وأعلمهم وأعفهم وأصدقهم لهجة منذ كان اعترف له بذلك محاوروه وأعداؤه وكان يسمى قبل نبوته الأمين وقال الربيع بن خثيم كان يتحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية قبل الإسلام وروى عن علي أن أبا جهل قال له إننا لانكذبك ولكنك تكذب بما جئت به وفي ذلك قال الكتاب (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وسأل هرقل أبا سفيان فقال هل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال قال لا وقال النضر بن الحارث لقريش قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر ! لا والله ما هو بساحر . وفي حديث علي في وصفه أصدق الناس لهجة وعن الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ أحدا ولا يقرف أحدا ولا يصدق أحدا على أحد أي لا يسمع وشاية الواشين

وقال خارجة بن يزيد كان النبي صلى الله عليه وسلم أوقر الناس في مجلسه لا يكاد يخرج شيئا من أطرافه وكان كثير السكوت لا ينكلم في غير حاجة يعرض عن تكلم بغير جميل وكان ضحكة تبسها وكلامه فصلا لا فضول ولا تفصير وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيرا له واقتداء به ، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم إذاتكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤسهم الطير

وعلى الجملة فقد كان عليه السلام محلي بصفات الكمال أدبه ربه فأحسن تأديبه وقد أثنى عليه الكتاب فقال مخاطباً له (وإنك لعلى خلق عظيم) . وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس وحببه إلى القلوب وألان من شكيمة قومه بعد الإباء وجعلهم يدخلون في دين الله أفواجا مناصرين موازين ولو لم يكن له إلا ذلك مما يثبته التاريخ وتؤيده الحوادث لكان أعظم شاهد على صدقه فضلاً عما أيده الله به من المعجزات وقد أفاض القول فيها كتاب السير

البيت النبوي

كان البيت النبوي في مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه السلام ومن زوجه خديجة بنت خويلد الأسدية من قريش وهي أول من تزوجه من النساء ولم يتزوج غيرها في حياتها ، وقد كان له منها أبناء وبنات فأما الأبناء فلم يعيش منهم أحد فإنهم توفوا بمكة وهم القاسم الذي كان يكنى به عليه السلام وعبدالله الملقب بالطيب والظاهر . وأما البنات فكن أربعاً زينب ورقية وأُم كلثوم وفاطمة - فأما زينب فقد تزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس وهو على دينه واستمرت معه حتى هاجر عليه السلام وبقيت هي بمكة فلما كانت وقعة بدر وأسر أبو العاص أرسلت زينب في فدائه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ومالاً فلما رأى الرسول القلادة : رق لها رقة شديدة وقال إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا فرضى بذلك المسلمون وأخذ عليه السلام هداً على أبي العاص أن يترك زينب تهاجر فلما عاد أبو العاص إلى مكة سرح زينب حتى إذا كان قبل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام وكان رجلاً مأموناً بمال له وأموال لرجال من قريش أبضعوها معه فلما فرغ من تجارته جاد إلى مكة بعد خطب طويل ورد المال إلى أهله ثم عاد إلى المدينة مسلماً فردّ النبي صلى الله عليه وسلم إليه زوجه زينب ويقول المؤرخون إنه لم يحدث زواجا جديداً وإنما ذلك بالعقد الأول وأما رقية وأُم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان الواحدة بعد الأخرى وأما فاطمة فقد تزوجها علي بن أبي طالب ومنها كان الحسن والحسين وزينب وبعدهم خديجة تزوج عليه السلام بعدة زوجات كان يتألف منهن بيته بالمدينة

ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ممتازاً عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع

زوجات لاغراض كثيرة سببها بعد أن نذكرهن

كان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة منهن تسع مات عنهن واثنان توفيتا في حياته إحداهما خديجة واثنان لم يدخل بهما وهما سماؤهن

(١) سودة بنت زمعة بن الأسود من بني عامر بن لؤى من قريش وكانت قبله عند ابن عمها السكران بن عمرو

(٢) عائشة بنت أبي بكر الصديق وكانت بكراً ويقال إنها كانت وقت العقد عليها بنت ست سنين وبني عليها بعد الهجرة وهي بنت ثمان أو تسع وفي النفس شيء من تقدير هذه السن .

(٣) حفصة بنت عمر بن الخطاب وكانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمي

(٤) أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة من بني مخزوم وكانت قبله عند عبد الله بن جحش

(٥) وهؤلاء الخمس كلهن من قريش يضاف إليهن خديجة فتكون القرشيات ستاً من

هذه البطون - عبد مناف - أسد بن عبد العزى - مخزوم بن يقظة - تيم بن مرة - عدى بن كعب - عامر بن لؤى

(٦) زينب بنت جحش من بني أسد بن خزيمه ومن حلفاء بني أمية وهي بنت عمته

وكانت قبله تحت يد زيد بن حارثة الذي كان معتبراً ابناً للبي صلى الله عليه وسلم

وقد أرادت الشريعة هدم قاعدة التبني فأمر الرسول أن يتزوج زينب زوج زيد ليعلم

الناس أنه لم يعد للتبني حرمة وكان عليه السلام يخشى اعتراض أعدائه عليه لأن عمله

هذا يخالف ما طبقت عليه عادة العرب فأخفى في نفسه ما أمر به من هذا الزواج ولذلك

كان هناك في الخطاب نوع شدة (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك

عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه

فلما قضى زيد منها وطراً زوجناهما لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج

أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً) فبينت الآية أنه كان يقول

لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله وكان النزاع اشتد بينهما فأحب أن يفارقها

- وتخفى في نفسك ما الله مبديه وهو الأمر بتزوجها بعد أن يطلقها زيد وهذا هو

الذي أبدته الآية - وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه - تخشى الناس أن يعيروك

فيقولون تزوج زوج ابنه - ثم أبدى ما أمر به وهو قوله فلما قضى زيد منها وطراً

مزوجها كما وبين العلة في ذلك بما ذكر بعد . ولقد هدم قاعدة النبي قولاً كما هدمها
فملاً فقال (ادعوم لأبائهم هو أقسط عند الله) وقال (ما كان محمد أباً أحد من
رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)

(٧) جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة وهى التى عتق بسبب
زواجها من كان أسراً أو سبي من قومها وأسلم أبوها

(٨) ميمونة بنت الحارث من بنى هلال بن عامر بن صعصعة وكانت قبله عند أبي
رهم بن عبد العزى من بنى عامر بن لؤى

(٩) صفية بنت حيي بن أخطب من بنى إسرائيل ، وكانت قبله عند كنانة بن
أبي الحقيق وهؤلاء التسع من اللاتي توفى عنهن .

(١٠) زينب بنت خزيمة من بنى هلال بن عامر بن صعصعة وكانت تسمى أم
المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم وكانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب
ابن عبد مناف وهذه توفيت فى حياته

هؤلاء إحدى عشر سيدة تزوج بن الرسول وبنى بن منهن ست من قريش وخمس
من سائر العرب

وهناك اثنتان لم يبن بين . وتسرى بمارية القبطية التى أهداها له المقوقس فأولدها
ابنه ابراهيم الذى توفى صغيراً بالمدينة فى حياة أبيه وكان يقال لزوجاته أمهات المؤمنين
سماهن بذلك الكتاب فقال (وأزواجه أمهاتهم)

يظهر لنا أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم رأى فى أن يجمع فى نساء من
قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التأليف لعشائرهن فإن الصهر كان
عند العرب باباً من أبواب التقرب بين البطون المختلفة وقد كان زواجه بخديجة
وهو بمكة أكبر مساعداً له ومبعداً له أذى كثيراً من أعدائه فلما كان بالمدينة
صاهر أكبر القبائل من قريش وأقوى البطون من سائر العرب وبنى لإسرائيل وقد
كانت هناك ظروف خصوصية لبعض من تزوجهن كما فى جويرية وزينب وصفية
وكان لأمهات المؤمنين فضل كبير فى نقل أحواله المنزلية للناس خصوصاً من طالت
حياته منهن كما نشأه فإنها روت عنه كثيراً من أفعاله وأقواله وتجردون فى سورة
الأحزاب كثيراً من أحوال بيته وفيها يقول الكتاب (إنما يريد الله ليذهب عنكم

الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) ختام القرآن

أعلن القرآن أن نزوله قد انتهى في يوم الحج الأكبر من السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشهر حيث أنزل عليه (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) وكانت آياته قد مرتتبت وسوره قد تمت وكان هناك من أصحابه من يحفظه كله ومنهم من يحفظ بعضه وكانت آياته وسوره مكتوبة إلا أنها لم تجمع في مصحف واحد في حياته وقد تم ذلك في خلافة أبي بكر (راجع خطابنا الذي ألقيناه بنادي العلوم في سنة ١٩١٠ ونشر بصحيفة النادي في تلك السنة)

الوفاة

في أواخر صفر من السنة الحادية عشر ابتداء عليه السلام بشكواه وكان مرضه الحى فاستأذن نساءه أن يمرض في بيت عائشة فأذن له ولما رأى شدة المرض خرج إلى أصحابه فصعد المنبر وقال (يامعشر المهاجرين استوصوا بالانصار خيراً فإن الناس يزيدون وإن الانصار على هيئتها لا تزيد ولهم كانوا عيتى التى أويت اليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم) وأمر أبا بكر أن يصلى بالناس فصلى بهم مدة مرضه ولما كان يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ (٨ يونيو سنة ٦٣٢) لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى وقد أعلن الصحابة بوفاة أوبكر حيث قال لهم وهم مجتمعون أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلا هذه الآية (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين)

وحينذاك خرج أصحابه إلى سقيفة بني ساعدة يأترون فيمن يخلفه حتى بويع أوبكر فأقبلوا على جهازه عليه السلام يوم الثلاثاء فغسل في قيصره وكفن في ثلاثة أثواب ووضع على سريره ثم دخل الناس يصلون عليه أفراداً دخل الرجال أولاً ثم النساء ثم الصبيان وقد انتهوا من صلاتهم وسط ليلة الأربعاء وكان قد صنع له الحد في الموضع الذى مات فيه وهو صفة حجرة عائشة التى كانت فى الجهة الشرقية الشمالية من مسجده ودفن بها وكانت سنة عليه السلام ثلاثاً وستين سنة قرية

المحاضرة الثامنة عشر

- الخلافة -

الخلافة

قد كان للرسول صلى الله عليه وسلم وظيفتان يؤديهما لأمته (الأولى) التبليغ عن الله بحكم الرسالة التي اخبر ليقوم بأدائها فهو بذلك مشرع عن الله (الثانية) كونه إماما للمسلمين تجتمع إليه كلمتهم بوجههم إلى الخير ويبتعدون عن الشر وإليه القضاء في مشكلاتهم بحسب ما يوحى إليه من الشريعة ثم هو يقوم بتنفيذ تلك الأحكام والوظيفة الأولى انتهت بموته عليه السلام بعد تشريع ما أراد الله تشريعه فلم يكن بعد ذلك لاحد إلا البناء على قواعد تلك الشريعة والاستنباط من جملها وهذه الخلافة التشريعية إن ساغ لنا أن نسميها كذلك موعدنا بها الوقت المناسب لها والوظيفة الثانية هي التي اقتصصنا بها محاضرتنا هذه لم ير المسلمون بدأ من إقامة من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلافة المسلمين : ولم يوجد بين هذه الأمة شيء تشعبت فيه الآراء واختلفت الكلمة بمقدار ما كان منها في الخلافة ومدار البحث كان في أمرين (الأول) البيت الذي يكون منه الخليفة (الثاني) الشكل الذي به ينتخب الخليفة

بيت الخلافة

من المحقق أن الكتاب لم يشر أى إشارة إلى تعيين بيت أو بطن أو شعب يكون منه خليفة المسلمين وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فروى عنه (الأئمة من قریش) كما أثر عنه اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة لم يدفن النبي صلى الله عليه وسلم حتى كانت هناك قسطنطين (الأولى) عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت (الثانية) تخصيصها . وهذه الفكرة ذات شعبتين (الأولى) تخصيصها بالبيت القرشى على اختلاف بطونه (الثانية) تخصيصها بالقرابة القريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أقرب الناس إليه وقت موته من أعمامه العباس بن عبد المطلب ومن بنى عمه على وعقيل ابنا أبي طالب ويمتاز على من بينهم

بسبقة إلى الإسلام وشهوده مشاهد رسول الله وتزوجه بابنته فاطمة ويمتاز العباس بأنه العاصب الوحيد له إن كان هناك إرث رأى عدم التخصيص كان للأنصار فإتهم كانوا يريدون أن يكون الخليفة منهم لما كان لهم من فضيلة النصر والإيواء والمساعدات العظيمة التي قاموا بها وإن لم يتيسر ذلك كان منهم أمير ومن المهاجرين أمير وأخذ بهذا الرأي من بعدهم جميع الخوارج الذين كانوا يخرجون على الخلفاء في أزمنة مختلفة ومنهم من كان يتسمى بأمر المؤمنين كقطرى بن الفجاءة وإيس من قريش وإنما هو رجل من تميم وهو ولاء كانوا يرون أن القصد من إمامة المسلمين إنما هو توجيههم إلى الصلاح وإبعادهم عن الشر والسير فيهم بأوامر دينهم غير ناظرين في ذلك إلى بيت أو قبيلة بل إلى ما في الشخص من المقدرة والكفاءة ويستندون في رأيهم إلى قاعدة وضعها القرآن وهي (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

ورأى التخصيص بقريش كان في ذلك الوقت رأيا للجمهور لما رواه لهم أبو بكر من ذلك الحديث المتقدم ذكره وقد بين أبو بكر طرفا من هالة هذا التخصيص بقوله إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسه عليهم الخزرج وإن تولته الخزرج نفسه عليهم الأوس ولا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش . ومن هنا استنبط العلامة ابن خلدون إستنتاجه أن السر في تخصيص قريش بالخلافة إنما هو ما كان لهم من العصية والتقدم على سائر بطون العرب بهذا يعترف لهم الأساس ولا ينكره عليهم أحد فإذا كان الخليفة منهم لا ينتظر أن يعارضه أحد من القبائل الأخرى، مهما يكن قدره عظيما وبني على ذلك أنه لما كانت العلة هي العصية التي بها يكون اجتماع الكلمة وكانت عصية قريش جاء عليها وقت ظهر فيه ضعفها حتى لم تعد قادرة على حماية البيضة والدفاع عنها وكانت الشريعة مبنية على العدل والحكم في كل زمان بحسبه كان من الممكن أن تكون الخلافة في غير قريش ممن فيهم تلك القوة والعصية المجتمعمة ورأى التخصيص بالقرابة القريبة كان لعلي بن أبي طالب ومن شايعه وكان يرى نفسه أحق بالخلافة من سواه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صرح بذلك في حديث مع أبي بكر ولما لم يكن له مساعد يساعده على نيل ذلك الحق الذي وآه لنفسه أذعن لرأي الجمهور

مكث الرأي الاوسط سائداً والاخير خامداً لايجد له محركا حتى كان آخر عهد عثمان فقام بالحواضر الإسلامية دعاة له يذهبون الناس إليه ويقبحون من خالفه إذ كيف يحرم خلافة الرسول قرابته وهذا موضع من الأمة شديد الإحساس فسرعان ماتبه وقد كان تنبه سبياً لخطوب طويلة ومصائب عظيمة ذهب في سبيلها الخليفة الثالث عثمان بن عفان ومع هذا فلم يصف الامر للخليفة الرابع علي بن أبي طالب لأنه قام في وجهه نصف الأمة قادما إليه من الشمال غير متأثر من تلك الدعوة التي قصد منها إقرار الامر في نصابه من بيت النبوة وكان هناك تصادم بين الرأيين وقد غلبت القوة وإحسان السياسة رأى عدم التخصيص بالقرابة حيث انتهى الحال بظفر معاوية بن أبي سفيان بالخلافة وهو من بني أمية وايس من بني هاشم عادت فكرة الشيعة إلى الخرد ولكن السيوف وإن تكن تغلبت في الظاهر عليها فقد استكنت في النفوس تهيج وقتاً إذا لاح لها بارق الامل وتكن حيناً انتظاراً للمستقبل مازال أبناء علي يرون هذا الحق لهم إرثاً لا ينازعهم فيه إلا ظالم وتتنى قلوب شيعتهم أن ينالوا هذا الحق فيحملون الواحد منهم بعد الواحد على الخروج فيخرجون ثم تكون العاقبة قتلاً وتشيلاً إلا أن هذا الظفر كان مما يزيد النار تأججا والقلوب تأثراً لأنه كان يعطى الشيعة قوة يحركون بها القلوب ويبكون منها العيون فما كان أكثر ما يقولونه من الشعر المأثور في تمثيل الحسين معفرأبدمائه بكر بلاه بعد أن أذيق من العطش الكروب وأهل بيته يساقون سبايا إلى قاعدة ملك الظالمين ثم تمثيل من بعده ممن خرجوا على بني أمية حتى ينفاد الناس إلى من يدعهم للقيام إلى ردة الحق لاهله لم يكن أحد من الناس يفاضل بين بني علي وبني العباس في استحقاق الخلافة بل كان بنوع علي يرون الحق لهم خالصاً لما لا يهيم من الامتيازات الكثيرة ولكن بني العباس جدت عدم فكرة الدعوة إلى أنفسهم بعد وفاة أبي هاشم بن محمد بن علي عن غير عقب فزعموا أنه أدلى بالامر إلى محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس مع إضافتهم إلى ذلك أن العباس أولى بميراث رسول الله من عليّ لأن الاوّل عم والثاني ابن عم فاشتغلوا في الامر بمهارة حيث كان لهم دعاة يدعون الناس اليهم سرأ في دولة بني أمية واتصل بهم ذلك الزعيم المقدم أبو مسلم الخراساني فتم لهم الامر ورد اليهم الخلافة بعد أن أسقط بني أمية من تلك العروش السامية ومن المؤكد أنه كان يدعو الناس إلى الرضا

من أهل البيت ولا يصرح باسمه ولا ينسبه مما يدل على أن الأمة كان توجهها إلى علي وأهل بيته أكثر من توجهها إلى بني العباس فلما تم له الأمر أعلن اسم هبة الله السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس

عاد الاصطدام حينئذ بين البيت العلوي والعباسي ، فكان نصيب آل علي في خلافة بني هاشم أشد وأفسى مما لا قوة في عهد خصومهم من بني أمية فقتلوا وشردوا كل مشرد ، وخصوصا في زمن المنصور والرشيد والمتوكل من بني العباس وكان اتهام شخص في هذه الدولة بالميل إلى واحد من بني علي كافيا لاتلاف نفسه ومصادرة ماله وقد حصل ذلك فعلا لبعض الوزراء وغيرهم

إلا أن ذلك كله لم يذهب بفكرة استحقاق علي وأهل بيته للخلافة وأنهم قد ظلموا وسلب حقهم فصاروا يخرجون علي بن العباس كما كانوا يخرجون علي بن أمية والعاقبة القتل والتشريد : وحينئذ بدت لبعضهم فكرة الخروج إلى أرض لاتألفها قوة العباسيين ومن بقي منهم بالشرق سكت على ما في نفسه

ذهب الفاروق إلى أفريقية بعد أن سبقهم دعائهم فأسسوا بها دولة علوية لها ير ذكر في التاريخ كالدولة الفاطمية ودولة الأدارسة وغيرها من سياقي ذكرهم بعد والباقون بالشرق كانت لهم شيعة تكرمهم وتميل إليهم في السر حتى كان شيء من ذلك فيما يقال سببا من أسباب سقوط الدولة العباسية فإن ابن العلقمي وزير المستعصم كان من غلاة الشيعة فساعد على مجيء النستر إلى بغداد وهم الذين أزالوا الخلافة العباسية من بغداد وكان أعظم سلطان إذ ذاك في الممالك الإسلامية - لمصر وملوكها فساعدوا على إعادة الخلافة العباسية ليستمدوا منها العهد إليهم حتى يكون سلطانهم مقبولا لا يتكلم الناس فيه وجاءت على أثرهم الدولة العثمانية فاستمدت من آخر خلفائهم بمصر عهد الخلافة

هذا كان شأن الاختلاف في البيت الذي يكون منه خليفة المسلمين شكل الانتخاب لم يرد في الكتاب أمر صريح بشكل انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم إلاتك الأوامر العامة التي تناول الخلافة وغيرها مثل وصف المسلمين بقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) وكذلك لم يرد في السنة بيان نظام خاص لاتنخاب الخليفة إلا لبعض نصاب تبعد عن الاختلاف والتفرق كأن الشريعة أرادت أن تكمل هذا

الامر المسلمين حتى يحلوه بأنفسهم ولولم يكن الامر كذلك لماهدت قواعده وأوضحت سبله كما أوضحت سبل الصلاة والصيام وغيرهما . ولتنظر ما صار عليه المسلمون في ذلك وهامى طرائقهم

(١) الطريقة الأولى : طريقة الانتخاب الاستشارية وقد حصلت في انتخاب أبي بكر حيث اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة بالمدينة وتشاوروا في الأمر ثم انتخبوا أبا بكر - بعد حوار وجدال - ولكن انتخاب أبي بكر كان أمراً يحتاج إلى السرعة في البت - حذر الاختلاف والفشل ويظهر أن المجتمعين في السقيفة لم يكن فيهم أحدهم قریش يتطاع للخلافة دون أبي بكر أول رجل سبق إلى الإسلام وحضر المشاهد النبوية بأسرها ورافق رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فضلاً عما عرفه الصحابة من تقديم الرسول إياه ليصلي بالناس نيابة عنه في وقت مرضه ولذلك لما اقترح أبو بكر أن يكون الخليفة واحداً من اثنين عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة عامر بن الجراح أراد عمر أن ينهى الأمر بسرعة فتدّيه إلى أبي بكر فبايعه الناس وقد أثر عن عمر أنه قال عن بيعة أبي بكر كانت فلفة وفي الله شرها قال ذلك لما علم أن بعض الناس قال لو أن أمير المؤمنين مات لبايعت فلانا : مضت هذه البيعة من غير أن يتبين للناس البيعة التي لها الحق في انتخاب الخليفة إلا أنها سفت الانتخاب من حيث هو

(٢) الطريقة الثانية : أن يعهد الخليفة الموجود إلى شخص آخر بعده الخلافة وهي الطريقة التي كان بها انتخاب عمر بن الخطاب حيث اختاره أبو بكر وقد قال لاس هل رضيت من اخترته فقالوا نعم . وهذه الطريقة تجعل للخليفة الحزبية في انتخاب ولي عهده من غير قيد

(٣) الطريقة الثالثة : طريقة الاختيار الشورى من أفراد يعينهم الخليفة الموجود وهي الطريقة التي انتخب بها عثمان بن عفان فإن عمر لما ضرب وأحسّ بالموت خاف أن يترك المسلمين بدون خليفة لئلا يختلفوا ولم يكن أمام نظره من لو استخلفه يكون مطمئن النفس من قبله فلم يشأ أن يتحمل أمر المسلمين حياً وميتاً فاخترسته من كبار الصحابة ومن يرى أنه لا يتطلع لأمر الخلافة غيرهم ووضع لهم نظاماً ينتخبون به الخليفة من بينهم فأمر أن يجتمعوا بعد وفاته في حجرة عائشة ويختاروا الخليفة في مدة لا تزيد على ثلاثة أيام وجعل للأغلبية الرأي المقبول فيجب على الأقل الرضوخ لحكمها

ولإلا اعتبر خارجاً يستحق القتل وإذا تساوت الأصوات كان القسم الذي فيه عبد الرحمن ابن صوف مرجحاً

وهذه الطريقة كانت بذرة صالحة لو وجدت منبثاً حسناً ولكننا لم نر في مستقبل الأمة من تناولها فضلاً عن أن يحسن فيها : لا يشكر أنها طريقة شورية ناقصة لأنه لم يكن للتصديق منها أخذ رأى الجمهور فيمن يكون خليفة عليهم وإنما المقصود أن تؤخذ كلمة المرشحين للخلافة لأحدهم حتى لا يجد محبوا الخلافة مجالاً للخلاف ويظهر لنا أن عمر كان محسباً بأن كلا منهم يتطلع لأن يكون خليفة وخاف على الأمة الشقاق من بعده فعهد إليهم وعده ويظن أن هذه الفكرة لم تكن عنده بنت وقتها بل كان يفكر في ذلك من قبل بعد أن سمع عبارة الرجل التي سبق ذكرها

لم يكن في طريقة من هذه الطرق الثلاث حل لتلك المسألة المتشابهة الأطراف لأن الطريقة الأولى لم يبين فيها من لهم حق الانتخاب الذين يكون صوتهم محترماً أم الأمة بأسرها ؟ أم هم أفراد مخصصون ؟ وإن كانوا مخصصين فمن هم ؟ وغاية ما يمكن شراح هذه القاعدة أن يقولوه أن قالوا هم أهل الحل والعقد ، ولكن من هم أهل الحل والعقد ؟ أم ولاية الأوصياء أم قواد الجيش أم أعيان الأمة ؟ كل ذلك لم يبين فالتطلع للخلافة يجد مجالاً واسعاً للتأويل كما حصل عند استخلاف عليّ . والطريقة الثانية وهي طريقة العهد ايس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس ويكون قادراً على حماية مصالحها وإن يكن من الممكن في بعض الأحيان أن يكون الشخص المختار لولاية العهد خير الناس كما حصل في انتخاب عمر بن الخطاب وعمر ابن عبدالعزيز والطريقة الثالثة - في حقيقة الأمر - كالتانية إذا اقتصر فيها على الشكل الذي رآه عمر لأنها عبارة عن عهد إلى واحد غير معين من أفراد محصورين يختارهم الإمام لذلك لما جاء دور عليّ قام جماعة من أهل المدينة والثوار من الآفاق فبايعوه بالخلافة وهو بالمدينة ولم يؤخذ في ذلك رأى غيرهم من المسلمين في الحواضر الإسلامية كان أهل المدينة - وخدمهم - هم الذين ينتهى إليهم أمر انتخاب الخلفاء وليس لغيرهم معه رأى ولو كانوا من أهل الحل والعقد في الأمة متى كانوا بعينين عن الحاضرة الكبرى : كان عن يترقب الخلافة ويرى نفسه لها أهلاً معاوية بن أبي سفيان فقام بأهل الشام معلناً أنه مخالف لأن بيعة عليّ ليست بصحيحة وحصل اصطدام بين

الطرفين في سهل صفين فلما عضتهم الحرب بناها عمدوا إلى شيء سموه تحكيما ومعنى ذلك أنهم اتخبوا رجلين من كل فريق أحدهما له هوى في صاحبه وأريد منهما أن يحكما في أهم مشكلة تهم الأمة الإسلامية بأسرها ومن المؤكد أن سلطة الحكيم لم تكن محدودة لأنهما لم يقتصر في البحث على الحكم بين الشخصين المتنازعين بل تجاوزا ذلك إلى البحث في خلعهما معاً وتولية شخص آخر وبطبيعة الحال لم يكن لهذا التحكيم نتيجة شأن كل شيء لم يوضع له أساس ولا حدود ولكنه أوجد للتنازهين خصماً ثالثاً قوى الشكيمة وهم الخوارج الذين رأوا هذا التحكيم ضلالة بل مروفاً من الدين منادين بشعار اتخذوه لهم وهو لا حكم إلا لله وهبارتهم تشعر أن الخليفة المختار معين من قبل الله فلا ينبغي له أن يكون في شك من أمره ولما كان على هو الخليفة وحكم الناس في أمره فقد شك ومن شك ضل فلم يعد يصلح في نظرهم للخلافة وكذلك معاوية لما تعرض لما ليس له بحق ضل فليس للخلافة بأهل وكذلك كونوا لهم جماعة أعطروا الحق في أن تنتخب لنفسها خليفة يكون بانتخاب ورأوا أن جميع مخالفهم كفار فاستباحوا دماءهم وأموالهم وهؤلاء لم يضروا لأمرهم حدوداً مقررة لذلك تطرق إليهم الاختلاف كما تفرق غيرهم وطاردتهم الخلفاء بما عندهم من القوة حتى لم يكن منهم فائدة لأنفسهم ولا لغيرهم بل كان منهم الضرر الشامل والعتن الحاصدة انتهى أمر على واستقر الأمر لمعاوية بفضل قوته وسياسته ويسميه التاريخ بالخليفة المتغلب وفي نظرنا أن خلافته وبيعته لم تنقص في الشكل عن بيعته على بقطع النظر عن التعرض لما في كل منهما من الصفات والامتيازات الدينية لأن معاوية بايعه فريق من الناس وعلى بايعه فريق آخر ومن الضروري أن يتغلب أقوى المتنازعين وليس هناك حدود معينة في الشريعة يقال أن أحدهما تعداها إلا إن سرناعلى رأى من يقول إن علياً معين للخلافة بالنص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أمر لم يتأ كد الصحابة من صحته

سار بنو أمية من معاوية فمن درنه في ولاية العهد على أن الخليفة هو الذي يعينه كما هي طريقة أبي بكر في عهده لعمر إلا أن بينهما فرقا هو أن أبا بكر اختار رجلاً ليس من ذوى قرابته بل من بطن آخر وبنو أمية كانوا يتخيرون من قرابتهم وكانوا في الغالب أولادهم حتى تكون بذلك دولة من بيت واحد فمعاوية عهد إلى ولده يزيد ولكنه امتاز

في عهده بأن طلب من ولاية الامصار أن يوفدوا إليه وفوداً من أمصارهم يعرض عليهم اختيار ولى عهده وبالطبع لم يوفد هؤلاء الولاية إلا من لهم هوى في بقاء الامر في عقب معاوية فلما اجتمعوا لديه بدمشق عرض عليهم الامر ، وأنه يخاف اختلاف المسلمين من بعده وطلب منهم أن يختاروا لأنفسهم فرشحوا ابنه يزيد للأمر بعد أن تكلم متكلموهم بالثناء عليه وكان البادئون بذلك قوما لهم علم بما عزم الخليفة عليه وتابعهم على ذلك غيرهم وبهذا أخذ اعترافهم قبل موته بيزيد وبايعوه بولاية العهد إلا أنه كان هناك من هو أكبر من يزيد ، من كبار الصحابة من قريش ولهم فوقه شرف الصفة فلم يخضعوا لإرادة معاوية وكان من نتيجة هذا تلك الحوادث الكبرى التي حصلت في عهد يزيد من خروج الحسين بن علي وقتله وخلاف ابن الزبير

وعهد يزيد إلى ابنه معاوية إلا أن الرجل لم يقدر على تحمل ذلك للعبء في وسط هذه الظلمات الخالكة فاعتزل وترك جبل الأمة على غاربها وفي تلك الظروف كانت الفتن تموج موجاً حتى استقر الأمر بغلب مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الذي عهده بالخلافة من بعده لاثني من أولاده يتلو أحدهما الآخر وهما عبد المطلب وعبد العزيز وهي أول مرة ولى العهد فيها اثنان (١)

(١) ومن الغريب أنه ما من مرة ولى فيها اثنان إلا كانت النتيجة سيئة من جراء ذلك فإن أولهما كان يميل إلى نزاع ثانيهما إما لأنه يتوهم أنه يجتهد أن يتعجل الأمور لنفسه ولا يكون ذلك إلا بهلاك الأول وإما لأن الأول يفضل ابنه على أخيه أو ابن عمه الذي جعل ولى عهد له فيجتهد في نزعه وإقامة ابنه مقامه فقد اجتهد عبد الملك أن يؤخر أخاه عبد العزيز ويولي ابنه الوليد . وولى ساجان بن عبد الملك عهد ابن عمه عمر بن عبد العزيز ثم أخاه يزيد بن عبد الملك فكان عمر يألم جداً من أن يكون يزيد خليفة بعده ولولا أن عوجل لأخرجها عنه بل عن بنى أمية جميعاً وولى يزيد أخاه هشاماً ثم ابنه الوليد فكانت مدة هشام كلها تنقيصاً على الوليد حتى ساءت أخلاقه وولى السفاح عهد أخاه المنصور ثم من بعده ابن عمه عيسى بن موسى فلم يزل المنصور بعيسى حتى أخره وقدم المهدي . وولى المهدي ابنه الهادي ثم الرشيد فحاول الهادي أن يخلع الرشيد لولا أنه عوجل وولى الرشيد بنه الأمين ثم المأمون فكان بينهما من الحروب ما أدى إلى قتل الأمين ومن الغريب أن اللاحق لا يتعلم مما أصاب السابق

ولم تزل طريقة العهد سائدة في بني أمية حتى انقرضت دولتهم وجمامت خلافة بني العباس فسارت على هذا النمط إلا أنه في عهد الضعف الذي استولى عليها لم يكن الخليفة يدرك أن يعهد لأنه كان يجر من السرير إلى القبر فيجتمع أصحاب (العقد والحل) ويختارون من يشتهون ولولا ما كان يدين به الناس من استحقاق القوم الخلافة لآل أمرها إلى الفناء سريماً بعد أن جاءها سيل المتغلبين من الشرق من آل بويه ثم آل سلجوق وغيرهم من الملوك الذين استفحل أمرهم في مصر والشام إلا أنهم لما قدمنا كانوا يأخذون عهد السلطان من هؤلاء الخلفاء حتى أن الظاهر يبهرس البندقدارى ثالث المماليك بمصر لما رأى سقوط بني العباس ببغداد ورأى نفسه ليس بذى عهد من خليفة ساعد على إثبات نسب أحد الوافدين عليه المنتسبين إلى آل عباس ليتسمى باسم الخلافة ثم يوليه الملك نيابة عنه

جاء البيت العثماني وأخضع لسلطانه كثيراً من الأمم الإسلامية التي كان لها ملوك متفرقون وتسمى كبيره في عهد السلطان سليم فاتح مصر باسم خليفة المسلمين وهذا البيت اتخذ له قاعدة يسير عليها في شكل الاختيار وهي أن تكون الخلافة للأكبر فالأكبر من البيت ومع هذا لم يخل الأمر من طموح غير الأكبر لمنازعة أخيه وبسبب ذلك كان يحصل الاضطراب حتى أدى ذلك بكثير منهم إلى أن تكون فاتحة أعمالهم قتل من لهم من الأخوة حينما يتولى ومع هذا فإن نظامهم حفظ الملك في بيتهم أكثر مما حفظه في أي بيت آخر

أما الانتخاب عند أهل التنصيص على البيت العلوي فإنه كان منظورا فيه إلى الوراثة فيقوم مقام الأب أكبر أولاده ولذلك ساقها الفرقة الاثنا عشرية في بني الحسين بن علي وسموا عليا ومن يليه الأئمة وكانوا اثني عشر آخرهم المهدي المنتظر الذي اختفى وينتظرون عودته آخر الزمان ولغيرهم طرق أخرى في سوق الخلافة لسنا الآن بصدد بيانها ومع ضيق الدائرة التي جعلت منها الأئمة عند الشيعة لم يمكنهم أن يتفقوا فقال شكل الانتخاب عندهم الخلاف ففرقوا ذلك فرقا

لم يكن يحل الخلاف في زمن من الأزمان إلا بالقوة فهي التي تجعل صاحبها صاحب الحق ظافرا ولم يلتفت أحد من هؤلاء أن يسمى في جمع الكلمة على قانون يتبع في انتخاب الخلفاء وهي نتيجة طبيعية لكثرة المتطلعين

تناول العلماء في الدولة العباسية مسألة الخلافة وأدخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية ويخيل لي أن أول من وضعها هذا الموضوع كان يرى رأى الشيعة فإن الخلافة عندهم من أمور الدين ثم جر إليه المتكلمين وصار أمرها موضوعا جدليا كغيره من المسائل الدينية وكان النزاع يدور بينهم على ستة أمور

(١) وجوب نصب الإمام أم هو واجب على الأمة من طريق السمع كما هو رأى الجمهور؟ أو من طريق العقل كما هو رأى المعتزلة والزيدية؟ أو من طريقهما معا كما هو رأى بعض المعتزلة؟ أو على الله لحفظ قوانين الشرع كما هو رأى الإمامية؟ أو على الله ليكون معرفا لله وصفاته كما هو رأى الإسماعيلية؟ أو لا يجب كما هو رأى الخوارج أو يجب عند الأمن أو عند الفتنة كما هو رأى هشام الغوطي وأتباعه؟ أو يجب عند الفتنة دون الأمن كما هو رأى الأصم ومن شايعه من المعتزلة (٣) شروط الإمام وقد عدتوا منها شروطا لا خلاف فيها ومنها شروط فيها الخلاف كالقرشية عند الجمهور والمهاشمية عند الشيعة والعلم بجميع مسائل الدين وظهور معجزة على يده عند بعض الشيعة (٣) ما ثبت به الإمامة وهو النص من رسول الله أو من الإمام الموجود وبيعة أهل الحل والعقد خلافا للشيعة ثم قالوا لا يحتاج الأمر إلى إجماع أهل الحل والعقد بل يكفي الواحد والاثنان وقال بعضهم لا بد أن يكون ذلك أمام بيعة عادلة وهل يجوز تعدد الأئمة أو لا يجوز؟ وهل يجوز خلعه ولأى شيء يكون ذلك؟

(٤) من هو الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أهو أبو بكر أم على؟

(٥) من هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

(٦) ما حكم إمامة المفضول مع وجود الفاضل؟

وكانت هذه المناقشات مع حداثتها وغوصها على ممان جميلة شريفة في بعض الأحيان عديدة الجدوى من الوجهة العملية لأن هؤلاء يتجادلون بأسنة الأقلام في مدارسهم وعلى صفحات كتبهم وأوائك يحكمون صفحات الحسام ولا يلقون بالالتك المناقشات كأن شأنها لا يهمهم والخلاصة: أن مسألة الخلافة الإسلامية والاستخلاف لم تسر مع الزمن في طريق يؤمن فيه العثار بل كان تركها على ما هي عليه من غير حل محدد ترصاه الأمة وتدفع عنه، سببا لاكثر الحوادث التي أصابت المسلمين وأوجدت ماسيردها ليكم من أنواع الشقاق والحروب المتواصلة التي قلما يخلو منها من سواء كان ذلك بين بيتين أو بين شخصين

المحاضرة التاسعة عشر

انتخاب ابي بكر - أول خطاب له - ترجمته - أخلاق أبي بكر -
أخبار الردة

انتخاب أبي بكر

كانت الانصار منقسمة إلى شعبتين الأوس والخزرج وكان الخزرج أكثر عدداً من الأوس والرياسة والتقدم لسعد بن عباد من بنى ساعدة وهو أحد النقباء الذين انتخبوا ليلّة العقبه وكانت دار سعد مما يلي سوق المدينة وعندها سقيفة وهي ظلة كانت بالقرب من داره فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلنت لهم وفاته اجتمع كبار الانصار في تلك السقيفة أو سهم وخزرجهم يريدون انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهم وكان نظرهم متوجهاً إلى اختيار سعد بن عباد فإنّ سعداً خطب فيهم مبدياً ماللاً لانسار من الفضل والسبق إلى حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا ينبغي أن يبازعهم في هذا الامر أحد فأجابوه أصبت ووقفت ثم ترادوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم فإن أبى ذلك المهاجرون من قريش وقالوا نحن عشيرته وأولياؤه فاذا نقول لهم؟ فقال له آخر نقول منا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا فقال سعد لما سمعها هذا قول الوهن بلغ هذا الاجتماع كبار المهاجرين أبا بكر وعمر وغيرهما فمضوا إلى السقيفة مسرعين حتى وصلوا إليها وكان عمر يريد أن يتكلم بكلام هبّاه في نفسه ليقوله في هذا الموقف فقال له أبو بكر على رسلك وكان أبو بكر رجلاً وقوراً فيه أناة ثم تكلم فذكر تاريخ المهاجرين وما لهم من فضل السابق وتحمل المصاعب في سبيل دينهم ثم كر على ذكر الانصار فأثنى عليهم ولم يترك شيئاً مما لهم من المآثر إلا ذكره ، ثم روى لهم ما أثر عن الرسول عليه السلام من قوله (الأئمة من قريش) ثم قال فحس الامراء وأتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الامور ، فلما أتم خطابه قام إليه الحباب بن المنذر وهو من بني جشم بن الخزرج فقال يا معشر الانصار املكوا عليكم أمركم فإن الناس في فيثكم وظلمكم وإن يجترئ مجترئ على أخلاقكم ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم أتم أهل العز والثروة وأولوا العدد والمنعة والتجربة وذوو البأس والنجدة وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون

ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم أبي هؤلاء إلا ما سمعتم فإنا أمير ومنهم أمير فقال عمر هيات
لا يجتمع اثنان في قرن وبعد كلام له قام الحباب ثانياً فقال يا معشر الأنصار املكوا على
أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ثم قال أنا جذياها (١)
المحكك وعذيقها المرجب أما والله إن شئتم لتعيدنها جذوة فكان بينه وبين عمر حوار
ثم قال أبو عبيدة يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وأزر فلا تكونوا أول من بدل وغير
فقام بشير بن سعد وهو من بني زيد بن مالك من الخزرج فقال يا معشر الأنصار إنا والله
لئن كنا أولى فضيلة وجهاد وسابقة في هذا الدين ما أردنا به إلا رضاء ربنا وطاعة
نبينا والكسح لأنفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبغى به من الدنيا
عرضاً فإن الله ولى المنة علينا بذلك إلا إن محمداً من قريش وقومه أحق به وأولى وأيم الله
لا يراقى الله أنازهم هذا الأمر أبداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم فقال أبو بكر هذا
عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا فقالوا لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك
أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة أفضل
دين المسلمين فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا عليك أبط يدك لتبايعك فدعمر يده
إليه فبايعه ثم أبو عبيدة ثم بشير بن سعد فلما رأى ذلك الحباب قال لبشير عقت أنفست
على ابن عمك الأمانة؟ قال لا والله ولكني كرهت أن أنازع قوماً جعله الله لهم

ولم أرات الأوس ما صنع بشير وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير
سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء والله لئن وليتها
الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً
أبدأ قوموا فبايعوا أبا بكر فقاموا إليه فبايعوه فأنكسر على سعد وعلى الخزرج
ما كانوا أجمعوا له من أمرهم فأقبل الناس من كل جانب يبائعون أبا بكر حتى كادوا
يطؤون سعد بن عبادة وهو مريض لا يقدر على النهوض ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا على
ابن أبي طالب ومن معه لأنهم لم يحضروا السقيفة وكانوا مشغولين في جهاز رسول الله
صلى الله عليه وسلم

بهذا تمت بيعة أبي بكر لأن جمهور المسلمين بايعه وكان كبار الصحابة
(١) تصغير الجذل عود ينصب للجربى لتحتك به والعذيق تصغير العذق وهو الخلة

وترجيها أن يبنى تحتها دكان تعتمد إليه

كلهم إذ ذاك في المدينة ، ولم يزل على بن أبي طالب ممتعاً عن مبايعة أبي بكر ستة أشهر حتى ماتت فاطمة زوجة وكانت لعلي من الناس وجهة حياة فاطمة فلما ماتت استكرو وجوه الناس فالتمس مصالحة أبي بكر فأرسل إلى أبي بكر أن اتنا ولا يأتنا معك أحد كراهية محضر عمر بن الخطاب فقال عمر لابي بكر والله لا تدخل عليهم وحدك فقال أبو بكر وما عساهم أن يفعلوا بي ؟ والله لأنينهم فدخل عليهم أبو بكر فتشهد على ثم قال قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ولا تنفس عليك خيراً ساقه الله إليك ولكم استبددت علينا بالامر وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عيناه ثم قال أبو بكر والله لقرابة رسول الله أحب إلى أن أصل من قرابتي وبعد أن أتم كلامه قال علي لابي بكر موعدهك العشية للبيعة فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر رقى على المنبر فتشهد وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة وعذره بالذي اعتذر به ثم استغفر علي وتشهد فعظم شأن أبي بكر وأنه لم يحمله على الذي صنع نفاسة على أبي بكر ولا إنكاراً للذي فضله الله به ولكما كنا نرى لنا في الامر نصيباً فاستبد به فوجدنا في أنفسنا فسر بذلك المسلمون وقالوا أصبت وكانوا إلى علي قريباً حينما راجع الامر بالمعروف

أول خطاب لابي بكر

بعد أن تمت بيعته قام في الناس خطيباً (١) فقال أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن صدفت فقوموني الصدق أمانة والكذب خيانة والصغير فيكم قوى هندی حتى آخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلواتكم يرحمكم الله . وهذه الكلمة هي بحمل الطريقة التي اتبعها في خلافته أخبرهم بواجب عليهم وهو إعانته وحق لهم وهو تقويمه إذا صدق عن الحق وفي هذا ضمان لحريةهم في القول أعطاهم عهداً أن يعد فيهم فلا تمنعه قوة الظالم أن ينصف منه المظلوم ولا يمنعه

(١) كانت الخطبة بعد تمام أمر الخلافة عادة للخلفاء بعد أبي بكر يظهرون بها

مالأنفسهم من الخطة التي سيتبعونها في سياسة أمتهم إجمالاً

ضعف المظلوم أن ينصفه من ظالمه - حثهم على الجهاد الذي كان لا بد منه - أخبرهم أنه خليفة لينفذ الشريعة فإذا عدل عنها فلا طاعة له عليهم
ترجمة أبي بكر

هو أبو بكر بن أبي قحافة من بني تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر وأمه أم الخير سلى بنت صخر بن عامر من تيم بن مرة ولد لستين من عام الفيل وشب على الاخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة وكان ذا يسار يحمل الكل ويكسب المعدوم وكان محبباً إلى قريش يعرف من أنسابهم ما لا يعرفه غيره وكان مصاحباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة فلما شرف الله محمداً برسالاته كان أبو بكر أول رجل أجابه حتى قال في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر وكان له في الهجرة إلى الإسلام اليد الطولى وقد أراد أن يهاجر إلى الحبشة حينما اشتد إيذاء المشركين على المسلمين فنعه من ذلك ابن الدغنة سيد القارة وأجاره على قريش على شرط أن لا يستعلن بصلاته ولما لم يجد بعد ذلك بداً من أن يتخلص من هذا الشرط رد على ابن الدغنة جواره وأقام راضياً أن يصيبه ما يصيب إخوانه : ولما كانت هجرة المدينة كان له شرف الصحبة وكان ثاني اثنين إذ هما في الغار وشهد بعد الهجرة جميع المشاهد الإسلامية لم يتخلف عن واحدة منها وكان صاحب الراية في غزوة تبوك وأمره النبي صلى الله عليه وسلم على الحج في السنة التاسعة ولما مرض عليه السلام أمره أن يقوم مقامه في الصلاة

تزوج أبو بكر في الجاهلية قتيلة بنت عبد العزى من بني عامر بن لؤي فولدت له عبدالله وأسماء التي تزوجها الزبير بن العوام - وتزوج في الجاهلية أيضاً أم رومان بنت عامر من بني غنم بن مالك بن كنانة فولدت له عبد الرحمن وعائشة التي تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم - وتزوج في الإسلام أسماء بنت عميس من خثعم بعد أن قتل عنها زوجها جعفر بن أبي طالب فولدت له محمداً - وتزوج في الإسلام أيضاً حبيبة بنت خازجة ابن زيد من الخزرج فولدت له بعد وفاته جارية سميت أم كلثوم - فذكور أولاده
ثلاثة وإناثهم ثلاث

اخلاق أبي بكر

لكل عظيم اخلاق يظهر أثرها في أعماله ظهوراً واضحاً وتظهر للناس صورتها كلما

ذكر اسمه وإذا أردنا أن نعرف ذلك من أى بكر فإننا نجد أظهر أخلاقه

صدق العزيمة . الرقة

وصدق العزيمة أن يبحث الإنسان فى الأمر على قدر ما يتبها له من طرق البحث ويستعين بأراء غيره إن كان شوريا فإذا اتضح له السبيل عزم ومتى عزم لا يثنيه شىء عما عزم عليه حتى إذا رأى الجبال أمامه تريد صدده حاول أن يفتح له منها طريقا : هكذا كان أبو بكر

والرقة أن يكون شديدا لوجدان سريع التأثير وضدها القسوة فترى الرقيق يتأثر من الآلام التى تصيب الناس حتى أعداءه وتجد عبراته تسابق قلبه إلى التأثير وهذا الخلقان يدفع أحدهما شر الآخر فى سواس الأمم لأن الرقة المتناهية تجعل الإنسان مترددا فى أموره حسب المؤثرات التى تنال نفسه فإذا كان معها صادق العزيمة أمن شر التردد المهلك

أول ما ظهر من صدق عزيمة أبى بكر ما كان منه فى بعث أسامة بن زيد قبيل مرض الرسول صلى الله عليه وسلم ، هيا بعثا ليرسله إلى مشارف الشام حيث قتل زيد بن حارثة وأصحابه فى مؤتة وكان فى هذا البعث أبو بكر وعمر وكثير من كبار الصحابة ولما كاد البعث يبرح المدينة مرض عليه السلام فتوقف خارجها حتى كانت الوفاة وبوبع بالخلافة أبو بكر وحينئذ بلغه أن الأعراب ارتد كثير منهم عن الاسلام فلكم فى تأخير بعث أسامة ليكون عدة على المخالفين فأبى شديد الإباء وصمم على تنفيذ البعث مهما تكن النتيجة ولو كان قد تردد فى الأمر أو أخرج البعث لكان قد شرع للناس لأول مرة مخالفة ما أمر به الرسول أمرا حتما وكان يدور على لسانه وقت مرضه التأكيد بانفاذ بعث أسامة . ثم تكلم فى أن يغير أسامة برجل أسن منه يقود الجيش فغضب غضبا شديدا وقال يوليه رسول الله ويعزله أبو بكر ١١٤ واشتد فى الكلام مع عمر الذى كان يكلمه فى ذلك عن بعض الانصار حتى قام وأخذ بلعينة وقال عدمتك أمك وثكلتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه . ولما كان عمر من ضمن ذلك البعث وكان من الضرورى وجوده بالمدينة لعين أبى بكر لم يشأ الخليفة أن يستبد على رئيس السرية بأبقائه بل قال لأسامة إن

رأيت أن تعينني بعمر فافعل فأذن له . وهذا مقام كبير في احترام ذي السلطان في سلطانه وفي الحقيقة ذلك راجع إلى احترام الأمر النبوي حيث رغب أبو بكر أن ينفذ تماما واعتبر أن أسامة مولى من سلطان أعلى من سلطانه فلا ينبغي له أن يفتات عليه . ولما ودع أبو بكر هذا البعث أوصاهم بتلك الوصية وهي :

لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمننوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تغدروا ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لما كله وسوف تمرّون بأفوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها . وتلقون أقواماً قد فحشوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخترهم بالسيف خنقاً يدفعها باسم الله (١) فسار أسامة وشن الغارة على بلاد قضاة وأحاطهم وغنم منهم واستمر في بعثه أربعين يوماً ثم عاد وكان هذا البعث معيذاً للمسلمين لأن أعداءهم لما تسامعوا به قالوا لولم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تغير على من بعد عنهم من القبائل الغوية ! ومما يظهر صدق عزيمة أبي بكر ما كان منه في أخبار الردة

أخبار الردة

قدمنا أن كثيراً من أعراب البادية بنجد واليمن لم يتأثروا بعد بأثر الإسلام ولم تزك أنفسهم الزكاة المطلوبة وقد بين الكتاب ذلك بقوله في سورة الحجرات (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) فهذه

(١) في لسان العرب . وفي الحديث أنه أوصى أمراء جيش مؤتة - وستجدون آخرين . للشيطان في رؤوسهم مفاحص فافترسها بالسيف أي أن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص كما استوطن القطا مفاحصها وهو من الاستعارات اللطيفة لأن من كلامهم إذا وصفوا انساناً بشدة الغنى والاهمّاءك في الشر قالوا قد فرخ الشيطان في رأسه وعشش . وفي حديث أبي بكر وستجد قوماً فحشوا عن أوساط رؤوسهم الشعر فاضرب ما فحشوا عنه بالسيف وفي الصحاح كأنهم حلقوا وسطها وتركوها مثل أفاحص القطا وهي مجامعها

كانت حالهم خضوع في الظاهر والقلوب بعد لم يتمكن منها الدين فرأوا أن موت الرسول صلى الله عليه وسلم فرصة يتخلون بها عن الفروض الإسلامية خصوصاً ما كان منها في المال كالزكاة ومنهم فريق قام فيها دعاة يدهون إلى أنفسهم مدهين أنهم أنبياء فتبعوا دعوتهم وبذلك كانوا فريقين :

(١) فريق امتنع عن أداء الزكاة (٢) وفريق تبع المنتهين ورفض الدين كله : فكانت عزيمة أبي بكر صادقة في حرب هؤلاء الذين خرجوا من الدين وحاربوه بعد أن دخلوا فيه مع ما يعمل من هذا الانتقاض الذي كاد يكون في عامة الأعراب ولكن صدق العزيمة يذل كل شيء .

فلما جاءت الأخبار مكث ينتظر بعث أسامة لأنه كان فيه معظم القوة وكان جيران المدينة من عبس وذيان قد اجتمعوا عليها يريدون مهاجمتها فلما قدم بعث أسامة استخلف أبو بكر أسامة على المدينة وكان قصده بذلك أن يرتاح جنده ويريحوا ظهورهم وهم بالخروج فيمن معه من الجند وحرس المدينة لحرب عبس وذيان فقال له المسلمون : ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن لا تعرض نفسك فأبى إن تصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد على العدو فابعث رجلاً فإني أصيب بعثت آخر فقال : والله لا أفعل ولا واسينكم بنفسى فخرج في تعبته حتى نزل على أهل الربذة فلابرق فاقتل جنده مع بنى عبس فهزم العباسيون وأخذ الخطيئة الشاعراً سيراً وأقام أبو بكر بالابرق أياماً ، وقد غاب بنى ذيان على البلاد وحامها الخيول المسلمين وأرعى سائر الربذة الناس ثم عاد أبو بكر إلى المدينة فلما استراح جند أسامة خرج إلى ذي القصة قتل بهم وذو القصة على بريد من المدينة تلقاء نجد فقطع فيها الجند وعقد الألوية عقد في ذلك اليوم أحد عشر لواءً لأحد عشر أميراً وهم :

(١) خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد الأسدي بزاخه فاذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح (٢) عكرمة بن أبي جهل ووجهه إلى مسيلة باليمامة (٣) ووجهه في أثره شرحبيل بن حسنة (٤) المهاجر بن أبي أمية ووجهه إلى جنود الأسود العنسي بصنعاء ومعاونة الأبناء (٥) حذيفة بن محسن ووجهته أهل دبا بعمان (٦) عرجة بن هرثمة ووجهته أهل مهرة وأمر هذا ومن قبله أن يجتمعوا وكل أمير على صاحبه في عمله (٧) سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن

(٧) العلاء بن الحضرمي ووجهه إلى البحرين (٩) طريفة بن حازم ووجهه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن (١٠) عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاة (١١) خالد بن سعيد ووجهه إلى مشارف الشام .

وبعد أن عين الجنود والأمراء كتب للمرتدين من العرب كتاباً واحداً (منشوراً) أرسله إليهم قبل أن تسير الجنود قال فيه بعد أن بدأه باسم الله وذكر الرسالة والوفاة قال : (وقد بلغني رجوع من رجعت منكم عن دينه أقر بالاسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان) قال الله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) وقال : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) واني قد بعثت إليكم فلانا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يجرهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وان يسي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الإسلام فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فان يعجز الله وقد أمر رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الاذان فإذا أذن المسلمون فأذنوا كف عنهم وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي ، فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود وهذا فيما نعلم أول منشور عام صدر عن خليفة المسلمين ليقرأ في مجامع الناس وأنديتهم .

وكتب إلى القواد عهداً صورته واحدة وهو هذا :

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن ينق الله ما استطاع في أمر كله سره وعلايته وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فان أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقرؤا له ثم ينبتهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظروهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل من

كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب إلى الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام فن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ومن أبي قاتله فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم لا يكونوا عيوناً ولثلاً يؤتى المسلمون من قبلهم وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنازل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول طليحة ومالك بن نويرة .

كان طليحة رجلاً من بني أسد بن خزيمه علم بمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انصرافه من حجة الوداع فسولت له نفسه أن يدعى للباس البيوة ليكون له من الشأ ما رأى لبني قريش فدعا إلى ذلك قومه من بني أسد فشايعوه والتفت إليه طيء لما كان بينها وبين أسد من الحلف ودخلت في غمارهم غطمان إلا ما كان من خواص أقوام فيهم لم يغيروا من دينهم وكان مقام جنده بزاخة وهو ماء اطيء بارض نجد .

وكان بالمدينة عدى بن حاتم الطائي وهو سيد من ساداتهم فطلب من أبي بكر أن يذهب إلى قومه فاذن له فقدم عليهم فصار يقتلهم في الذروة ، والغارب حتى قالوا فاستقبل جيش خالد فكفهم عنا حتى نستخرج من لحق بزاخة منا فإننا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم أو ارتهم فاستقبل عدى خالداً وقال له أمسك عنى ثلاثاً يجتمع لك . . . مقاتل تضرب بهم عدوك : ففعل خالد ، ثم عاد عدى إلى قومه ، وقد أرسلوا إلى إخوانهم فأتوهم من بزاخة كالمردد لهم ، ثم راجعوا الإسلام ، فعاد إلى خالد وأحبره ، ثم فعل ذلك بجديلة فلحق بالمسلمين من الجيش ألف مقاتل فسار حتى أتى بزاخة ، واصطدم الجيشان اصطداماً شديداً فلما أحس عيينة بن حصص الفزاري بالضعف جاء إلى طليحة وهو ملتف بكسائه فقال له : ألا ترى ما يصنع بنا فهل جامك ذوالبون بشيء قال نعم قد جاءني وقال إنك يوماً ستلقاه ليس لك له ولك آخره ورحا كرحاه وحديثاً لا تنساه فقال عيينة أرى والله أن لك حديثاً لا تنساه يا بني فزاره هذا كذاب وولى عن عسكره فاهزم الناس وهرب طليحة وانضت جموعه ثم جاء بعد ذلك مسلماً فقال له عمر أبت الكاذب على الله حين

زعمت أنه أنزل عليك أن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم فاذكروا الله قياما فإن الرغبة فوق الصريح فقال يا أمير المؤمنين ذلك من فتن الكفر الذي هدمه الإسلام كله فلا تعنيف على بيعه فأسكت عمر

بنو تميم ومالك بن نويرة

كان الرسول قد أمر على بطون تميم أمراء منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منهم من ظل على الوفاء بما عاهد عليه الله فأرسل الزكاة إلى أبي بكر ومنهم من منعها كمالك بن نويرة ومنهم المتردد في الأمر وكان ذلك الخلاف مدعاة أن يشتغل بعضهم ببعض ويدينام على ذلك الخلاف أقبلت عليهم من الجزيرة سجاح بنت الحارث وكانت هي وأبوها في بني تغلب وأصلها من بني يربوع من تميم ادعت النبوة فتبعها جمع كبير من نصارى تغلب فهبطت بهم تريد غزو أبي بكر فلما قربت من ديار بني تميم راسلت مالك بن نويرة سيد بني يربوع ودعته إلى المواعدة فرادعها وثناها من غزو أبي بكر وحماها أن تغزو بعض الأحياء من تميم وهم الذين يخالفونه ثم أرسلت إلى وكيع ابن مالك سيد بني مالك بن حنظلة تدعوه إلى مثل مادعت ابن نويرة فأجابها فاجتمع وكيع ومالك وسجاح وترددوا بأى تميم يريدون فسجدت لهم سجاح قائلة أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم أغبروا على الرباب فليس دونهم حجاب فكانت بذلك خطوط في بطون تميم ولكن لم يستتم لها أمر بين أظهرهم فتركت بني تميم وعولت على المسير إلى اليمامة بجموعها وكان بها مسيلة الحنفي فلما سمع بها هاب جموعها وصالحها ويدينام على ذلك إذ سمعوا بقدرم خالد بن الوليد في جيوشه فتنفرت جموعها وعادت إلى الجزيرة وحينذاك ندم مالك بن نويرة على ما فعل وتحير في أمره وكذلك من فعل فعله من رؤساء تميم غير أن من عداه ندموا ندما ظاهراً وأخرجوا الزكاة وأرسلوها إلى خالد وأما مالك فوقف وأمر بني يربوع أن يتفرقوا فلما ورد خالد البطح لم يجد أحداً فيستسراياهم مغيرة على القوم فجاءته بمالك في نفر من بني يربوع فأمر بهم خالد فحبسوا ثم أمر بقتلهم فقتل مالك ومن معه وكان بعض أفراد الجيش منهم أبو قتادة شهدوا أنهم أذنوا فلما حصل القتل رأوه مخالفاً لأمر الخليفة وبما أكبر التهمة أن خالد تزوج زوجة خالد بن نويرة فلما بلغ ذلك أبنا بكر أسف وقال له عمر إن في سيف خالد

رهقاً فإن لم يكن هذا حقاً حق عليه أن تقيده وأكثر عليه في ذلك وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته فقال هبه يا عمر تأول فأخطأ فأرفع لسانك عن خالد وودي مالكا وبخذلان بنى يربوع عاودت تميم كلها الاسلام ورضيت أن تدفع صدقاتها إلى أبي بكر كما كانت تدفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

بنو حنيفة ومسيلة

كانت بنو حنيفة قد وفدت على الرسول في حياته وأسلمت وكان فيهم مسيلة فلما شاع مرض الرسول تنبأ مسيلة ودعا الناس إلى اتباعه وكان من طلبه أن يكون نصف الأرض لقرش ولبنى حنيفة نصفها ثم يقول ولكن قريشاً قوما لا يمدلون ، فلما وجه أبو بكر الجيوش إلى المرتدين وجه عكرمة لمحاربة بنى حنيفة باليمامة ووجه في أثره شرحبيل وأمرهما أن يجتمعا فتعمل عكرمة ليفوز بمفخرة اليوم فنكب دون قصده فلما بلغ ذلك أبا بكر غضب ووجه كلا من عكرمة وشرحبيل وجها آخر ثم اختار خالد بن الوليد بعد أن انتهى من مالك بن نويرة ليسير إلى اليمامة وانتدب معه قوة كبيرة وكانت قوة مسيلة كبيرة جداً تباع أربعين ألفاً لأن أكثرها اتبعه عصبية حتى كان بعضهم يقول أشهد أن مسيلة كذاب وأن محمداً صادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر . سار خالد حتى وصل طرف اليمامة فكان بينهم يوم شديد الهول نذامر فيه بنو حنيفة وقاتلوا عن أنفسهم وعن أحسابهم قتالاً شديداً حتى انكشف المسلمون وكادت تتم الهزيمة عليهم لولا رجال من ذوى الحمية والغيرة صرخوا في الناس فتبعتهم فئة ثم كروا بجمعهم ثانية على عدوهم حتى قتل مسيلة واشترك في قتله وحشى قاتل حمزة ورجل من الأنصار ولما رأى بنو حنيفة ذلك دخلوا حصونهم واحتموا بها فصالحه عنهم جماعة بن مرارة وكان القصد من الصلح أن لا يقتل المقاتلون ويكتفى بأخذ ما عندهم من النقود ذهباً وفضة والسلاح وربيع السبي فاتفقوا على ذلك وكان أبو بكر قد أرسل إلى خالد أن يقتل مقاتلهم فجاءه الكتاب بعد أن كتبت شرط الصلح فوفى لهم خالد بما عاهدتم عليه ثم راجعت بنو حنيفة البراءة مما كانت عليه والإقرار بالإسلام فبعث خالد منهم وفداً إلى أبي بكر فقال لهم حينما قدموا عليه ويحكم ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل قالوا يا خليفة رسول الله لقد كان الذي بلغك مما أصابنا كان أمر لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه ثم

سألم عن بعض أجماع مسيلة فقالوا له شيئاً منها فقال ويحكم إن هذا الكلام ما خرج من إل ولا برقاين يذهب بكم : وأقام خالد بعد فراغ الأمر في واده من أودية اليمامة يقال له الوبر اليمن والأسود العنسي

ولما أسلم أهل اليمن ولي عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذان الذي كان عاملاً لكسرى فلم يزل والياً عليها حتى مات فجعل عليه السلام ابنه شهراً والياً على صنعاء وعين ولاية آخرين على بقية بلاد اليمن حيث قسمها إلى عشر عمالات وكان معاذ بن جبل معلماً ينتقل في هذه الولايات قبل وفاة الرسول . ثم قام رجلاً من عنس إحدى قبائل قحطان اسمه الأسود فتنبأ وتبمه قوم من أعراب اليمن سار بهم إلى نجران فاستولى عليها العشر من مخرجه ودخل معه هوام هذج ثم جاء صنعاء وقاتل عامها شهراً واستولى عليها وهزم الأبناء الخمس وعشرين ليلة من مخرجه فجعل أمره بعد ذلك يستطير استطارة الحريق وقد وصل الخبر بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أهل اليمن في أمره قسمين قسم يتقيه وهو على إسلامه وقسم تابعه وارتد عن دينه فأرسل عليه السلام كتاباً على يد وبر بن يحنس إلى من بصنعاء من الأبناء يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض إلى الحرب والعمل في أمر الأسود إما غيلة وإما مصادمة وإن يبلغوا عنه من رأوا أن عنده نجدة ودينياً . وقد صادف ذلك أن تغير الأسود على رئيس جنده قيس ابن عبد يغوث المرادى فهو يخافه خوفاً شديداً فقاتحه الأبناء في أمر اغتيال الأسود فأجابهم إلى ذلك وصاروا يهدون لذلك الأمر واتفقوا على ذلك مع امرأة شهر التي اغتصبها الأسود بعد قتل زوجها وبعد خطوط طويلة تمكن فيروز أحد الأبناء من قتله غيلة داخل منزله ولما طلع فجر تلك الليلة نادوا على القصر بشعار المسلمين وهو الأذان وبذلك خلصت صنعاء والجنود من هذا الشر المستطير واتفق الناس أن يولوا أمرهم معاذ بن جبل فكان يصلي بهم وكتبوا إلى رسول الله بالخبر فوصل الرسول بالمدينة صبيحة اليوم الذي توفي فيه عليه السلام وكان بين خروج الأسود ومقتله نحواً من أربعة أشهر

ولما بلغ أهل اليمن موت رسول الله صلى الله عليه وسلم عادوا إلى ما كانوا عليه من الخلاف وقادم إلى ذلك بعض الرؤساء من المرتدين فبعث أبو بكر إلى من بقى على إسلامه من رؤس اليمن يأمرهم بالوقوف حيال المرتدين حتى تصلهم النجدات وما

زالوا كذلك حتى وصلتهم الجنود يقودها المهاجر بن أبي أمية فاستردت صنعاء وأسرت
زعماء الفتنة قيس بن عبد يغوث وعمرو بن معديكرب ثم ذهبت إلى كندة بحضرموت
وكانت قد ارتدت أيضاً وهناك اجتمع جند المهاجر وجند عكرمة بن أبي جهل فحاربوا
كندة حتى غلبوهم وأسروا الأشعث بن قيس سيد كندة وبعثوا إلى أبي بكر يبشرونه بالفتح
البحرين والحطيم

كان عليه السلام قد ولي على البحرين المنذر بن ساوى وبها قبائل من عبد القيس
وبكر بن ربيعة فمات المنذر في الشهر الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم
وحينذاك ارتد أهل البحرين فأما عبد القيس فإنها فاءت إلى الدين من غير قتال تبعوا
نصيحة الجارود بن المعلى حيث جمعهم فقال يا معشر عبد القيس إنى سائلكم عن أمر
فأخبروني إن علمتم وما تجيبوني إن لم تعلموا : تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى قالوا
نعم قال فما فعلوا قالوا ماتوا قال فإن محمداً مات كما ماتوا وأما أشهد أن لا إله إلا الله
وأن محمداً عبده ورسوله فقالوا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله
وأنك سيدنا وأفضلنا وثبتوا على إسلامهم . أما بكر فإنها تمت على ردتها يقودها إلى
ذلك الحطيم بن ضبيعة واستغرى كثيراً ممن يسكنون القطيف وهجر ولم يزل كذلك
حتى قدم عليه العلاء بن الحضرمي أميراً على الجند الذي سيره أبو بكر لقتال من ارتد
بالبحرين ولحق به ثمامة بن إثال في مسلة نبي حنيفة وجموع من تميم وبعد مقام
طويل اصطدم المسلمون مع جند الحطيم فغلبهم المسلمون وقتل الحطيم وضرب الإسلام
بجرانه في البحرين وكتب العلاء إلى أبي بكر يخبره بالفتح ورجوع العرب من
ربيعة إلى الإسلام

وكانت هناك وقائع أخرى بين القواد وبين المرتدين من العرب في غير هذه الجهات
في جميعها انتصر المسلمون

اشتغل أبو بكر في أمر الردة بعزيمة لم تعرف لغيره من الأبطال الذين لا تززعهم
الكرارث ولا تلين من قلوبهم الخطوب وما ظلك بهذه النار التي هاجت في جميع
أنحاء الجزيرة حينما شمرت بفقده الرسول صلى الله عليه وسلم فأطفأها وليد عجاظتها قبل أن
تنقضي السنة التي لحق فيها الرسول بربه وأن الإنسان ليحارب يادئ به في هذا الأمر ولكن
إذا رجع إلى قوة العزيمة وحسن النظام في تسيير الجنود وتوارد المكاتب من رؤساء الجند

والإهم في مواعيد قليلة لا يلبث أن تقز نفسه ويعترف لأبي بكر أن له نفساهى أكبر نفس
عرفت عن خليفة

كان أبو قتادة وهو من كبار الصحابة ومن لهم الشرف العريض في جند خالد بن الوليد
فلما تقم عليه ما كان منه من قتل مالك بن نويرة وزواج زوجته فارقه وذهب إلى أبي بكر
يخبره بالحادثة فغضب أبو بكر منه غضباً شديداً ولم يكن هناك هوادة في رجوعه إلى خالد
ثانية ونهيه عن أن يترك الجند لآى سبب كان من غير أمر الرئيس ولم يشفع له مقامه
العظيم وطول صحبته وحاول عمران يوقع أبو بكر بخالد مع جسامته ذنبه فلم يفعل لأنه خاف
الوهن واعتذر عنه بأنه تأول فأخطأ

إننا نقول في ذلك قولاً صريحاً لولا أبو بكر وعزيمته القوية بعد معونة الله وتأيدته
ما كان يسير بالمسلمين مسيره الذى عرف . حصل ذلك في وقت استولى فيه الذهول
على أفئدة المسلمين كافة حتى أقوامهم شكيمة وأشدهم قلباً

المحاضرة العشرون

ظهور الأمة العربية — حال الفرس والروم لأول عهد أبي بكر —
غزوة الفرس — غزوة الروم

ظهور الأمة العربية

مكثت الأمة العربية تلك الأزمنة الطويلة وهي محصورة في جزيرتها قانعة بصحرائها
ومفاوزها ووديانها قوام متفانية في حروبهم بعضهم مع بعض بأسهم بينهم شديد
والأمم المجاورة لهم قد ملكت عليهم أمرهم في أخصب بقاعهم وإن كان للعرب ملك
أو رياسة فعلى أنهم عاملون لغيرهم من الفرس أو الروم حتى جاء الإسلام فتكون منهم
تلك الأمة العظيمة التي سلبت أقوى الأمم سلطانها وتغيرت الحال فصار المقهور قاهراً
والمسود سيداً

كان يجاور الأمة العربية دولتان عظيمتان تعترف العرب لهما بالسيادة والتغلب من
قديم الأعمار وهما دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية

دولة الفرس

فأما دولة الفرس ويقال لها دولة الآكاسرة فكانت قاعدتها (المدائن) وهي مدينة عظيمة كانت على شاطئ دجلة الشرق والغربي جنوبي بغداد في منتصف المسافة بينها وبين واسط ودور الآكاسرة هذه تكونت منذ وجد أزدشير بن نابك وغلب ملوك الطوائف على أمرهم واستبد بالامر دونهم ووجد كلمة الفرس ثانية بعد أن كانت تفرقت في عهد اسكندر المقدوني وكان ظهور أزدشير سنة ٢٣٠ م وأدخل في ملكه العراق وما يجاوره من بلاد العرب وجميع الممالك الفارسية المتفرقة وكان يسمى شاهنشاه أي ملك الملوك وأمراء الأقاليم يسمى واحدم شاهها وما زال بنوه يتوارثون ملك الفرس من بعده حتى كان كسرى أنوشروان الملقب بالملك العادل وهو الذي ولد لمعهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ملكا عظيم الشأن واسع السلطان ثم جاء بعده هرمز ثم كسرى أبرويز وهو الذي أرسل إليه الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام فرأى ذلك أمرا عظيما أن يدعو عبد من عبيده زعم ليكون خاضعا لدينه فراسل عامله على اليمن يطلب منه أن يرسل إليه ذلك الراعي ليرى فيه رأيه وحصل عند ذلك أن قام عليه ابنه شيرويه فقتله واستلب منه تاج الملك ولكن شيرويه لم يتمتع بالملك طويلا بل مات بعد سنة وتسعة أشهر من ولايته بعد أن أساء كثيرا إلى أهل بيته فولى من بعده ابنه أزدشير وهو صغير السن فكفله أحد عظماء المملكة وكان في ذلك الوقت من كبار القواد شهر يزار مرابطا بجنده بشعور الروم فلما رأى أن ولي أزدشير من غير استشارته أقبل بجموعه إلى مدينة الملك قاستولى عليها وقتل أزدشير واستلب تاج الملك لنفسه ولم يكن من أهل بيت الملك إلا أن ذلك لم يرق لبعض العظماء منهم فأجمعوا أمرهم على قتله فقتلوه لأربعين يوما من ولايته ثم ولوا أمرهم بوران بنت كسرى أبرويز أخت شيرويه ولها ذكر حسن في تاريخ الفرس وكانت ولايتها في آخر حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمرت ملكة سنة وأربعة أشهر ثم ملك بعدها جشنسده من بني عم أبرويز الأبعدين أقل من شهر وبعده وليت آزرميدخت بنت كسرى أبرويز أخت بوران وهي التي جاءها رستم وقتلها لقتلها أباه فرخهزمن أصهبد خراسان وعظيم فارس وولى بدلها رجلا من عقب أزدشير بن بابك يقال له كسرى بن مهر جشنس ولكن لم يبق ملكا

إلا أياما وما زال حالم في اختلاف حتى ملك يزدجرد بن شهريار وهو آخرهم
الرومان

كانت الدولة الرومانية الدولة الثانية العظمى في العالم تناصى دولة الفرس
في سعة الملك وقوة السلطان وكانت عاصمتها الكبرى رومية أدخلت تحت نيرها
أكثر الأمم الشرقية وفي مقدمتها مصر وسوريا ولم يزلوا على تلك العظمة حتى
انقسمت دولتهم إلى قسمين الشرقية وقاعدتها قسطنطينية والغربية وقاعدتها رومية
في زمن القيصر تيودثيوس الذي ولى أمر الرومان إلى سنة ٣٩٥ وأجزأ الملك بين
ولديه وكان المشرق من نصيب ابنه رقادايوس الذي ولى من سنة ٣٩٥ إلى سنة ٤٠٨
وما زالت الملوك تتوالى على هذا الكرسي حتى كان ملكهم لأول العهد الإسلامى
هرقل الذى كان قبل أن يتولى الملك واليا في أفريقية ثم خرج على الملك فوفا قتله
وتوج بالملك بدله سنة ٦١٠ واستمر ملكا حتى سنة ٦٤١ وهو الملك الذى سقطت
على يده سوريا وملكها المسلمون

وكانت الدولتان الفارسية والرومانية في نزاع دائم وكان ميدان النزاع
بينهما بلاد العراق وسوريا حيث كانت نار الحرب لا تنهد في هذه البقاع وكانت
الحرب بينهما سجالا : فرة يغلب الفرس فيمتد سلطانهم حتى يصل إلى شواطئ
بحر الروم ومرة يطغى عليهم الجيش الرومانى فيستلب منهم بلاد الجزيرة ويملك
النهرين دجلة والفرات ومايسقيان من تلك الاراضى الخصيبة الجميلة

وأقرب تلك الوقائع إلى العهد الإسلامى ما حصل أولا من الحروب بين جنود
فوقا ملك الرومان وجنود كسرى أنوشروان ملك الفرس وقد انتصرت فيها الفرس
انتصارات متتابعة حتى أجـلوا الروم عما كان لهم من الجزيرة في الشمال وما زالت
جنود الفرس توالى فتوحها حتى وصلت إلى البسفور تسفك دماء من يقف في طريقها
وشنوا غاراتهم على فينيقيا وفلسطين وفعلوا بتلك البلاد الافاعيل ثم أعادوا كراتهم
في عهد هرقل الذى خلف فوقا على سرير الملك وأخذوا من أورشليم خشبة الصليب
المقدسة وأتلفوا كثيرا من الآثار المسيحية ثم زحفوا سنة ٦١٦ إلى مصر فأخذوا
اسكندرية . وقد أشار الكتاب إلى هذه الواقعة في أول سورة الروم التي نزلت بمكة
لمبان هذه الحروب قال تعالى (غلبت الروم في أدنى الارض) ثم قال مخبرا عن تكون

له العاقبة فقال (وهم من بعد غابهم سيفلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد) ثم أخبر بعد ذلك عما يصادف انتصار الروم من انتصار المسلمين على أعدائهم من المشركين فقال (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

وقد حصل ذلك فعلاً فإن هرقل تنبه من غفلاته سنة ٦٢٢ بعد عشر سنين من ولايته وتهاى لحرب الفرس وأعد لذلك عدته ورتب جنوده وهاجم الفرس هجمات المستقتل فاتصر عليهم في الوقت الذي كان المسلمون فرحين بانتصارهم في بدر وقد كانت بدر في مارس من سنة ٦٢٤ والروم في ذلك الوقت يذيقون الفرس مذاقوه منهم قبلاً : ولم يزل الأمر على ذلك حتى تولى على الفرس شيرويه بعد أن قبض على أبيه ثم قتله فصالح الروم سنة ٦٢٨ ورد جميع النصارى الذين كان أخذهم أسرى وخشبة الصليب المقدسة فنال هرقل بذلك منتهى الفخار وذهب إلى اورشليم سنة ٦٢٩ ليشكر الله على ما آتاه من النصر وهذه السنة هي التي أرسل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الملوك يدعوهم إلى الاسلام وكان من راسله هرقل وهو في ذلك الوقت باورشليم (أول يناير سنة ٦٢٩ م ٢٩ شعبان سنة ٧ من الهجرة) وطرده في ذلك الوقت اليهود من اورشليم وأمر أن يستمروا بعبدين عنها ثلاثة أميال : وبعد ذلك عاد هرقل إلى حمص وكانت منزله لأنها كانت مكان لهُ وترف

هذا بجمل حال تلك الدولتين لاول عهد الخلفاء الراشدين

غزو الفرس

انتدب أبو بكر أعظم قواده خالد بن الوليد بعد أن انتهى من حروب الردة ليغزو بلاد الفرس وأمره أن يبدأ بشخر الهند وهو الإبله وانتدب عياض بن غنم ليغزو الفرس من الشمال ويبدأ بالمصيخ وهو في شمال العراق وأمرهما أن يستنفر من قاتل أهل الردة وأن لا يستعينا بمرتد وقد وصل لخالد كتاب التعيين وهو باليمامة فكتب لصاحب الثغر وهو هرمز كتاب إنذارية قوله فيه أما بعد فإسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية وإلا فلاتلوه من إلانفسك فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة

ثم فرق جيشه ثلاث فرق واتعدوا جميعهم الحفير ليصادموا به عدوهم والحفير ماء

بالقرب من البصرة : فلما بلغ الكتاب هرمز بعث به إلى كسرى يعلمه وجمع جموعه ثم تعجل إلى الكواظم وهي من جادة اليمامة فبلغه أن الجنود العربية قد اتخذت طريقها إلى الحفير فعاج يبادرهم إليه وهناك عبأ جيشه ولما أتى خالداً الخبر أن هرمز بالحفير عدل عنه إلى كاظمة فلاحقه هرمز بها وكان هرمز هذا من أسوأ أمراء ذلك الثغر جواراً للعرب فكل العرب عليه مغيظ وقد كانوا ضربوه مثلاً للخبث تراحف الجيشان وكان كل من خالد وهرمز في مقامة جيشهما فتبارزا فقتل خالد هرمز فلم يكن للعجم بعده ثبات فانهزموا

ثم أمر خالد بالرحيل وسار حتى بلغ قريبا من موضع البصرة والبصرة لم تبين إذذاك كان كسرى قد أمته هرمز بجند تحت قيادة قارن بن قريانس وبيننا هو قادم إذ بلغتته هزيمة هرمز فتوقف بالمدار^(١) وعسكر به فسار خالد إليه على تعبئة فنقاتل الجيشان على حنق وحفيظة ولم يطل الأمر حتى هزمهم خالد وقتل قائدهم فعبروا إلى الجهة الشرقية وضموا إليهم السفن فلم يتمكن المسلمون من طلبهم وقتل من الفرس عدد جسيم قدره الطبري بثلاثين ألفاً

بلغت هذه الهزيمة ملك الفرس فبعث جنداً كثيفاً يقوده الاندرزغر ففصل عن المدائن حتى أتى الوجة^(٢) ثم اتبعه كسرى جنداً آخر يقوده بهمن جاذويه وقد انضم إلى صفوف الفرس كثير من العرب المنتصرة ولما بلغ خالداً خبر تجمعهم أذن بالرحيل إليهم على تعبئة بعد أن ترك خلفه حامية تحمي خط رجعتهم ولما وصل الوجة رتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات وصادهم هو من إحداها ولم يلبث الفريقان الآخران أن خرجا على الفرس من مكنتهما فلم يلبث الفرس أن انهزموا وهضى قائد الجيش في هزيمته حتى مات في طريقه عطشاً وقتل في هذه الواقعة كثير من بكر بن وائل الذين أعانوا الفرس فغضب لهم نصارى قوههم فكاتبوا الأعاجم وصاروا معهم بدأ على حرب المسلمين واجتمعوا بأليس^(٣) وقائد الجميع بهمن جاذويه فسار إليهم خالد وأوقع بهم موقعة كبيرة قتل فيها مقتلة عظيمة

- (١) المداريينها وبين البصرة أربعة أيام إلى الشمال بالقرب من واسط وهي قصبة ميسان
(٢) وهي من الشمال من المدار من أرض كسكر (٣) قرية من قرى الأنبار

ولما فرغ من أليس نهض إلى أمغيثيا وهي بالقرب من أليس وكان فرات باذقلى ينتهى إليه فلما وصلها خالد أمر بهدمها وكانت مصرأ كالحيرة: لما علم الأزاذبة مرزبان الحيرة بما كان من خالد في أمغيثيا علم أنه غير متروك فنهبا الحرب خالدرقم ابنه أمامه وكان مما فعله أن فجر الأنهار الآخذة من الفرات فقل الماء فيه حتى لم يعد يحمل السفن تسير فيه وكان خالد قد حمل الرحل في السفن مع الأثقال والأثقال فلم يفجأه إلا والسفن جوانح فسأل عن السبب فأعلم به فتمجّل خالد نحو ابن الأزاذبة حتى لقيه هو وجنده على فم فرات باذقلى فهزمهم وجفر الفرات وسد الأنهار فسلك الماء سبيله ثم سار خالد حتى عسكر بالخزرتق مشرفا على الحيرة وأهلها متحصنون بقصورهم فحاصرهم خالد ولما رأى أهل الحيرة أن لا طاقة لهم بحرب خالد مالوا إلى الصلح وأقول من طلبه منهم عمرو بن عبد المسيح الملقب ببقيلة ثم تبعه بقية الرؤساء فصالحه على ١٩٠ ألف درهم وأهدوا له هدايا فاعتدها من الجزية بأمر أبي بكر وكتب لهم خالد كتابا هذانه :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديا وعمراً ابني عدى وعمرو بن عبدالمسيح وإياس بن قبيصة وحيرى بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به عامدهم على ١٩٠ ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حديساً عن الدنيا تاركاً لها وعلى المعة وإن لم يمنهم فلا شيء عليهم حتى يمنهم وإن غدروا بقول أو قول فالذمة منهم بريئة^(١) وكتب في شهر ربيع الأول من سنة ١٢ : ومما يستطرف ذكره أنّ رجلاً من الأعراب اسمه شويل كان أسلم على يدى النبي صلى الله عليه وسلم فسمعه ذات مرة يبشر المسلمين بأن ستفتح عليهم قصور الحيرة فسأله أن يعطى من سببهم كرامة بذت عبدالمسيح فقال له عليه السلام هي لك فلما أراد خالد صلحهم جعل من شروط الصلح أن يسلموا إليه كرامة فأعظم أهلها ذلك لخطرها فقالت لهم كرامة دعوه فإنه رجل أحق رآنى في شيبتي فظن أن الشباب يدوم فأسلموني له فإني سأفتدى منه فلما وصلت إلى الرجل قالت ما أربك من عجوز كما ترى فادنى قال لا إلا على حكى قالت فلك حكك فقال فاست لام شويل أن تقصتك عن ألف درهم فاستكثرت

(١) يظهر أن هذه الجملة مدرجة في الرواية لأن التاريخ بالهجرة لم يكن إلا أيام عمر

ذلك لتخذه ثم أتته بها ورجعت لأهلها قد سامع الناس بذلك فعنفوه قال ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف فأبوا عليه إلا أن يخاصمهم فقال كانت نيتي غاية العدد وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف فقال خالد أردت أمراً وأراد الله غيره فأخذ بما يظهر وندعك ونيتك . ولما صالح أهل الحيرة خرج صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف فصالحه على باتقيا وباروسا وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطئ الفرات على عشرة آلاف وكتب لهم كتاباً هذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد باتقيا وباروسا جميعاً على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة : القوي على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله في كل سنة وإنك قد نقتبت على قومك وان قومك قد رضوا بك وقد قبلت ومن معي من المسلمين ورضيت ورضى قومك فلك الذمة والمنعة فإن منعناكم قلنا الجزية والإفلا حتى نمنعكم)

ولما رأى دهاقين البلاد ما تم لخالد من الظفر أتوه فصالحوه على ما بين الفلاليج^(١) إلى هرمز جرد^(٢) على ألفي ألف درهم وكتب لهم بذلك كتاباً : ثم بعث خالد عماله ومسالحه منهم عمال الخراج لجبايته ومنهم أمراء الثغور : وكتب في مقامه بالحيرة كتابين أحدهما إلى ملك فارس والآخر إلى مرزابة الفرس ووسايتهم وصورة الأول - بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس أما بعد فالحمد لله الذي حل نظامكم ووهن كيدكم وفزق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شراً لكم فادخلوا في أمرنا ندعكم في أرضكم ونجوزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة: وصورة الثاني - (بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد إلى مرزابة فارس أما بعد فاسلوا تسلموا وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية وإلا فقد جئتمكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر وكان أهل فارس في ذلك الوقت في ارتباك داخلي بشأن من

(١) فلاليج السواد قرأها واحداً فلوجة والفلوجة الكبرى والصغرى قربتان

من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر (٢) ناحية من أطراف العراق

يتولى الملك فيهم ولم يكن منهم في ذلك الوقت إلا المدافعة عن بهر سير وهي إحدى المدائن التي سميت بها مدائن كسرى وكانت في الغربي من دجلة أمام الإيوان الذي كان في الجهة الشرقية منها : فلما جاءتهم كتب خالد أرادوا أن يبنوا أمراخلافهم فاختاروا رجلا يولونه الملك وليس من بيته إلى أن يجردوا من آل كسرى من يولونه وهو الفرخذاذا بن البندوان

ولما استقام لخالد أمره أراد أن يسير لإغاثة عياض بن غنم الذي أرسل ليفتح العراق من شماليه ويلتقي بخالد فاستخلف خالد على الحيرة القعقاع بن عمرو وخرج حتى انتهى إلى الأنبار (١) وقد تحصن أهلها وخذقوا على أنفسهم وأشرفوا من أعالي الحصون فأمر خالد جنده أن يرشقوهم بالنبل ففعلوا وأصابوا في عدوهم ثم انتهى الأمر بأن طلب قائد جند الأنبار الصالح على أن يخليه ويأخذه بأمنه في جزيرة خيل ليس معهم من المتاع والأموال شيء فأجابه إلى ذلك خالد وتسلم الأنبار وصالح من حولها ثم استخلف عليها الزرقان بن بدر وقصد عين التمر (٢) وبها يومئذ مهرا بن بهرام جويين في جمع عظيم من الفرس وعقة بن أبي عقة في جمع عظيم من العرب من التمر وتغلب وإياد ومن لف لفهم فلما سمعوا بقدوم خالد فقال له صدقت لعمرى لا تتم أعلم بقتال العرب وإنكم لمثلنا في قتال العجم فلزم مهرا بن عين التمر وخرج عقة على تعبئة يريد مقابلة خالد بالطريق فقدم عليه خالد في تعبئة واقتل الجندان فأسر خالد عقة ولم يكن إلا قليل قتال حتى انهزم جنده ولما وصل خبر الهزيمة إلى مهرا بن هرب في جنده تاركاً الحصن أما فل جند عقة من العرب والعجم فإنهم رجعوا إلى الحصن واعتصموا به حتى جاءهم خالد فاستنزطهم من حصنهم بدون أمان وقتل معظمهم ووجد في بيتهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل منهم نصير أبو موسى بن نصير وسيرين أبو محمد بن سيرين وحران مولى عثمان وغيرهم فقسمهم خالد في الناس وكان من عقب هؤلاء علماء أجلاء وجاء خالد وهو بمقامه كتاب من عياض بن غنم يستنجده وهو محاصر دومة الجندل وأهلها محاصروه فأرسل إليه خالد هذا الكتاب :

(١) مدينة على الفرات غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ

(٢) بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة وهي على طرف البزبة

من خالد إلى عياض إياك أريد

وهو أخصر كتاب فيما نعرف : ثم سار إلى دومة وقد تجمعت بها طوائف كثيرة من العرب المنتصرة ولما بلغهم دنو خالد قال لهم أحد رئيسهم أكيدر بن عبد الملك أنا أعلم الناس بخالد لا أحد أمين طائرا منه ولا أحد في حرب ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوبا أو كثروا إلا انهزموا عنه فأطيعوني وصالحوا القوم فأبوا عليه فقال لن أمالكم على حرب خالد فشانكم فخرج لطيته وقتل في خروجه هذه ثم سار خالد حتى نزل بدومة وعلى من فيها الجردى بن ربيعة ورؤساء القبائل التي جاءت لتجدتهم فناهدهم خالد بجنوده هو من جهة وعياض من جهة فكانت الهزيمة على أهل دومة ولم ينج منهم من القتل إلا بنى كلب لأنهم كانوا حلفاء نعيم فأجارهم عاصم بن عمرو النميمي وبعد أن أقام خالد قليلا عاد إلى الحيرة لما بلغه من تحرك المعجم لاعادة الكرة على المسلمين وأرسل سربتين إلى الحصيد^(١) والخنافس فأرقت بمن تجمع بهما من العدو ثم سار خالد حتى أتى المصيح وهناك وافته سراياه كما أمر فكانت لهم واقعة مع العرب المتجمعين هناك أذاقهم نكالا ثم كانت له وقائع بالثي^(٢) والزميل ثم في الفراض وهي تخوم ما بين الشام والعراق والجزيرة وكان ذلك في رمضان وفي الفراض اجتمع عليه الروم والفرس والعرب فانتصر عليهم خالد جميعا وكانت هذه الواقعة في منتصف ذي القعدة ثم أقام بها عشرأ وبعد ذلك أذن في الرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من القعدة سنة ١٢ وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجند وأظهر أنه في الساقة ولكنه خرج من الفراض حاجا معه عدة من أصحابه يعمتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت فتأتى له من ذلك ما لم يتأت لدليل أوريبان فما توافى إلى الحيرة أخرجه حتى وافاه مع صاحب الساقة فتدما معا وخالدا وأصحابه ملحقون لم يعلم بحجة إلا من أفضى إليه بذلك من الساقة ولم يعلم أبوبكر بذلك إلا بعد فمتب عليه ووافاه كتاب أبي بكر بصرفه إلى الشام منصرفه من حجه إلى الحيرة وهذا هو الكتاب الذي أرسله إليه أبوبكر دسر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك

(١) موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة والخنافس قرب الأنبار تقام فيه

سوق للعرب (٢) موضع بالجزيرة قرب الرصافة وبقره الزميل

فإنهم قد شجروا وأشجوا وإياك أن تعود لمثل ما فعلت فإنه لم يشج الجوع من الناس بعون الله شجيك ولن ينزع الشجى من الناس نزعك فليهنئك ابا سليمان النية والحظوة فآتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فخسر وتخذل وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن وهو ولي الجزاء»

كانت مدة خالد بالعراق سنة وشهرين من المحرم بدء السنة الثانية عشرة إلى صفر من سنة ١٣ وقد فعل في هذه السنة ما لم يفعله قائد جيش : اقتطع من بلاد المعجم حوض نهر الفرات من شمالي الأبله إلى الفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرقي الفرات وصادم جنود الفرس والعرب والروم في عدة مواقع لم يقهر فيها مرة وكان اسمه يسبقه إلى كل موقعة أرادها وكان في كل عمله فاتحاً لا مغيراً فإنه كان يعد حمة طريقه ليأمن أن يوتى من خلفه وكان إذا افتتح بلداً أقام فيه أميراً من قبله ينظر شؤونه وآخر يجبي الخراج من أهل الذمة ومن أحسن ما يؤثر عنه أنه لم يكن يتعرض للفلاحين بسوء بل كان يعاملهم بالرأفة ويمنعهم من عدوهم حتى صاروا يفضلون حكمه على حكم العرس الذين كان عظماؤهم يستعبدونهم ويدلونهم وعلى نسبة رأفته بهؤلاء كانت شدته على المقاتلين وأهل الحرب وكان لا يصبر عن الميدان إذا رأى الجنود ينظر بعضها بعضاً بل سرعان ما يخرج طالباً رئيس القوم للبارزة وفيها القضاء على خصمه فلا يطول أمر الحرب بعده . وعلى الجملة فهذه السنة كانت لخالد غزوة في جبين تاريخه وما بين عظيم عله ما قاله الهيثم البكائي . قال : كان أهل الأيام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذي يبالغهم ويقولون ماشاء معاوية نحن أصحاب ذات السلاسل (وهي أول واقعة بين خالد والفرس) ويسمون ما بينها وبين الفراض ما يدكرون ما كان بعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل

غزو الروم

كان إرسال الجيوش لافتح بلاد الشام متأخراً عن إرسال خالد لافتح العراق فإن أبا بكر في أواخر سنة ١٢ من الهجرة اختار من قواد المسلمين أربعة من كبار القواد وهم عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة والثلاثة الأولون قرشيون والرابع قحطاني وتخير لكل منهم جنده وأمر كل واحد أن يسير بجنده من طريق سماها له وعين لكل منهم الولاية التي يتولاها بعد

الفتح لجعل لعمر فلسطين وليزيد بن أبي سفيان دمشق ولابي عبيدة حمص ولشرحبيل الاردن فسارت هذه الجيوش من الطريق التي عينها لهم يتبع بعضهم بعضا وكان عدد جميع الجنود التي سيرت قبل ان ياتيهم مدد خالد بن الوليد ستة وثلاثون ألفاً

لما علم الروم بمسير الجنود الإسلامية إليهم اهتم بالامر هرقل وكان نازلاً بمحاص وكان قد علم تفرق جنود المسلمين على أربعة من القواد فأراد أن يقاتلهم متفرقين لأن العدد عنده كثير فيمكنه أن يشغل كل أمير بأضاف مامعه ولما علم بذلك الرؤساء الأربعة تكاتبوا وسألوا عمرو بن العاص ما الرأي ؟ فراسلهم أن الرأي الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرب فيه لأحد من استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا فاستحسنوا الرأي واتعدوا اليرموك (١) ليجمعوا به وكتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمرو فجاءهم كتابه بمثل رأي عمرو وأمرهم أن يجتمعوا باليرموك متساندين وأن يصلي كل رجل بأصحابه . بلغ ذلك هرقل فكتب إلى قواده أن اجتمعوا فاجتمعوا ونزلوا بالروم منزلاً واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب فدلوا الواقوسة (٢) وهي على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقاً لهم وهو طيب لا يدرك وقد أراد رؤساء الروم أن تستفيق الجنود ويأمنوا بالمسلمين وترجع إليهم أفئدتهم عن طيرتها وقد وافتهم الجنود الإسلامية هناك فنزلوا بجذائهم على طريقهم وليس الروم طريق إلا عليهم فصاؤوا كأنهم محصورون ودام الأمر على ذلك صفر من سنة ١٣ وشهرى ربيع لا يقدر من الروم على شيء ولا يخلصون إليهم للهب وهو الواقوسة من وراثهم والخندق من أمامهم وكان المسلمون استمدوا أبا بكر في شهر صفر فكتب إلى خالد ليأحق بهم وأمره أن يخلف على العراق المثنى بن حارثة بمن استخاص من جند العراق وهم نحو عشرة آلاف وسار سيراً حثيثاً حتى وجى فرسه وصادف قدوم خالد أن قدم مدد عظيم على الروم وكانت عدة جنود الروم على ما حكاها الطبري . ٢٤ ألفاً

جاء خالد فوجد المسلمين يقاتلون متساندين أي أن كل أمير يحزك جنوده مستقلاً

(١) واد في طريق الغور يصب في نهر الأردن

(٢) واد في أرض حوران

عن غيره وقد علم أن الروم قد عزموا على الخروج من خنادقهم للصدمة الكبرى لجمع الأمراء وخطب فيهم قائلاً إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم فإن هذا يوم له مابعده ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية وأنتم على تساند وانتشار فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي وإن من ورائكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبتة ، قالوا فهات فما الرأي قال إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنتياسر ولو علم الذي كان ويكون لكان قد جمعكم إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيم وأنفع للشركيين من امدادهم ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لاحد من أمراء الجنود ولا يزيد عليه إن دانوا له إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله هلدا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له مابعده إن رددناهم إلى خنادقهم اليوم لم نزل نردم وإن هزمونا لم نفلح بعدها فهلورا فلتتعاود الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعوني اليكم اليوم فأمروه فمبي خالد الجيش تعبئة لم تعبها العرب قبل ذلك قسم الجيش إلى ثمانية وثلاثين كردوساً (فرقة) رتب القلب ١٨ كردوساً وأقام فيه أبا عبدة وجعل الميمنة ١٠ كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة ١٠ كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان وجعل لكل كردوس رئيساً ياتمر بأمر رئيس الميمنة أو الميسرة أو القلب وكان كل كردوس يزيد قليلاً عن الألف وجعل للجيش قاصداً يذكروهم وكان القاص أبو سفيان بن حرب فكان يقف على الكراديس ويقول الله الله إنكم زادة العرب وأنصار الإسلام وإنهم زادة الروم وأنصار الشرك اللهم إن هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك . وقال رجل لخالد ما أكثر الروم وأقل المسلمين فقال خالد ما أقل الروم وأكثر المسلمين إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال والله لو ددت أن الأشقر براء من توجيهه وأهم أضعفوا في العدد (الأشقر فرسه)

وخرجت الروم في تعبئة لم ير مثلها فأمر خالد مجنبتى القلب أن ينشبا القتال وكان فيهما عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو ففعلوا وكان القعقاع يرتجز :

يالتقى القاك في الطراد قبل اعتزام الجحفل الورد وأنت في حلبتك الورد
يرتجز عكرمة :

قد علمت بهكنة الجوارى أنى على عكرمة أحامى

وكانت هذه الأراجيز لهم تقوم الموسيقى في تشجيع القلوب
نشب القتال والتحم الناس وقطارد الفرسان : وأمر خالد بالزحف العام ونهد
خالد بالقلب حتى كان بين خيل الروم ورجلهم وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق
المهرب فلما وجدت خيلهم مذهبا ذهبت وتركوا رجلهم في مصافهم وخرجت خيلهم
تشتد بهم في الصحراء ولما رأها المسلمين كذلك أفرجوا لها ولم يخرجوها
فذهبت فنفترقت في البلاد وأقبل خالد ومن معه على الرجل فكأنما هدم بهم حائط
فاقتحموا في خندقهم فاقنحمه عليهم فعمدوا إلى الواقصة من ررائهم حتى هوى فيها
كثير منهم فتهافت فيها على ما يقول الطبرى ١٢٠ ألف سوى من قتل بالمعركة من
الخيل والرجل وكان القتال قد استمر طول النهار ومعظم الليل وأصبح خالد وهو
في رواق رئيس جند الروم

وكان لكثير من فرسان المسلمين في ذلك اليوم القدح المعلى في الثبات والصبر منهم
عكرمة بن أبى جهل فإنه كان يقول قاتلت رسول الله في كل موطن وأفز اليوم ثم
ينادى من يبايع على الموت فيبايعه أرباب النجدة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا
جميعاً قدام فسطاط خالد وهو في وسط القلب حتى أثبتوا جميعاً جراحا وقتلوا إلا من
برأ منهم وأتى خالد عند الصبح بعكرمة جريحاً فوضع رأسه على فخذه وبعمر بن
عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر في حلوقهما الماء
ويقول كلا زعم ابن الحنتمة أنا لانسشهد (يريد عمر) وقابل النساء في ذلك اليوم
في جولة وقتل من المسلمين في اليرموك نحو ثلاثة آلاف بينهم كثير من الوجوه والفرسان
ولما بلغ خبر هذه الموقعة هرقل واهزام نخبة جيوشه هذه الهزيمة المنكرة وهو
دون حصص ارتحل فجعل حصص يذو بين الجنود الإسلامية وقال سلام عليك يا سوريا
سلاما لالقاء بدمه

في أثناء الموقعة جاء بريد المدينة وفيه خبر وفاة أبى بكر وخلافة عمر بن الخطاب
وعزل خالد عن إمارة الجيش وتولية أبى عبيدة قائداً عاماً مكانه فأخذ خالد الكتاب

وأسرّه إلى أبي عبيدة ولم يذعه لثلاثين به قوّة الجنود وأخذ الكتاب فوضعه في كنفه حتى انتهت الموقعة بهذا النصر فسلم الكتاب إلى أبي عبيدة وسلم عليه بالإمارة ومما يؤثر عن خالد في هذا اليوم قوله : الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت وكان أحب إلى من عمر . والحمد لله الذي ولى عمر وكان أبغض إلى من أبي بكر ثم الزمنى حبه جيش عدته أربعون ألفاً يغلب جيشاً فيه خمسة أمثاله لا بد أن يبحث فيه عن سبب ذلك الفوز والعدد الكبير . مدرب على الحروب وخوض المعامع وكان قريب عهد بالانتصار على الجنود الفارسية . يقولون أن ارتباك الدول التي حاربها المسلمون كان سبباً في فوزهم هذا الفوز السريع : كان يمكن أن يكون هذا سبباً لو كانت الارتباكات منعت تلك الدول عن حشد الجنود ومساعدة الثغور فكان في ذلك فرصة لمن يغزوهم أما وقد حشدوا ذلك العدد الجسيم مسلحاً منظماً معبئاً أعظم تعبية فلا بد أن يكون هناك سبب وراء العدد والعدد ذلك أن الجندي المسلم كان يخوض هذه المعامع وقلبه متأثراً بما يرى من الأول ثقته بأن العاقبة له كقراءه من الكتاب وما سمعه من الرسول عليه الصلاة والسلام من التبشير بهذه الفتوح العظيمة : وهذه الثقة في قلبه بمنزلة مدد من الله يؤيده الثاني أنه واثق بالعاقبة في الأخرى فهو إن قتل كان شهيداً عاقبته الحسنى وزيادة وإن ظفر كان ذلك خيراً فهو يرجو إحدى الحسينين إماموت بعده سعادة وإما فوز فيه نحر الدنيا وإسعاد دينه أضف إلى ذلك ما وقفوا إليه من هؤلاء القواد العظماء الذين أعجزوا من بعدهم أن يقدم أقدامهم وقليل كانت أمثالهم في تاريخ الشرق فرحم الله خالداً فقد كان زينة في تاريخ أبي بكر : وإلى هنا انتهت الأعمال الكبرى التي حدثت بين المسلمين وبين دولتي الروم والفرس في أيام أبي بكر وقطبها خالد بن الوليد المخزومي . يظهر لنا هذا التاريخ القصير الذي لم يستمر أكثر من سنتين وأربعة أشهر ما وصفنا .

به أبا بكر من صدق العزيمة ومضائها

إدارة البلاد في عهد أبي بكر

كانت الجزيرة العربية هي البلاد التي تحتم الإدارة الإسلامية نهائياً وكان أبو بكر قد جزأها إلى ولايات وعلى كل ولاية أمير من قبله وكان لهذا الأمير إقامة الصلاة . والفصل في التضياع وإقامة الحدود فهو أمير قاض منفذ لأن أبا بكر لم يعين قضاة . يتولون القضاء دون الأمراء وهذه ولايات الجزيرة لعهد :

- (١) مكة وأميرها عتاب بن أسيد وهو الذي ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم
- (٢) الطائف وأميرها عثمان بن أبي العاص وهو الذي ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم
- (٣) صنعاء وأميرها المهاجر بن أبي أمية وهو الذي ولي فتحها بعد الردة
- (٤) حضرموت وواليتها زياد بن ليث (٥) خولان وواليتها يعلى بن أمية
- (٦) زيدور مع وواليتها أبو موسى الأشعري (٧) الجند وأميرها معاذ بن جبل
- (٨) نجران وواليتها جرير بن عبدالله البجلي (٩) جرش وواليتها عبدالله بن ثور
- (١٠) البحرين وواليتها العلاء بن الحضرمي

أما العراق والشام فكانت لاتزال الحروب قائمة فيها وكان أمراء الجندهم ولاة الأمر فيها ولم يكن لابي بكر وزير وإنما كان عمر بلي القضاء وأبو عبيدة أمينا لبيت المال قبل أن يسيره إلى الشام

وكان يكتب له زيد بن ثابت ويكتب له الاخبار عثمان بن عفان وكان يكتب له من حضر وفي عهده كتب القرآن لأول مرة في مصحف واحد يجمع سورة كلها وكان قبله محفوظاً مرتباً في الصدور ومكتوباً آيات وسوراً ليست مجتمعة فلما حصلت حروب الردة وكان تقتل فيها كثير من القراء رأى أبو بكر أن يجمع القرآن في مصحف واحد واختار لذلك كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد القراء الذين كانوا يستظهرون القرآن وهو زيد بن ثابت فقام بالأمر وكتب أول مصحف بملا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والحفاظ منهم ووضع هذا المصحف عند أبي بكر رزق الخليفة

كان أبو بكر رجلاً تاجراً قبل أن يستخلف واشتغل بالتجارة بعد الخلافة ستة أشهر ثم وجد أن التجارة تشغله عن أمور الناس فقال لا والله ما تصاح أهو والناس التجارة وما يصالحهم إلا التفرغ لهم والنظر في شأنهم ولا بداعياً إلى ما يصلحهم فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصاحه ويصاح عياله يوماً بيوم وكان يهجو ويعتمر وكان الذي فرضوه له في السنة ستة آلاف درهم (- بالتقريب ١٢٨ جنبها مصرياً) ولما حضرته الوفاة قال ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإني لأصيب من هذا المال شيئاً وإن أرضى التي يمكن كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أهوالم فدفعت ذلك إلى عمر فقال عمر لقد أتعب من بعده . فن هذا يفهم أن المبدأ الذي اختطه أبو بكر هو أن الخليفة

لا ينبغي أن يشغله شيء من التجارات عن النظر فيما وكل إليه من أمور العامة وأنه يأخذ ما يفرض له من بيت المال والظاهر أن الفرض لغيره وليس هو الذي يفرض لنفسه وكان هذا المأخوذ فيه شبهة في نظر أبي بكر فأمر برده إلى بيت المال
إرزاق الجند

كان الجند متطوعين لا يجتمعهم ديوان وكانوا يأخذون أربعة أخماس الغنيمة يوزعها عليهم رئيس الجند غير ما يناله القاتل من سلب القتل وغير ما ينقله رئيس الجند المتأزين وكان أبو بكر يسوي في العطاء لا يفضل أحداً على أحد
إرزاق العمال

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم وصدقات المسلمين وجزية أهل الذمة ومن ذلك كان يعطى العمال أرزاقهم ويرزق ما بقي على من عينوا في الكتاب لمصارف الزكاة
وفاة أبي بكر

حم أبو بكر لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣ ومكك محموراً ١٥ يوماً وتوفي في مساء ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣ (٢٢ أغسطس سنة ٦٣٤) فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ودفن في حجرة عائشة بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم يميل عنه قليلاً إلى الجهة الشرقية

المحاضرة الحادية والعشرون

كيف انتخب عمر - ترجمته - أول خطاب له - الفتوح في بلاد الفرس
بده القادسية

٢ - عمر بن الخطاب

كيف انتخب

لما مرض أبو بكر وأحس بدنو أجله رأى مصلحة المسلمين في أن ينتخب خليفته قبل موته وذلك ما يعبر عنه بولاية العهد وكانوا يحسون دائماً بأن كثيرين يرون أنفسهم أهلاً للخلافة وهم أحق بها فإذا ترك الناس من غير عهد اتثر عقد نظامهم

وكان يرى عمر بن الخطاب أجدر الناس بالخلافة ولكنه أحب أن يستشير فيه كبار الصحابة فدعا بعبد الرحمن بن هوف وقال أخبرني عن عمر فقال يا خليفة رسول الله هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غاظة فقال أبو بكر ذلك لأنه يراني رقيقا ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرا مما هو عليه ويا أبا محمد قدر مقلته فرأيتني إذا غضبت على الرجل في شيء أراني الرضا عنه وإذا كنت له أراني الشدة عليه لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئا قال نعم ثم دعا عثمان بن عفان فقال يا أبا عبد الله أخبرني عن عمر قال أنت أخبر به فقال أبو بكر على ذلك يا أبا عبد الله قال اللهم علمي به أن سريره خير من علانيته وأن ليس فينا مثله قال أبو بكر رحمك الله يا أبا عبد الله لا تذكر مما ذكرت لك شيئا قال افعل فقال له أبو بكر لو تركته ما عدوتك وما أدري لعله تاركه والخيرة له الأيلى من أموركم شيئا ولوددت أنى كنت خلوا من أموركم وإنى كنت فيمن مضى من سلفكم

ولما تم له الرأي دعا عثمان بن عفان فأملى عليه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين أما بعد) - ثم أعمى عليه فكتب عثمان - (فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرا) ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ على فقرا عليه فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس إن افلتت في غشيتي قال نعم قال جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله وأقرها أبو بكر من هذا الموضع قال الطبري ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس بمسكته فقال لهم أترضون بمن استخاف عليكم فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة وإنى قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسعوا له وأطيعوا فقالوا سمعنا وأطعنا

وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ هـ (٢٣ أغسطس

سنة ٦٣٤ م)

ترجمة عمر

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من نبي عدي بن كعب بن أوى وأمه حنمة بنت هاشم بن المغيرة من نبي مخزوم بن يقظة بن مرة ولد لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد رسول الله ﷺ تربى على الشهامة والجدوة والجرأة وقول الحق لا يرى فيه هوادة فلما أشرف رسول الله ﷺ بالرسالة كانت سنة ٢٧ سنة ولما دعى إلى الإسلام لم يكن في بدء أمره مقتنعا بصحة الرسالة فخارب

الإسلام حرباً شديداً حتى كان ينال المسلمين منه أذى كثير حتى كانت هجرة الحبشة ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى ومفارقة الأوطان فكان ذلك مما دعاه إلى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح فأمن وصدق وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي التي كان المسلمون مستخفين بها وهناك أعلن لإيمانه فكانت به للمسلمين قوة وذهب إلى البيت الحرام فأعلن لقريش تصديقه بالدين الإسلامي وهناك أصابه من أذى المشركين ما كان يصيب إخوانه وكادوا يقتلونه لمولانا أن أجاره منهم العاصي بن وائل السهمي ولما كانت هجرة المدينة كان الناس يخرجون متسللين خيفة أن يحبسهم أهلهم أما هو فأعلن أنه مهاجر وقال من أراد أن تشكله أمه فليقتني وراء هذا الوادي ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد و حضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهده كلها فلم يتخاف عن واحدة منها وكان كثيراً ما يشير على الرسول فينزل القرآن موافقاً لما أشار وكان هو وأبو بكر بمنزلة الوزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صاهره عليه السلام فتزوج بنته حفصة بعد أن قتل عنها زوجها : ولما لحق عليه السلام بربه كان لعمراً كبير الفضل في الإسراع ببيعة أبي بكر قطعاً للنزاع في أمر الخليفة وخوفاً أن يتشتت الأمر وكان لأبي بكر بمنزلة الوزير الأول يشير عليه ويعينه وكان أبو بكر يحيل عليه فصل القضايا فكانه كان قاضيه وإن لم يتسم باسم القاضي وقد أفادته صحبة أبي بكر الأمانة في الأمور وكثيراً غيرها

أول خطاب له

بعد أن بويع بالخلافة عقب وفاة أبي بكر صعد المنبر فقال هذه الكلمات القصيرة وهي تنبئ عن سياسته التي ساس بها العرب قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (إنما مثل الجمل كمثل جمل أنف اتبع قائده فليُنظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لأحملكم على الطريق) والجمل الأنف هو الجمل الذليل الموالي الذي يأنف من الزجر والضرب ويعطى ما عنده من السير عفواً سهلاً وهذا تشخيص حسن للأمة الإسلامية لعهد فإنها كانت سائمة مطيعة إذا أمرت اتمرت وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسؤولية الكبرى على قائدها بأنه يجب عليه أن يتبصر حتى لا يواجه هذه الأمة إلى ما فيه خطر عليها بل يتخير لها أساس الطرق وأسهلها ولذلك وعدم مقسماً فقال أما أنا فورب الكعبة لأحملكم على الطريق ويفهم بالبداية أنه الطريق الأقوم الذي لا اعوجاج فيه والعرب

من شأن لغتها الاكتفاء بدلالات الأحوال

الفتوح في عهد عمر

في بلاد الفرس

لما صرف أبو بكر خالد بن الوليد إلى العراق أمره أن يستخلف على البلاد المثنى بن حارثة الشيباني ويترك عنده نصف الجنود ففعل خالد ما أمر به وأقام المثنى بالحيرة وهي دار إمارته وكان قد استقام أمر الفرس على شهر براز فوجه إلى المثنى والتقى به عند بابل وأوقع به وقعة شديدة انهزم فيها بمن وجنده وتبع الطلب الفل إلى قرب المدائن ثم عاد المثنى إلى الحيرة وأبطأت عليه أخبار أبي بكر وتوقع أن الفرس يجمعون له جموعاً لا يقدر على مقاومتها فخلف على الجند بشير بن الخصاصية وخرج نحو المدينة ليخبر أبا بكر بخبر المسلمين وأعدائهم وليستأذنه في الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط إلى قتال فارس وحرابها ومعونة المهاجرين منهم فقدم المثنى وأبو بكر في مرضه الأخير فاستدعى عمر فقال له استمع يا عمر ما أقول لك ثم أعمل به إنى لأرجو أن أموت من يوى هذا فإن أنا مت فلا تُمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتني متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو أتى عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا وتعاقبتنا فاضطربت المدينة نارا وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاية أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجرأة عليهم . ومات أبو بكر من يومه فبعد أن دفنه عمر ندب الناس مع المثنى وقال عمر كان أبو بكر قد علم أنه يسوءنى أن أوامر خالد على العراق حين أمرنى بصرف أصحابه وترك ذكره كان الناس يجمعون عن الخروج إلى فارس لما فى أنفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة فخطبهم المثنى فقال أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فإننا قد تبججنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم وقلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها وقال لهم عمر إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجمة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين الطراء (١) المهاجرون عن موعود الله سيروا فى الأرض

(١) الطراء الغرباء وهم الذين يأتون من مكان بعيد

الإسلام حرباً شديداً حتى كان ينال المسلمين منه أذى كثير حتى كانت هجرة الحبشة ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى ومفارقة الأوطان فكان ذلك مما دعاه إلى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح فأمن وصدق وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي التي كان المسلمون مستخفين بها وهناك أعلن إيمانه فكانت به للمسلمين قوة وذهب إلى البيت الحرام فأعلن لقريش تصديقه بالدين الإسلامي وهناك أصابه من أذى المشركين ما كان يصيب إخوانه وكادوا يقتلونه لمولانا أجاره منهم العاصي بن وائل السهمي ولما كانت هجرة المدينة كان الناس يخرجون متسللين خيفة أن يجسهم أهلهم أما هو فأعلن أنه مهاجر وقال من أراد أن تشكله أمه فليقتني وراء هذا الوادي ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد و حضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهده كلها فلم يتخاف عن واحدة منها وكان كثيراً ما يشير على الرسول فينزل القرآن موافقاً لما أشار وكان هو وأبو بكر بمنزلة الوزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صاهره عليه السلام فتزوج بنته حفصة بعد أن قتل عنها زوجها : ولما لحق عليه السلام بربه كان لعمراً كبير الفضل في الإسراع ببديعة أبي بكر قطعاً للنزاع في أمر الخليفة وخوفاً أن يتشتت الأمر وكان لأبي بكر بمنزلة الوزير الأول يشير عليه ويعينه وكان أبو بكر يحيل عليه فصل القضاء يافكأنه كان قاضيه وإن لم يتسم باسم القاضي وقد أفادته صحبة أبي بكر الأمانة في الأمور وكثيراً غيرها

أول خطاب له

بعد أن بويع بالخلافة عقب وفاة أبي بكر صعد المنبر فقال هذه الكلمات القصيرة وهي تنبئ عن سياسته التي ساس بها العرب قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (إنما مثل الجمل كمثل جمل أنف اتبع قائده فليُنظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لأحملكم على الطريق) والجمل الأنف هو الجمل الذليل الموافق الذي يأنف من الزجر والضرب ويعطى ما عنده من السير عفواً سهلاً وهذا تشخيص حسن للأمة الإسلامية لعهدده فإنها كانت سامعة مطيعة إذا أمرت اتمرت وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسؤولية الكبرى على قائدها بأنه يجب عليه أن يتبصر حتى لا يواجه هذه الأمة إلى ما فيه خطر عليها بل يتخير لها أساس الطرق وأسهلها ولذلك وعدم مقسماً فقال أما أنا فورب الكعبة لأحملكم على الطريق ويفهم بالبداهة أنه الطريق الأقوم الذي لا اعوجاج فيه والعرب

من شأن لغتها الاكتفاء بدلالات الاحوال

الفتوح في عهد عمر

في بلاد الفرس

لما صرف أبو بكر خالد بن الوليد إلى العراق أمره أن يستخلف على البلاد المثنى بن حارثة الشيباني ويترك عنده نصف الجنود ففعل خالد ما أمر به وأقام المثنى بالحيرة وهي دار إمارته وكان قد استقام أمر الفرس على شهر براز فوجه إلى المثنى والتقى به عند بابل وأوقع به وقعة شديدة انهزم فيها بمن وجنده وتبع الطلب الفل إلى قرب المدائن ثم عاد المثنى إلى الحيرة وأبطأت عليه أخبار أبي بكر وتوقع أن الفرس يجمعون له جموعاً لا يقدر على مقاومتها فخلف على الجند بشير بن الخصاصية وخرج نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين وأعدائهم وليستأذنه في الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط إلى قتال فارس وحررها ومعونة المهاجرين منهم فقدم المثنى وأبو بكر في مرضه الأخير فاستدعى عمر فقال له استمع يا عمر ما أقول لك ثم أعمل به إنى لأرجو أن أموت من يوى هذا فإن أنامت فلا نمتين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم حصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتني متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو أنى عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا وتعاقبنا فاضطربت المدينة نارا وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاية أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجرامة عليهم . ومات أبو بكر من يومه فبعد أن دفنه عمر ندب الناس مع المثنى وقال عمر كان أبو بكر قد علم أنه يسوءنى أن أؤمر خالداً على العراق حين أمرنى بصرف أصحابه وترك ذكره كان الناس يجمعون عن الخروج إلى فارس لما فى أنفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة فخطبهم المثنى فقال أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فإننا قد تبججنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها وقال لهم عمر إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجمة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين الطراء (١) المهاجرون عن موعود الله سيروا فى الأرض

(١) الطراء الغرباء وهم الذين يأتون من مكان بعيد

التي وهدمكم الله في الكتاب أن يورثكموها فإنه قال (ليظهره على الدين كله) والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولى أهله مواويث الامم أين عباد الله الصالحين - فكان أول منتدب المسير أبو عبيد بن مسعود الثقفي ثم قفاه رجلان سعد بن عبيد وسليط ابن قيس فأمر عمر على هؤلاء المنتدبين أسبغهم إجابة وهو أبو عبيد وقال له اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركمهم في الأمر ولا تتجهتد مسرعا حتى تبين فإنها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف . فصار أبو عبيدة بالجند وهو الأمير حتى بلغ الحيرة - كان الفرس في ذلك العهد قد ولوا عليهم آزره يدخت ملكة واختارت هي رستم أحد عظماء الفرس قائدا عاما للجنود الفارسية فدانت له الفرس عقب ورود أبي عبيد

كان أول ما صنعه رستم أن كتب إلى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين ودس في كل رستاق رجلا ليثور بأهله وكان ممن أرسله جابان ونرسي من القواد فأثاروا الناس من أعلى الفرات إلى أسفله واجتمع جند عظيم قام في التمارق (١) لما رأى ذلك المثني ضم إليه مسالحه وحذر وحينما جاء أبو عبيد أراح الجند قليلا ثم سار إلى التمارق فخارب جابان ومن معه وهزم جنده وأسر جابان أسره رجل من عامة العرب من ربيعة فقال له جابان إنكم معاشر العرب أهل وفاء فهل لك أن تؤمنني وأعطيك كذا وكذا قال نعم قال فادخلني على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه ففعل فأجاز أبو عبيد ما فعل الربيعي ولما علم القوم أنه الرئيس كلوا فيه بأبي عبيد فقال ماتروني فاعلامعاشر ربيعة أيؤهنه صاحبكم وأقتله أنا معاذ الله ما لزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم

لما انهزم الفرس ذهبوا إلى كسكر (٢) لاجئين إلى نرسي فاجتمع إليه الجنود الذين معه وقل جابان فتبعهم أبو عبيد والتقى بهم أسفل من كسكر فهزمهم وغلب على عسكر نرسي وأرضه وأخرب ما كان حول معسكرهم من كسكر : وهناك جاءه الدهاقين مسلمين فسالمهم وجاؤوه بهدايا من أطعمة فارس وألوانها فلم يأكل منها وقال بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوما من بلادهم أهرقوا دماهم دونه أولم يهرقوا فاستأثر عليهم.

(١) موضع قريب من الكوفة من أرض العراق (٢) كورة واسعة كانت قصبتها قبل أن يحصر الحجاج واسطاً خسرو سابور ثم صارت واسط قصبتها ومن مشهور نواحيها المبارك والمدار ونقيا وميسان ودست ميسان

بشيء يصيبه لا والله لا ياكل مما آفاه الله عليهم إلا مثل مايا كل أوساطهم
لما جاء رستم خبر الهزيمة جهز جيشاً آخر عظيماً يقوده بهمن جاذويه وأعطاه الراية
الكبرى لفارس المسماة درفش كايان وهرضها ثمانية أذرع وطولها اثنا عشر متراً
من جلود النمر فسار إليه أبو عبيد حتى نزل المروحة (١) ووضع البرج والعاقول
فبعث إليه بهمن إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا فعبير إليكم فأشار
الناس على أبي عبيد بعدم العبور فاج وترك الرأي وعبر بالمسلمين فدارت رحا الحرب
وفي آخر النهار قتل أبو عبيد لجال المسلمين جولة ثم تموا عابها وركبهم أهل فارس
فبادر رجل من ثقيف فقطع الجسر فانهى الناس إليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا
في الفرات فأصيب منهم يومئذ أربعة آلاف بين غريق وقيل وحى المثنى ومن معه الناس
وعقد الجسر وعبروا فأقاموا بالمروحة وهرب من الناس يشر كثير على وجوههم
واقضحوا في أنفسهم واستحبوا مما نزل بهم

وبلغت هذه المصيبة عمر فقال اللهم إن كل مسلم في حل منى أنافة كل مسلم يرحم الله
أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز إلينا ولم يستقل لكتنا له فتنة وحصل
في هذه الواقعة غلظتان الأولى مخالفة أبي عبيد لمن معه من رؤساء الجيش فإنهم نهوه
عن العبور فلم ينته والذي زاد تلك الغلظة تأييداً فاعلم ذلك الرجل الاحق عبد الله بن مرثد
الثقي من قطعه الجسر عند مارأى جولة المسلمين وإرادتهم العبور ولولا ثبات المثنى بن
حارثة لهلك المسلمون عن آخرهم

لم يبق مع المثنى من الجنود إلا القليل لا قدرة لهم على أن يحافظوا على مراكزهم ولا أن
يردوا عنهم هجمات عدوهم وقد لم بذلك عمر فشرع يبعث الأمداد إلى المثنى منهم جرير
ابن عبد الله البجلي في قومه من بني بجيلة فلما علم المثنى بقدهم طلب منهم أن يسيروا إليه
حتى يقابلوه على البويب (٢) وتقدمهم هو إليه فساروا إليه وكان رستم قد أرسل إلى المسلمين
جنداً مع قائداً اسمه مهرا ن فوقف أمامهم ويفصل بين الفريقين الفرات فأرسل مهرا ن إلى المثنى
يخبره بين أن يعبر بجنوده أو يعبر مهرا ن إليه وكان الجواب طبعاً أن طلب من مهرا ن العبور لأن
واقعة الجسر لم يمح أثرها بعد فعبير الفرس واقتلوا مع المسلمين وكان ذلك في رمضان وقد أمر المثنى

(١) على شاطئ الفرات الغربي تجاه قس الناطف وذلك بالقرب من الكوفة

(٢) نهر كان بالعراق موضع الكوفة يأخذ من الفرات

بالإفطار فأفطروا وكانت تعبئة الجيش خالدية فأبصر المثنى رجلا يستوفز ويستنتل من الصف فقال ما بال هذا قالوا هو بمن فتر يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل ققره بالرح وقال لا أبالك الزم موقفك فإذا أتاك قرنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل قال إنى بذلك لجدير فاستقتل ولزم الصف وكانت الحرب في هذه الموقعة من أشد ما صادفه المسلمون هولا لكثرة عدوهم ولكنهم اصطبروا صبراً جميلاً وكانت الهزيمة على الفرس بعد أن كاد يفنى قلب جنودهم ولما شرعوا في الهزيمة سبهم المثنى إلى الجسر فقطعه فأرادوا العبور فلم يمكنهم فذهبوا في البلاد مصعدين ومنحدرين بعد أن قتل منهم ما قدر بمائة ألف وبما يؤثر عن المثنى حكمة على نفسه في قطعه الجسر وإحراج العدو قال لقد عجزت عجزاً وقي الله شرها بما سبق لي أيام إلى الجسر وقطعه حتى أخرجتهم فإني غير عائد فلا تعودوا ولا تعتدوا بي أيها الناس فإنها كانت منى زلة لا ينبغي إحراج أحد إلا من لا يقوى على الامتناع : ثم أرسل المثنى في أثر المنهزمين من اتبعهم إلى أن وصلوا إلى السيب ^(١) بعد أن عمدهم لهم جسراً : وكانت هذه الواقعة من الوقائع الكبرى التي أوقعت الرعب في قلوب أهل فارس حتى سار المسلمون فيما بين الفرات ودجلة لا يمنعهم مانع ولا يقف في وجوههم محارب

وأقام المثنى بعد ذلك يصعد ويصوب في الجزيرة ويبدك السرايا بالإغارة وبما يدل على تنبه عمر لما كان يحصل بين أولئك الجنود أن المثنى أرسل رجلين من بكر بن وائل في جند فأغاروا على صفين وبها النمر وتغلب متساندين فأغاروا عليهم حتى رموا بطائفة منهم في الماء فنادوهم فلم يقلعوا عنهم وجعلوا ينادونهم الغرق العرق وجعل عتية و فرات البكر يان يذمران الناس وينادونهم تغريق بتغريق يذكرونهم يوماً من أيامهم في الجاهلية أحرقوا فيه قوماً من بكر بن وائل في غيضة من الغياض ثم انكفؤا راجعين إلى المثنى وقد غرقوهم : كانت لعمر عيون في كل جيش فكتب العيون إلى عمر بما قال عتية و فرات يوم بنى تغلب والماء فاستقدمهما عمر فسألها فأخبراه أنها قالا ذلك على وجه طلب ذحل الجاهلية فاستحفلها خلفا أنهما ما أرادا بذلك إلا المثل واعزاز الإسلام فصدقهما وردهما حتى قدما على المثنى

(١) كورة من سواد الكوفة وهما سيان الأعلى والأسفل من طسوج سورا

أمر القادسية (١)

نظر الفرس بعد هزيمة مهران إلى أنفسهم فوجدوا أنفسهم يضعفون أمام العرب ورأوا أن الاختلاف الذي هم فيه مما ساعد العرب على تقدمهم وانتصاراتهم فقالوا لرستم والفيرازن وهما عظيمي فارس والمستنقان في أمر سلطانها أين يذهب بكما لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهتم أهل فارس وأطمعنا فيهم عدوهم وإنه لم يبلغ من خطر كما أن تقر كما فارس على هذا الرأي وإن تعرضاها للهلكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن والله لاجتمعان أولئذ أن بكما قبل أن يشمت بنا شامت فرأى الرجلان أن كلام القوم حق فبحثا في كل نساء كسرى وسرا ربه عن عقب له يذنبن فبعد لاي وجدار جلا يدعى يزدرجرد من ولد شهر يار بن كسرى وهو ابن احدى وعشرين سنة فلكه الفرس واجتمعوا عليه وتبارى الرؤساء في طاعته ومعونته وحينئذ سمي الجنود لكل مسلحة كانت لكسرى أو موضع ثغر فسمى جندا الحيرة والانبار والمسالخ والإبلة . بلغ المثنى ذلك كله فكتب به إلى عمر ولم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السراد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد فخرج المثنى على حاميته حتى نزل بذي قار^(٢) ثم جاءهم كتاب من عمر يأمرهم بالانسحاب من بين أظهر الأعاجم والتفرق في المياه التي تلى حدود بلادهم فكان منزل المثنى ذاقار ونزل الناس بالجبل^(٣) وشراف^(٤) إلى غضى وغضى حيال البصرة وكانوا بحيث يغيث بعضهم بعضا إن كان فزع تم ذلك في ذى القعدة سنة ١٣ أما عمر فكتب إلى عمال العرب على الكور والقبائل في ذى الحجة سنة ١٣ لا تدعو أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى والعجل العجل وكان يريد توجيهه جيش كشيء إلى العراق حتى يقاتل جموع العجم بجموع العرب فأما القبائل التي طرقها على مكة والمدينة فرافقه بالمدينة وكذلك من كان من أهل المدينة على الصنف ما بينه وبين العراق وأما من كانوا أسفل منهم قانضموا إلى المثنى

- (١) بينها وبين الكوفة ١٣ فرسخا وبينها وبين العذيب أربعة أميال وهي على جادة الكوفة
- (٢) ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط
- (٣) موضع بالبادية على جادة طريق القادسية إلى ذبالة بينه وبين القرعا ١٦٠ ميلا
- (٤) بين واقصة والقرعا ومن شراف إلى واقصة ميلان

فلما تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدعى صرار^(١) فسكر به ولا يدري الناس ما يريد أيسير أم يقوم وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه به عثمان أو بعبد الرحمن بن عوف وكان عثمان يدعى في أمانة عمر رديفاً والرديف الرجل الذي يكون بعد الرجل فإذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس بن عبدالمطلب فقال عثمان لعمر ما تريد فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس عليه فأخبرهم الخبر وانتظر ما يقول الناس فقالت العامة سروسر بنا معك فدخل معهم في رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه في رفق فقال استعدوا وأعدوا فإني سائر إلا أن يجيء رأي أمثل من هذا ثم بعث إلى أهل الرأي فاجتمع إليه وجره الصحابة وأعلام العرب فاجتمع رأيهم جميعاً على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقوم ويرميه بالجنود فإن كان ما يرجو من الفتح والإعاد رجلاً وندب جنداً آخر فنادى عمر الصلاة جامعة وبعث إلى علي وكان قد خلفه على المدينة وإلى طلحة وكان على مقدمته ولما تكامل جمعهم قال لهم إن الله قد جمع على الإسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخواناً والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شوري بينهم بين ذوى الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن أقام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم أيها الناس إني إنما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوى الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفت (يريد علياً وطلحة) وهذا الخطاب بين ما كان يدور في رأس عمر من النظام الشورى ويوضح الأساس لذلك النظام . ثم أجال معهم الرأي فيمن يوليه قيادة ذلك الجيش العظيم واتفق الرأي أخيراً على تولية القائد العظيم سعد بن أبي وقاص الزهري القرشي وكان في ذلك الجيش حدّ الأمة العربية فإن عمر لم يدع رئيساً ولا إذا شرف ولا إذا رأى ولا إذا ساطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رامهم به فرمام بوجوه الناس وغرهم

(١) موضع على ثلاثة أميال من المدينة من طريق العراق

المحاضرة الثانية والعشرون

تمام القادسية - فتح المدائن

ثم أمر سعداً بالمسير وقال إذا انتهيت إلى زرود^(١) فانزل بها فسار حتى إذا وصل إلى زرود فنزل بها وتفرق الجنود فيما حولها من أمواه بنى تميم وأسد وانتظر اجتماع الناس وأمر عمر . وفي ذلك الوقت مات المثنى بن حارثة من جراحة كانت أصابته وقبل وفاته أرسل إلى سعد وصيته لأنه قد اختبر أمر العجم قبله أوصاه أن يقاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ماوراءهم وإن تكن الأخرى فاؤا إلى فئة ثم يكون أعلم بسيلهم وأجراً على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة لهم . ثم سار سعد من زرود حتى أتى شراف وفيها جاءه كتاب من عمر يقول فيه إذا جاءك كتابي هذا فاعشر الناس وعرف عليهم وأمر على أجنادهم وعينهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم القادسية واكتب إلى بالذي يستقر عليه أمرهم ففعل سعد ما أمر به فقدر الناس وعبأهم بشراف وأمر أمراء الأجناد وعرف العرفاء فعرف على كل عشرة رجلا وأمر على الرايات رجلا من أهل السابقة وعشر الناس وأمر على الأعشار رجلا من الناس لهم وسائل في الإسلام وولى الحرب رجلا فولى على مقدماتها ومجنيباتها وساقاتها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها فكان أمراء التعبئة يلون الأمير ويليهام أمراء الأعشار ثم أصحاب الرايات ثم القواد رومس القبائل ولم يفصل سعد من شراف إلا على تعبئة ويأذن عمر وهذا كتابه الذي أمره فيه بمبارحة شراف :

أما بعد : فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله واعلم أنك تقدم على أمة عديم كثير وعدتهم فاصلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وإن كان سهلا كؤودا لبحوره وفيوضه ودآدته^(٢) إلا أن توقعوا

(١) رمال بين الثعلبية والخزيمية على طريق الحاج إلى الكوفة

(٢) الدأدىء ما اتسع من التلاع وهي مسايل الماء

غيضان من فيض وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدءوهم الشدوا والضرب وإياكم والمناظرة
بجموعهم ولا يخذعنكم فإنهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم إلا أن تجادوهم وإذا انتهت
إلى القادسية والقادسية باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الأبواب لمآذتهم
ولما يريدونه من تلك الأصل وهو نزل رغب خصب حصين دونه قناطر وأنهار
ممتعة فتكون مسالحك على أبقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات
الحجر وحافات المدر والجراخ بينهما ثم الزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إذا أحسوك
أنضتكم رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وخدمهم وخدمهم فإن أتم صبرتم
لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونوئتم الأمانة رجوت أن تصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم
مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وإن تكن الأخرى كان الحجر
من أرضكم ثم كنتم عليها أجراً وبها أعلم وكانوا عنها جبن وبها أجهل حتى يأتي الله
بالتفتح عليهم ويرد لكم الكرة. وكتب إليه باليوم الذي يرتحل فيه من شراف فسار
سعد على تعبته والكتب بينه وبين عمر متواصلة

ثم جاءه كتاب آخر يقول فيه - واكتب إلى أين بلغ جمعهم ومن رأسهم الذي
يلي مصادمتكم فإنه قد منعتني من بعض ما أردت الكتاب به فقله على بما هجمتم عليه
والذي استقر أمركم عليه نصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن
صفة كأنى أنظر إليها واجماني من أمركم على الجلية - فكتب إليه سعد بصفة البلدان
القادسية بين الخندق^(١) والعتيق وأن ما هن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاج^(٢)
إلى الحيرة بين طريقتين فأما أحدهما فعلى الظهر وأما الآخر فعلى شاطئ النهر يدعى
الحضوض^(٣) يطلع من سلكه على ما بين الخورتق^(٤) والحيرة وأن ما عن يمين القادسية
إلى الوجلة فيض من فيض مياههم وأن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبل

(١) خندق سابور في بركة الكوفة حفره سابور بينه وبين العرب خوفاً من
شرم وأوله من هيت يشق طف الباذية إلى كاظمة مما يلي البصرة وينفذ إلى البحر
وبني عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمالح ليكون مانعاً لأهل التادية من السوار
(٢) ضيق (٣) نهر كان بين الحيرة والقادسية (٤) قصر كان بظاهر الحيرة
بناه أحد ملوك العرب بالحيرة وهو الزهمان بن امرئ القيس شرقي الفرات وغريه بساتين

إلب لأهل فارس قد خفوا لهم واستعدتوا لنا وإن الذي أعتدوا المصادمتارستم في أمثال له منهم فهم يحاولون إنفاضنا وإقحامنا ونحن نحاول انفاضهم وإبرازهم وأمر الله بعد ماض وقضاء مسلم إلى ما قدر لنا وعلينا فنسأل الله خير القدر في عافية - فكتب إليه عمر يأمره بالمقام بالقادسية وكان مما حاضه به على الوفاء بالأمانة قوله له إنى قد ألقى في روعى أنكم إذا لقيتم العدو هزمتوهم فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه فان لاهب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرنه بإشارة أو لسان كان لا يدري إلا عجمي ما كلبه به وكان عندهم أماننا فأجروا ذلك مجرى الأمان وإياكم والضحك الوفاء الوفاء فان الخطأ بالوفاء بقية وإن الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ربحكم وإقبال ربحهم واعلموا أنى أحذركم أن تكونوا شينا على المسلمين وسببا لتوهينهم

كان الفرس قد اتفقوا على تولية رستم أعظم قوادهم قيادة الجيش الذى يوجهونه لحرب المسلمين فرضى بذلك وقبل أن يفصل بجنوده بعث سعد دعاة إلى الملك حسب أمر عمر فاختر من جنده قوما عليهم نجار ولهم آراء ونفراً لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء مخرجوا من العسكر حتى جاءوا المدائن فاستأذنوا بالدخول على الملك فأذن لهم ومع يزيد جرد وزراؤه ووجوه أرضه فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال لترجمانه سلهم ما جاء بهم ومادعاهم إلى غزونا والولوع ببلادنا أمن أجل أنا أجمعناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فرد عليه النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد قد كرتاريخ لإرسال الرسول وما كان من شأن العرب معه ودخولهم في دينه وقال بعد ذلك ثم أمرنا أن نبداً بمن يلينا من الامم فدعومهم إلى الإنصاف فنحن ندهوكم إلى ديننا وهو دين من الحسن وقبح القبيح كله فان أبيتهم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء فان أبيتهم فالمناجزة فان أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وأن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا منكم ومنعناكم وإلا قتلناكم فقال يزيد جرد إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا إياكم لا تغزوكم فارس وتطعمون أن تقوموا لهم فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا وإن كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتنا إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسونناكم وملكنا عليكم ملكا يرق بكم فسكت القوم فقام المغيرة بن زرارة الأسيدى فقال

أيها الملك إن هؤلاء رموس العرب ووجوههم وهم أشرف وإنما يكرم الأشراف
الأشراف ويعظم حقوق الأشراف الأشراف ويفخم الأشراف الأشراف وليس
كل ما أرسلوا به جموعه لك ولا كل ما تكلمت به أجاوبك عليه وقد أحسنوا ولا
يحسن بمثلهم إلا ذلك لجأو بنى لا كون الذى أبلغك ويشهدون على ذلك . أما ما ذكرت
من سوء الحال فما كان أسوأ حالا ما وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع كنا نأكل
الحنافس والجعلار والعقارب والحيات فترى ذلك طعامنا وأما المنازل فانما هي ظهر
الارض ولا نلبس الارض ولا نلبس إلا ما غزلنا من اوبار الإبل وأشعار الغنم
ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ويغير بعضنا على بعض وإن كان أحدا ليدفن ابنته حية
كراهية أن تأكل من طعامنا فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك فبعث الله
إلينا رجلا معروفا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده فأرضه خيرا من أرضنا وحسبه
خيرا من أحسابنا وبيته أعظم بيوتنا وقبيلته خير قبائلنا وهو بنفسه كان خيرا في الحال التي
كان فيها أصدقا وأحسنا فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد أول من ترب كان له وكان الخليفة من بعده
فقال وقلنا وصدق ركذبنا وزادو نقصنا فلم يقل شيئا إلا كان فقدف الله في قلوبنا التصديق
له وأتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله وما أمرنا فهو
أمر الله فقال لنا إن ربكم يقول إنى أنا الله وحدى لا شريك لى كنت إذ لم يكن شيء
وكل شيء هالك إلا وجهى وأنا خلقت كل شيء وإلى يصير كل شيء وإن رحمتى
أدرتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لادلکم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من
عذابي ولا حلکم دارى دار السلام فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق وقال من
تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ومن أبى فأعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه
عما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم فمن قتل منكم أدخلته جنتى
ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناواه فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر
وزن شئت فالسيف أو تسلم فتنجى نفسك فقال كسرى أتستقبلنى بمثل هذا فقال
ما استقبلت إلا من كلنى ولو كلنى غيرك لم أستقبلك به فقال لولا أن الرسل لا تقتل
لقتلتكم لأشياء لكم عندى ثم قال اثنتونى بوقر من تراب فأحمله على أشرف هؤلاء ثم
سوقوه حتى ينجح من المدائن ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنى مرسل إليه رستم
حتى يدفنكم . يدفنه فى خندق القادسية وينكل بكم وبه من بعد ثم أوردكم بلادكم حتى

أشغلكم في أنفسكم بأشد ما نالكم ثم قال من أشرفكم فقال عاصم بن عمرو أنا لحملوه
وقر التراب على عنقه لحمله حتى أتى راحلته لحمله عليه ثم ساروا فأتوا بالتراب سعداً
وبشروه بالظفر متفائلين فصل رستم من المدائن في تعبئة كبرى وعدد جنده ١٢٠
ألف عدا من تبهم وسارت طلائعه حتى أتت الحيرة فنزلت بها ثم سار رستم حتى
أتى النجف فعسكر بها والطلائع تسير أمامه ولم يزل الجيشان يتقاربان حتى كان رستم
على العتيق وسعد أمامه وكانت بين الفريقين مراسلات قال المسلمون فيها لرستم كثيراً
وما قيل في مجلسه ما قاله المغيرة بن شعبة أحد الوفد فإنه لما جاء جلس مع رستم
على سريرته فوثب عليه الفرس وأنزلوه فقال لهم كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى
قوما أسفه منكم إنا معشر العرب سراء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محاربا
الصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما تتواسى وكان أحسن من الذي صنعتم أن
تخبروني أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ولم آتكم
ولكنكم دعرتوني اليوم فمليت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون وأن ملكا لا يقوم
على هذه السيرة ولا على هذه العقول فقال السفلة صدق والله العربي وقالت الدهاقين
لقد رمى بكلام لا يزال هيبنا ينزعون إليه قال الله أولينا ما كان أحمتهم حين كانوا
يصغرون أمر هذه الأمة

ثم أجمع رستم أمره على عبور العتيق فسكروه ثم عبر هو وجنده وكان البريد بينه
وبين المدائن متصلاً بحيث تصل الأخبار إلى يزدجرد ساعة حدوثها وكان سعد دعياً
الجيش را انظمت حمانه ولم يكن سعد مع المقاتلين لأنه لم يكن يستطيع أن يركب الحبوب
كانت به فكان مقياً بأعلى القصر يشرف على الناس ويرى بالرقاع فيها الأمر والنهى
إلى خالد بن عرفة وهو أسفل منه وكان الصف بجانب القصر ثم قام في الناس الخطباء
نخطبوم وحثوم على الصبر وكان وراء الفرس العتيق ووراء المسلمين الخندق وميدان
الحرب بين ذلك وبعد أن أذن المؤذن بالظهر وأتموا صلواتهم كبر سعد تكبيراته
الثلاث التي كانت آخرها علامة بدء الحرب فبرز أهل النجدات فأنشبروا القتال وبرز
غالب بن عبيد الله الأسدي وهو يقول

قد علت واردة المسامح ذات اللبان والبنان الواضح
أنى سمم البطل المشايخ وفارج الأمر المهم القادح

وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول:

قد لست بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين إذ تغشاه الذهب
أنى امرؤ لامن يعينه السبب مثل على ملك يغريه العتب

ثم كبر سعد التكبير الرابعة وهي علامة الهجوم العام فزحفت الجنود واصطدمت صدمة هائلة وكان مما صعب الأمر على المسلمين فيلة الفرس فإتها لما حمل أصحابها عاققتها الخيل ففرقت فكادت بجيلة أن تؤكل حين فرت عنها خيائها نفاقاً فأعانهم سعد بنى أسد وكان لهم في ذلك أعظم نغار ولرئيسهم طليحة الأسدي ولم يكن للمسلمين حيلة في الفيلة هذا اليوم إلا أن أهدوا رماة النبل يرمون ركبان الفيلة فلما أهربت الفيلة من ركبائها عادت إلى مواضعها ففس من بنى أسد بعد الجهد الشديد فقد أصيب منهم خمسمائة رجل وجالت المجنبات جولة خفيفة ولم يزل القتال إلى أن مضى جزء من الليل وكان النجاح أظهر في صفوف الفرس في هذا اليوم ويسمى يوم إرمات

وفي اليوم الثاني قتلوا القتلى والجرحى من الميدان فأما القتلى فندفونهم وأما الجرحى فأسلموهم إلى النساء يداوينهم وقبل الالتحام جاءت جنود خالد التي أمر عمرأباهييدة أن يصرنها إلى العراق وأميرها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فقوى بها المسلمون وكانوا قد جاؤا بالإبل وجمالها وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب وأطافت بها خيولهم تحميها فلقيت خيول الفرس من هذه الإبل في اليوم الثاني مالقت جنود المسلمين من الفيلة في اليوم الأول ولم يزل القتال بين الفريقين شديداً إلى نصف الليل ويسمى هذا اليوم يوم أغوات وكانت كفة المسلمين فيه أرجح

وفي اليوم الثالث نقلت القتلى والجرحى ثم اصطدمت الجنود على حلق وفيلة الفرس تفعل فعلها في الخيول فانتدب لا كبرها رجلان من أصحاب النجدة فوضعا رعيمة في عيني الفيل ونقض رأسه فطرح سائسه وولى مشفره فنفضه أحدهما بالسيف فرمى به ووقع لجنبه ثم فعلا مثل ذلك بفيل آخر فولى فوثب في العتيق فتبعته الفيلة فخرجت صفوف الفرس وكان ذلك مما أضعف قوتهم وقوى المسلمين ومازال القتال مشتداً حتى جاء الليل فلم ينفصل الفريقان وخشعت أصوات الناس فلم يكن يسمع إلا صليل السيوف وهرير الفرسان ورأى العرب والهجم أمراً لم يروا مثله ومازال القتال مشتداً حتى أصبحوا والناس حسرى لم يغمضوا لياتهم فسار القعقاع في الناس

يقول لهم إن الدبرة بعد ساعة لمن صبرها فاصبروا ساعة فما قام قائم الظهيرة حتى انتهت مجنبتا الفرس وانفرج القلب وكانت حمة أصحاب النجدة موجهة إلى سرادق رستم فلما رأى ذلك أراد الهرب فتبعه هلال بن علفة حتى قبض عليه وقتله وصعد هلى سريره ثم نادى قتل رستم ورب الكعبة فأطاف به الناس وكبروا وتنادوا فلم يكن للقلب بعد ذلك مقام وتابعت الهزيمة وأخذوا الراية الفارسية وهى درفش كايان ثم تتبعوا بقية المنزهين حتى أجلوم إلى ماوراء القنطرة وكان اليوم الثالث من أيام القادسية يسمى يوم عماس وليته تسمى ليلة الهرب ولم يمر على المسلمين موقعة أشد منها هولا لامع الفرس ولا مع غيرهم قتل منهم فيها نحو ثمانية آلاف فارس ومن الفرس نحو ثلاثين ألفاً

وبعد أن انتهت الموقعة كتب سعد إلى عمر هذا الكتاب (أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنين من كان قباهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بمدة لم ير الراون مثل زمانها فلم يفهمهم الله بذلك بل سلبهمه ونقله عنهم إلى المسلمين واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد الفارثى وفلان وفلان ورجال من المسلمين لانعلهم الله بهم عالم كانوا بدوون بالقرآن إداجن عايم الليل دوى النحل وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذ لم يكتب لهم). كان عمر مشغول القلب جداً بأمر القادسية فكان فى كل يوم يخرج متنسماً أخبارهم من حين يصبح إلى انتصاف النهار فيرجع إلى أهله ومنزله وفى اليوم الذى ورد فيه البشير لقيه عمر فسأله من أين فأخبره فقال يا عبد الله حدثنى قال هزم الله العدو وعمر يجرى ورامه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين فقال الرجل فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين وعمر يقول لا عليك يا أخى فقرأ كتاب الفتح على الناس ثم ورد عليه كتاب آخر من سعد يقول فيه (إن أقواماً من أهل السواد ادعوا عهداً ولم يقم على عهد أهل الأيام لنا ولم يف به أحد علمناه إلا أهل بانقيا وبسما وأهل أليس الآخرة وادعى أهل السواد أن فارساً أكرهوم وحشروهم فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا فى الأرض) ثم كتاب آخر يقول فيه (إن أهل السواد جلوا لجأنا من أمسك بعهدده ولم يجلب

علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا أن أهل السواد قد لحقوا بالمداين فأحدث إلينا فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى أنه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل أو استسلم فإننا في أرض رغبة والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل وقد كثر أهل صلحنا وإن أعمر لها وأوهن لعدونا تألفهم) فقام عمر في الناس واستشارهم فيما طلبه سعد فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام وكف لم يزد غلبه إلا خيراً وإن من ادعى فصديق أو وفي بمنزلتهم وإن كذب نبذ إليهم وأعادوا صلحهم وأن يجعل أمر من جلا إليهم فإن شاؤا دعوم وكانوا لهم ذمة وإن شاءوا تموا على منعه من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال وأن يخبروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء وكذلك الفلاح فكتب عمر جواب الكتاب الأول يقول

(أما بعد فإن الله جلّ وعلا أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات لاني أمرين العدل في السيرة والذكر فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة ولم يرض منه إلا بالكثير وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد ولا في شدة ولا رخاء وإن روى لنا فهو أقوى وأطاماً للجرر وأقمع للباطل من الجور وإن روى شديداً فهو أنكش للكفر فن تم على عهده من أهل السواد ولم يعن عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية وأما من ادعى أنه استكره ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهب في الأرض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاءوا وإن لم تشاءوا فانبذوا إليهم وأبلغوهم ما منهم) وكتب جواب الكتاب الثاني (أما من أقام ولم يجعل وليس لهم عهد فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم إجابة وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك وكل من ادعى ذلك وصدق فلهم الذمة وإن كذبوا انبذ إليهم : وأما من أعان وجلا فذلك أمر جعله الله لكم فإن شئتم فادعوم إلى أن يقيموا لكم في أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وإن كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم) - فلما عادت كتب عمر عرضوا على من يليهم مما جلا وتنحى عن السواد أن يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فتراجعوا وصاروا ذمة كن تم ولزم عهده إلا أن خراجهم أثقل فأنزلوا من ادعى الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم وأنزلوا من أقام منزلة ذى العهد وكذلك الفلاحون ولم يدخلوا في الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجبهم إلى واحدة من اثنتين الإسلام أو الجزاء وصارت فينا لمن أفاء الله عليه فهي والصواني الأولى ملك لمن أفاء الله عليه وسائر

السواد ذمة وأخذوم بخراج كسرى وكان خراج كسرى على رؤس الرجال على ما في أيديهم من الحصة والاموال - ولم يأت قسمه ما كان لآل كسرى ومن صوب معهم لأنه كان متفرقا في السواد فكان يليه لاهل الفء من وثقوا به وترضوا عليه كان عمر يتخوف أن يؤتى المسلمون من جهة الأبله لأنها لم تكن فتحت بعد فتخير فصيلة من الجيش عليها عتبة بن غزوان ووجهها إلى الأبله لتمنع إمداد فارس من هذا الوجه فساروا حتى أتوا المربد مربد البصرة فنزلوا هناك واختطوا مدينة البصرة ونزل الجند منازلهم فيها ومن هناك فتحوا الأبله وهي مرفأ فارس على خليج عمان الموصل إلى بحر الهند وكان فتحها في رجب من سنة ١٤ وصارت البصرة بعد ذلك مركزاً حربياً عظيماً تفصل منه الجنود لحرب فارس إلا أنها لم يتم تمصيرها إلا سنة ١٧ حينما مصرت الكوفة

أقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس ولينتظر أمر عمر ثم أجمعوا أمرهم على المسير إلى قاعدة الملك فكان مما يلعب به الصبيان في العسكر وتلقيه النساء عليهم وهم على شاطئ العتيق أمر كان النساء يلعبن به في زرو ودوزي قارونك الامواه حين أمروا بالسير في جمادى إلى القادسية وكان كلاماً بدن فيه كالأوابد من الشعر لأنه ليس بين جمادى ورجب شيء

العجب كل العجب بين جمادى ورجب أمر قضاء قد وجب

يخبره من قد شجب تحت غبار ولب

ثم إن سعداً ارتجل وكان على مقدمته زهرة بن الحوية وكان معظم الجيش فرساناً مما غنموا من خيل الفرس ولقيتهم في سيرهم جنود فارسية بارس وبها فل القادسية وبقايا رؤسائهم وفيهم الهرمزان لخارجهم حرباً غير طويلة ثم بلغهم أن الجنود قد تجمعت لهم بيا بل على الفرزان فساروا إليهم وهزمهم في أسرع من لفت الرداء فنفرت رؤساء الفرس فسار الهرمزان نحو الأهواز وخرج الفرزان إلى نهاوند وصعد الباقون إلى المدائن وقطعوا الجسر. فأقام سعد بيا بل أياماً ثم سير المقدمة مع زهرة حتى وصل بهر سير وهي المدائن الدنيا على شاطئ دجلة الغربي وتلاحقت به الجنود وفي مقام سعد على بهر سير أرسلته الدهاقين راضين أن يدفعوا الجزية على أن يمنعهم المسلمون فرضى منهم سعد بذلك وصالحهم وحاصروا بهر سير شهرين ثم فتحوها بعد أن يركتها مقاتلة العدو وعبرت إلى المدائن القصوى الشرقية فنزل سعد بهر سير أنزل بها الجند ثم دهم أهل البلاد على مخاضة يعبرون منها إلى الجهة

الشرقية لأنه لم يكن مراكب يعبرها بالناس فإن الفرس كانوا قد ضمروها إلى الشاطئ الثاني وكان سعد قد أعد فصيلة تحمي الفراض حتى يعبر الجند ثم أمر بالعبور فمبار الجند كله خوفاً والذي جعل سعداً يسرع بذلك خوفاً أن يزدجر دينقل كل ما في المدائن من ذخائره فحمله ذلك على السرعة والمخاطرة ولما رأى أهل المدائن ما يفعله المسلمون دهشوا ولم يكن منهم إلا أن تركوا المدائن وخرج يزدجرد هارباً على وجهه وذهب بعياله إلى حلوان أما أهالي المدائن فأقاموا بها راضين بالجزاء والذمة

نزل سعد القصر الأبيض وهو يقول (كم تركوا من جنات وعبون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها قاهكين كذلك وأورثناها قوماً آخرين) وصلى فيه صلاة الفتح وجعله مسجداً وفيه تماثيل الجص رجال وخيل ولم يمتنع هو والمسلمون لذلك وتركوها على حالها وأتم سعد الصلاة يوم دخول المدائن لأنه أراد المظام بها وكانت أول جمعة جمعت بالعراق جمعت جماعة في المدائن في صفر سنة ١٦ ثم جمع سعد ما في خزائن كسرى من الأموال والغنائم وكان ذلك شيئاً كثيراً وأصاب الفارس من المغنم اثني عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ومعهم من الجانب شيء كثير ثم قسم دور المدائن بين الناس وأوطنوها ثم جمع الخس وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب كسرى وحليه وسيفه ونحو ذلك وما كان يعجب العرب أن يقع إليهم وبما أرسله بساط ستون ذراعاً في مثلها فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار وخلال ذلك كالدير وفي حافته كالارض المزروعة والارض الممبلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب وفوارة بالذهب والفضة وأشبه ذلك ولما ورد الخس على عمر قسمه على مستحقيه ثم قال أشيروا عليّ في هذا القطف فأجمع ملؤم على أن قالوا قد جعلوا ذلك لك قز رأيك إلا ما كان من على فإنه قال يا أمير المؤمنين الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروية إنك إن تقبله على هذا اليوم لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له فقطعه عمر بينهم

وصدر بعد ذلك أمر عمر بولاية سعد بن أبي وقاص صلاة ما غلب عليه وحربه وولى النعمان وسويدا ابني عمر بن مقرن الخراج الأول على ماسقت دجلة والثاني على ماسق الفرات

المحاضرة الثالثة والعشرون

جلولاء - تمصير الكوفة والبصرة - فتح الجزيرة - الأهواز -
غزو فارس من البحرين - فتح فارس - فتح نهاوند وما بعدها

واقعة جلولاء.

لما انتهى قل الفرس إلى جلولاء كانت هي مفترق طرقهم إلى أذربيجان والباب وإلى الجبال وفارس فتدامروا وقالوا إن افترقتم لم تجتمعوا أبدا وهذا مكان يفرق بيننا فهلوا فلذتجمع للعرب به ولتقاتلهم فإن كان لنا فهو الذي نريد وإن كانت علينا كنا قد قضينا الذي علينا وأبلىنا هذا الحصنوا جلولاء واحتفروا الخندق حولها واجتمعوا هناك على مهران الرازي وأقام يزدجرد في حلوان وصار يمدم بالرجال والاموال فأقاموا في خندقهم وأحاطوا به الحسك من الخشب لإلطرقتهم فأرسل سعد بالخبر إلى عمر فأمره أن يسرح اليهم جيشا أميره هاشم بن عتبة وعين أمراء تعبته ففصل هاشم من المدائن في صفر سنة ١٦ (مارس سنة ٦٣٧) في اثني عشر ألفا حتى نزل بجلولاء وحاصرها فكان الفرس يزاحفون المسلمين ثم يعودون إلى خندقهم ولما طال المطال صمم المسلمون على الهجوم عليهم في خندقهم واقتحامه فصادفوا في سبيل ذلك حربا هائلة كانوا يشبهونها بالحرب ليلة الهرير وانتهت بتغلب المسلمين على الخندق وكان بطل الهجوم القعقاع بن عمرو ولما رأى الفرس أن لا طاقة لهم بمغالبة ذلك العدو الشديد أخذوا يئمة ويسرة هاربين وتركوا المدينة فاحتلها المسلمون ثم أمر هاشم القعقاع أن يتبع المنهزمين فتيبهم حتى وصل خانقين ولما بلغت الهزيمة يزدجرد بارح حلوان قاصدا الري فسار القعقاع حتى أتى حلوان فاحتلها وأقام بها مرابطا لأنها هي الثغر الذي يفصل بين السواد والجبل وكان من رأى عمر في ذلك الوقت أن يقتصر على ما ملكوه من سواد العراق وقال في كتاب له لوددت أن بين السواد وبين الجبل سدا لا يخلصون إلينا ولا نخلص اليهم حسبنا من الريف السواد وإن آثرت سلامة المسلمين على الأنفال

كان سعد قد أرسل حساب المغنم والنقء مع زياد وكان هو الذي يكتب للناس ويدونهم

فلما قدموا على عمر كرم زياد عمر فيما جاء له ووصف له فقال له عمر هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كنتني به فقال والله ما على وجه الأرض شخص أهيب في صدرى منك فكيف لأقوى على هذا من غيرك فقام زياد في الناس بما أصابوا وبما صنعوا وبما استأذنون فيه من الانسياح في البلاد فقال عمر هذا الخطيب المصقع فقال زياد هذه الجملة المأثورة (إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا) ثم كتب عمر لسعد بإقرار الفلاحين على حالهم إلا من حارب أو هرب منك إلى عدوك فأدر كته وأجر لهم ما أجريت للفلاحين قبلهم وإذا كتبت إليك في قوم فأجروا أمثالهم مجراهم وأعطاهم الحرية في غير الفلاحين ١١ وأرسل سعد من المدائن فصيلة يقودها عبدالله بن المعتم لفتح تكريت حين بلغه تجمع الفرس بها وكان معهم فيها جمع كثير من العرب من أياد وتغلب والنمر فوصلت الفصيلة وقد خندق الفرس حول تكريت فحصرهم أربعين يوما تراخفوا فيها أربعة وعشرين زحفا في جميعها يظفر المسلمون وفي أثناء ذلك راسل ابن المعتم العرب لينضموا إليه فأجابوه إلى ذلك وأسلبوا فأعطاهم السلم وحينذاك قال لهم (إذا سمعتم تكبيرنا فكبروا) فأجابوه ثم أمر جنده بالهجوم على الخندق فهجموا معلنين التكبير فكبر العرب من تغلب وأياد والنمر فظن الفرس أن المسلمين جاءوهم من خلفهم فتبادروا إلى الأبواب التي عليها جنود ابن المعتم فأصيب منهم كثير من بين أيديهم ومن خلفهم وبعد الانتصار أعطوا الفلاحين من أقام منهم مثل ما أعطى غيرهم من قبلهم وأرسلت من المدائن فصيلة أخرى يقودها ضرار بن الخطاب لفتح ماسبذان^(١) فسار إليها وافتتحها عنوة وكان أهلها قد تطايروا إلى الجبال فدعاهم ضرار إلى الرجوع بعد أن أمنهم فعادوا وأقام بها وخرجت فصيلة ثالثة لفتح قرقيساء^(٢) يقودها عمر ابن مالك فافتتح في مسيره هيت^(٣) وفتح قرقيساء عنوة وأقر أهله على الجزاء وبذلك صار السواد كله في يد المسلمين فهدوا طريقة إدارته وأقاموا الجنود مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال

(١) كورة بها عدة مدن منها أريوجان عن يمين حلوان للفاصد إلى همدان

(٢) بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها الخابور

في الفرات فهي مثلث بين الخابور والفرات

(٣) بلد على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار مجاورة للبرية

تمصير الكوفة

كانت الرسل ترد على عمر بعد هذه الفتوح فيرى في أوجههم تغيرا فقال عمر (والله ما هيئتكم بالهيئة التي بدأتكم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن ولأنهم لكما أبدعوا فما غيركم) قالوا وخومة البلاد فكتب إلى سعد أخبرني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم فكتب إليه سعد إن العرب خددم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة - فكتب إليه عمر إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان فبعث سلمان وحذيفة راندين فايرتادا منزلا بريا بحريا ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر : فبعث سعد سلمان وحذيفة يسيران غربي الفرات مرتادين حتى أتيا موضع الكوفة وهو حصباء ورمل فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاث فأعجبتهما البقعة فنزلا فيها وصليا ودعيا ثم كتبوا إلى سعد بالخبر فأبغضه سعد عمر فأمره أن يسير بالجنود إليها فأرسل سعد إلى أمراء الثغور أن يستخلفوا على الثغور ويسيروا إليه ففعلوا فارتحل سعد بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة في المحرم سنة ٧ (يناير سنة ٦٣٨) وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران وكان قد أبقى بالمدائن جنداً ممن رضى الإقامة بها وكان عمر يريد أن يقيموا معسكرين في خيامهم ثم أذن لهم أن يبنيوا بيوتا من القصب فأصاب الكوفة حريق شديد فأذن عمر أن تبني بالابن . جعل على بناء المدينة أبا الهياج ابن مالك الأسدي وأوضح مناهجها وما يابها وأزقتها فجعل المناهج أربعين ذراعا وما يابها ثلاثين وما بين ذلك عشرين والأزقة سبع أذرع وليس دون ذلك شيء وفي القطائع ستين ذراعا

فأول ما أسس بالمدينة مسجدها فاخطوه ثم قام في وسطه رام شديد النزاع فرمى عن يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه ثم أمر بالبناء وراء مواقع السهام وبني في مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتان على أساطين رخام كانت الأكاسرة سماؤها كاسمية الكنائس الرومية وبنوا لسعد بجياله داراً بينهما طريق منقب مئتي ذراع وجعل فيها بيوت الاموال والذي بناه له فارسي كبنية الأكاسرة في الحيرة وجعل المناهج تخرج من أمام المسجد والشكل الذي وضعت عليه الكوفة ينبيء عن نظام جميل لم يحجب عن العرب هواء البادية لكثرة المناهج واتساعها وفي هذا العام نفسه بنيت الابنية بالبصرة كما بنيت بالكوفة فهي وإن نزلها المسلمون

سنة ١٣ من الهجرة لم يتم تخطيطها وتأسيسها إلا في السنة التي اختطت فيها الكوفة
ومن هنا نشأ اختلاف الناس في الزمن التي مصرت فيه
وكانت ثغور الكوفة في ذلك الزمن أربعة حلوان^(١) وما سبذان وقرقيساء
والموصل^(٢) وأميرها سعد بن أبي وقاص وكانت البصرة ثغراً له أمير خاص يعينه
أمير المؤمنين

صارت الكوفة والبصرة من هذا التاريخ مركزين حريين تفصل منهما الجنود
لحرب العجم ولكل منهما جنود خاصة
فتح الجزيرة^(٣)

فصلت من الكوفة ثلاث فصائل بأمر عمر إحداهما يقودها سهيل بن عدي لفتح
الرقعة والثانية يقودها عبدالله بن عتبان لفتح نصيبين والثالثة يقودها عقبة بن الوليد
لإخضاع عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وأمر عمر إن كانت حرب أن يكون القائد
العام عياض بن غنم وكان مقصد عمر من ذلك أن يكسر شوكة الروم الذين ثاروا
من الجزيرة قاصدين أبا عبيدة بجمص فلما توجه الجنود إلى كورهم تفرقوا كل إلى
كورته فكان في ذلك تخفيفاً على جنود الشام
فسار عياض حتى أتى الرها فصالحه أهلها على الجزية ثم حران فصالحت ثم فتحت
نصيبين ثم أرمينية أما عرب الجزيرة فإنهم لما رأوا الطلب خفوا وتركوا أرضهم
وأوغلوا في أرض الروم وبعد مراسلات بينهم وبين هؤلاء العرب قال المسلمون
منهم لا تنفروا العرب بالخراج ولكن ضعفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم
فيكون جزاء فإنهم يفضبون من ذكر الجزاء فرضى عمر بذلك وبهذا قبل العرب أن
يعودوا إلى بلادهم ويقيموا بها على ما قبل منهم

-
- (١) في آخر حدود السواد بما يلي الجبال من بغداد وكانت مدينة كبيرة عامرة
(٢) مدينة هلي طرف دجلة ومقابلة من الجانب الشرقي نينوى وهي من المدائن
الإسلامية الكبرى (٣) ما بين دجلة والفرات من جهة الشام يسمى جزيرة أقور
تتضمن على ديار مضر وديار بكر ومن أمهات مدنها حران والرها والرقعة ورأس
عين ونصيبين سجنار ووانخا بوروماردين وآمدوميا فارقين والموصل وغير ذلك

فتح الاهواز (١)

كانت الاهواز تناخم حدود البصرة وكان فيها الهرمزان وهو من سادات فارس وعظماؤها وكان يغير على ما ييد المسلمين فأراد عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير له جنداً فاستمد سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة فأمدته فخرجت جنود البصرة وأمدادهم من أهل الكوفة فالتقت بالهرمزان بين ذت ونهر تيرى فهزمته ودحرتة حتى جاز شاطئ دجيل فصار شاطئ دجيل بين المسلمين والهرمزان

ثم كاتبهم الهرمزان في الصلح فصالحوه على الاهواز كلها وهو هرجان قذق (٢) ما عدا ما أخذوه عنوة وجعلوا مناذر ونهر تيرى مسلحتين للبصرة فيهما الجنود مرابطين : ثم حصل بين رؤساء القرة المرابطة خلاف في حدود الارضين وقد دعا ذلك الهرمزان إلى نقض الصلح والاستعانة بالأكراد فأبلغ عتبة أمير البصرة بذلك فأبلغ الأمر عمر فأمر بتسيير الجنود لحرب الهرمزان وأرسل لهم أمداداً فسارت الجنود إلى الهرمزان وحاربوه عند جسر سوق الاهواز وهزموه فتوجه إلى رامهرمز وبذلك اتسق للمسلمين جميع الاهواز إلى تستر فراسمهم الهرمزان في الصلح مرة ثانية فأجابوه إلى الصلح على ما لم يفتحوه عنوة وكان عمر يتخوف أن يكون هذا النقض من الهرمزان لمظلمة لحقت أهل الذمة فطلب من عتبة أن يرسل اليه وفداً فيه عشرة من وجهاء الكوفة فأرسل عشرة فيهم الاحنف بن قيس فلما قدم على عمر قال له إنك هندی لمصدق وقد رأيتك رجلاً فأخبرني أن ظلمت الذمة المظلمة نفرؤا أم لغير ذلك فقال الاحنف لا بل لغير مظلمة والناس على ماتحب قال فنعم إذا انصرفوا إلى رحالك فانصرفوا وكتب إلى عتبة أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو يبنى فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عامدكم عليه وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم فأوفروا بعهده الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصرًا

(١) بجمع كور عدها ياقوت عشراً وهي سوق الاهواز ورامهرمز وايدج وعسكر

مكرم وتستر وجندی ساپور وسوس وسرق ونهر تيرى ومناذر

(٢) كورة واسعة ذات مدن وقرى قرب الصيمرة من نواحي الجبال عن يمين

القاصد من حلوان العراق إلى همدان في تلك الجبال

غزو فارس من البحرين

كان العلاء بن الحضرمي أميراً على البحرين لعمر وكان العلاء يباري سعد بن أبي وقاص فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظهر بالفضل فلما ظهر سعد بالقادية وأزاح الأكاسرة وأخذ حدود مايلي السواد سر العلاء أن يصنع شيئاً في الاعاجم يكون له به من الشهرة والسيادة ماالسعد فندب أهل البحرين إلى فارس فقتلوا إلى ذلك وفرقهم أجناداً فحماهم في البحر بغير إذن عمر وكان عمر لا يأذن لأحد في ركوب البحر غازياً : عبرت تلك الجنود بحر في جو اصطخر^(١) وبإزاتهم أهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حيتهم وقاتلوا أهل فارس مقاتلة المستميت فظفروا ثم ساروا يريدون البصرة لانه قدحيل بينهم وبين الرجوع إلى البحرين فوجدوا شهرك الفارسي قد أخذ عليهم الطرق فمسكروا في موطنهم وامتنعوا

بلغ خبر ذلك عمر فاشتد غضبه على العلاء وأرسل اليه يعزله . أمره بأثقل الأشياء عليه وأبغض الوجوه اليه بتأمير سعد عليه وقال له الحق بسعد فيمن قبلك فخرج بمن معه نحو سعد . كتب عمر إلى عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير جنداً لتخليص من أرسلهم العلاء فانتدب عتبة من يسير فأجابه جمع من ذوى النجدة فخرجوا في اثني عشر ألفاً وعليهم أبوسبرة بن أبي رهم فساحل بالناس لايلقاه أحد في طريقه حتى وافوا شهرك وهو أخذ على جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه . خلصوا إخوانهم وهذه هي الغزوة التي شرفت بهاثابتة البصرة وكانوا أفضل نوابت أمصار ثم انكفثوا بما أصابوا وذهب أهل البحرين عائدين إلى بلادهم من طريق البصرة .

ولما أحرز عتبة الأهواز وذل فارس استأذن عمر في الحج فأذن له فلما قضى حجه استغفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه ايرجعن إلى عمله فانصرف فسات في بطن نخله فدفن به وبلغ عمر خبره فر به زائراً لقبره وقال أنا قتلتك لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم وأثنى عليه بفضلله وولى عمر بدله المغيرة ابن شعبة مفتح سنة ١٨ هـ

(١) مدينة كبيرة لفارس وهي قاعدة آتورة مسماة بهذا الاسم وكانت قسبة ملك

فارس حتى تحول ازدشير إلى جور

فتح رامهرمز والدوس وتستر

لم يزل يزد جرد يثير أهل فارس^(١) وهو بمروف كتب اليهم يذكرهم الاحقاد ويؤنبهم على رضاهم بغلبة العرب على سوادهم فتحرك من مكاتبانه أهل فارس والاهواز وتعاقدوا وتوافقوا على النصر فكتب أمراء الثغور إلى عمر فكتب إلى سعد أمير الكوفة يأمره أن يبعث إلى الاهواز جنداً كثيفاً يقوده النعمان بن مقرن وأرسل إلى أبي موسى الأشعري وكان ولاء البصرة بعد عزل المغيرة أن يبعث جنداً إلى الاهواز يقوده سهل بن عدي وأمير الجندين معا أبو سبرة بن أبي رهم ففصلت جنود الكوفة مع النعمان حتى إذا وصلت رامهرمز وبها الهرمزان خرج يقاتلها فهزم دونها فترك رامهرمز وألحق بتستر فاحتل النعمان رامهرمز ثم توجهت الجنود إلى تسترو هناك تواققت جنود المصيرين فحاصروا تستر أشهراً وقتل في الحصار جماعة من ذوى النجدة وزاحنهم المشركون مدة الحصار ثمانين زحفاً كانت الحرب فيها سجالاً وفي آخر زحف هزمت الفرس حتى دخلوا خنادقهم ثم احتال المسلمون لدخول المدينة فدلوا على ثغرة فيها منها تدخل المياه إلى البلد فهدوا إلى ذلك المكان ومنه هجموا على المدينة فدخلوها بعد جهاد عنيف فذهب الهرمزان إلى القلعة ولما رأى شدة الأمر عليه نادى متبعيه وقال أضع يدي في أيديكم على حكم عمر يصنع بي كيف يشاء قالوا فلك ذلك واستأسر لهم فلك المسلمون بذلك تستر ثم أرسلوا الطلائع لآخذ ما أحاط بها من البلدان وأرسل أبو سبرة وفداً إلى عمر معهم الهرمزان فلما وصلوا إلى المدينة دخلوا على عمر وهو في المسجد ناظم ودرته معلقة في يده فقال الهرمزان أين عمر فقالوا هو ذا فقال أين حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب قال فينبغي أن يكون نبياً قالوا بل يعمل عمل الأنبياء فلما استيقظ عمر قالوا له هذا ملك الاهواز قال له عمر كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله فقال يا عمر إنا وإياكم في الجاهلية

(١) فارس اسم لولاية واسعة وإقليم منبع أول حدودها من جهة العراق ارجان ومن جهة كرمان السرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ومن جهة السند مكران وأعظم مدنها شيراز وكورها المشهورة خمس (١) اصطنخر (٢) أردشير (٣) دار أبجرد (٤) سابور (٥) قبادخراة

كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا فقال عمر إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقتنا ثم قال عمر ما عذرك وما حجتك في انتفاضك مرة بعد أخرى فقال أعاف أن تقتلني قبل أن أخبرك قال لا تخف ذلك واستسقى ماء فأتى به في قدح غليظ فقال لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا نأتى به في إباء يرضاه فجعلت يده ترتجف وقال إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر لا بأس عليك حتى تشربه فأكفاه فقال عمر أهدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والمعش فقال لا حاجة لي في الماء إنما أردت أن أسأمن به فقال له عمر إني قاتلك قال قد أمنتني فقال عمر كذبت فقال أنس صدق يا أمير المؤمنين أمنته قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني وقلت لا بأس عليك حتى تشربه وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل على الهرمزان وقال خدعتني والله لا أنخدع إلا لاسلم فأسلم ففرض له في العطاء على ألفين وأزله المدينة

ثم قال عمر الوفد لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتقضون بكم فقالوا ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة قال فكيف هذا فقال له الأحنف يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتمنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا بالاعتصام على ما في أيدينا وأن ملك فارس حتى بين أظهرهم وأنهم لا يزالون يساجلوننا مادام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم وأن ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزله عن فارس ونخرجه من مملكته وعز أمته فهالك ينقطع رجاء أهل فارس فقال عمر صدقتني والله وشرحت لي الأمر من حقه ثم قدمت الكتب على عمر باجتماع أهل نهاوند : فكان ذلك مما جعل عمر يأذن بالانسياح

فتح نهاوند (١)

اجتمع بنهاوند من جنود الفرس من كل أنحاء جمعهم يزدجرد يريد إعادة الكرة بهم لاستعادة ملكه ونهاوند من بلاد الجبل (٢) جنوبي همدان فكتب عمر إلى النعمان

(١) مدينة عظيمة في قبة همدان بينهما ثلاثة أيام ١٤ فرسخاً وهي أعتق مدينة في الجبل (٢) بلاد الجبل علم على ما يسميه العجم ببلاد العراق وهي ما بين أصهبان

ابن مقرن يوليه محاربه المجتهدين بها وحشد إليه الجنود من البصرة والكوفة فلما وصلت إليها الجنود رأوا بها جمعاً عظيماً متحصناً في حصون قوية ولا يخرجون إلا إذا شأوا فلما طال عليهم المطال جمع النعمان رجال النجدة والرأى في الحروب عن معه وقال لهم قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن وأنهم لا يخرجون إلا أن يشأوا وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق بالذي هم فيه فالرأى فتكلم عمرو بن نبي وكان أكبر الناس يومئذ سناً وكانوا إنما يتكلمون على الأسنان فقال التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم ولا تخرجهم وطولهم وقاتل من أهلك منهم فرد رأيه وتكلم عمرو بن معديكرب مشيراً بمناهدتهم فقالوا إنما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعوان علينا وتكلم طليحة الأسدي فقال أرى أن تبعث خيلاً تحرق بهم ثم يرمونهم لينشبو القتال ويحمسوم فإذا استحمسوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا إلينا استطراداً فإننا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم إنما إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ولم يشكوا فيها فخرجوا فجادونا وجادونا حتى يقضى الله فيهم وفينا ما أحب فقبل منه رأيه وأمر النعمان القعقاع أن ينشب القتال ففعل وتم ذلك الترتيب الحربي المتفق عليه فخرجت الفرس يتبعونه وحينذاك أمر النعمان بالهجوم فاقبلوا بالسيوف قتالاً شديداً وفي أثناء الموقعة قتل النعمان رئيس الجند فأخفوا موته واسلم الراية خليفته من بعده حذيفة بن اليمان ولم يأت آخر النهار حتى تمت الهزيمة على الفرس واتبعت فصائل عليها القعقاع الفل إلى همدان فدخلها المسلمون وملكوها وحينئذ جاؤهم رؤساء البلاد من الفرس وصالحوهم على همدان . أما نهاوند فإن المسلمين دخلوها عقب الهزيمة واحتوا ما حولها وكانوا يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لأنه لم يكن بعده كبير حرب ولما جاء البريد إلى عمر بالفتح وباستشهاد النعمان بكى عليه بكاء شديداً

وبعد انتهاء هذه الموقعة أذن عمر بالانسحاب في بلاد الفرس كما أشار عليه بذلك الأحنف بن قيس فعين رؤساء الجنود التي نذهب لافتتاح البلاد وأرسل بالالوية إلى أصحابها وهم :

إلى زنجان وقزوين وهمدان والديور وقرميسين والرى وما بين ذلك من البلاد الجليلة والكور العظيمة قال ياقوت وتسمية هذا الجزء بالعراق غلط

(١) الأحنف بن قيس النعيمي ووجه إلى خراسان (٢) مجاشع بن مسعود السلمي ووجه إلى أردشير خرة وسابور (٣) عثمان بن أبي العاص الثقفي ووجه إلى اصطخر (٤) سارية بن زعيم الكيناني ووجه إلى فسا ودرا بجرد (٥) سهيل بن عدي ووجه إلى كرامان (٦) عاصم بن عمرو ووجه إلى بجمستان (٧) الحكم بن عمير التغلبي ووجه إلى مكران فاستعدت الجنود للخروج إلى أوجهها مفتح سنة ١٨ هـ

فتح أصبهان^(١)

سار عبدالله بن عبدالله بن عتبة بجنده نحو أصبهان وقاعدتها جيّ والملك بها الفاذوسفان فلما التقت الفتان قال الفاذوسفان لعبدالله لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك ولكن ابرز لي فإن قتلتك رجعت أصحابك وإن قتلتني سالمك أصحابي وإن كان أصحابي لا يقع لهم ذمابة فبرز له عبد الله وقال إما أن تحمل عليّ وإما أن أحمل عليك فقال أحمل فوقف له عبد الله وحمل عليه الفاذوسفان فطمنه فأصاب قربوس سرجه فكسره وقطع اللبب والحزام وزال اللبد والسرج وعبدالله على الفرس فوقع عبدالله قائما ثم استوى على الفرس هريا وقال له أثبت فقات الفاذوسفان ما أحب أن أقاتك فقد رأيتك رجلا كاملا ولكن أرجع معك إلى عسكري فأصالحك وأدفع المدينة إليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى أن تجرى من أخذتم أرضه عنوة مجرام ويتراجعون ومن أبي أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه قال لكم ذلك فرضى أهل جيّ بالصلح إلا ثلاثين رجلا منهم خالفوا قومهم وتجمعوا فلحقوا بكرمان في حاشيتهم لجمع كان بها ودخل المسلمون جيّ واغضب من الفرس من أقام وندم من شخص ثم استخلف عبدالله بجيّ خليفة له وسار حسب أمر عمر إلى كرمان لمساعدة سهيل بن عدي

فتح أذربيجان^(٢)

بيننا نعيم بن مقرن في همدان إذ بلغه تجمع الفرس واحتشادهم في واج رود بين همدان

(١) إقليم من نواحي الجبل كان قاعدته جيا ثم صارت اليهودية (٢) صقع جليل وملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وحدثها من رذعة مشرقا إلى أرنجان مغربا ويتصل حدثها من جهة الشمال ببلاد الجبل والديلم وقصبتها تبريز وكانت قبل مدينة المراغة

وقزوين فسار إليهم وقاتلهم في ملحمة كبرى كانت تعدل وقعة نهاوند وهزمهم هزيمة منكرة
فتح الري (١)

بعد أن انتهى زعيم من واج الروذ سار إلى الري فصالحه أهلها بعد أن قهرهم وكان
المصالح عنهم رأسهم الزينبي بن قوله وكتب لهم كتاب صالح ثم وجه أخاه سريد بن
مقرن إلى قومس فسار إليها وأخذها سلباً ومن هناك كاتبه ملك جراجان (٢) بالصالح
فصالحه وكتب له كتاب صالح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان

فتح الباب (٣)

كان قائد الجيش الذي وجه إلى الباب سراقه بن عمرو وعلى مقدمته عبد الرحمن
ابن ربيعة فلما أطل عبد الرحمن على الباب كاتبه ملكها شهربراز مستأمناً ليأتيه فأتمته
عبد الرحمن لجأه الملك وقال له إنى بإزاء عدوك وأمم مختلفة لا ينسبون إلى أحساب
ولا ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الأحساب
والأصول وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من القبيح فى شيء ولا من
الأرمن وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فأنا اليوم منكم وبى مع أيديكم وصغوى
معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذولونا
بالجزية فتوهنونا لعدوك فقال عبد الرحمن فوقى رجل قد أظلك فسر إليه فجوزه فسار
إلى سراقه فلقية بمثل ما كلم عبد الرحمن فقال سراقه قد قبلت ذلك فيمن كان معك على
هذا مادام عليه ولا بد من الجزاء من يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان
يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء إلا أن يستنفر فتوضع عنهم
جزاء تلك السنة وكتب بذلك سراقه إلى عمر فأجازه وحسنه وكان فى كتاب صلحهم
الأمان لأنفسهم وأموالهم وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أولم ينب
رآه الوالى صلاحاً على أن يوضع الجزاء عن أجاب إلى ذلك إلا الحشر والحشر عوض
من جزائهم ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء

(١) قسبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخاً وإلى قزوين ٢٧ فرسخاً

وكانت مدينة عظيمة جداً ويقال فى النسب إليها رازى (٢) مدينة عظيمة بين طبرستان
وخراسان (٣) مدينة عظيمة على بحر طبرستان (بحر الخزر) وهى ثغر عظيم

والدلالة والنزل يوما كاملا فإن حشروا وضع ذلك عنهم وإن تركوا أخذوا به - وهذه سنة حسنة في عهد عمر بن الخطاب فليست الاستعانة بالمخالفين في الدين من أهل الشرك ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة

فتح خراسان (١)

كان يزيد جرد قد سار إلى خراسان فأقام بمرو ونقل نار فارس إليها واطمان في نفسه وأمن أن يوثق وكاتب من مرو من بقي من الأعاجم فيما لم يفتحها المسلمون فدناؤه فوجه إليه الأحنف بن قيس فدخل خراسان من الطبرسين فافتتح هراة هنوة ثم سار نحو مرو والشاهجان فخرج منها يزيد جرد إلى مرو والروذ وكتب إلى خاقان ملك الترك يستمده وإلى ملك الصفد وملك الصين أما الأحنف فاتجه إلى مرو والروذ حتى إذا بلغ ذلك يزيد جرد سار عنها إلى بلخ فنزل الأحنف على مرو ووجه فصيلة من الجند نحو بلخ وتبعهم الأحنف حتى إذا التقى الجندان انهزم يزيد جرد وعبر بمن معه في أهل فارس فعاد الأحنف إلى مرو فنزلها وكتب إليه عمر ينهيه عن عبور النهر وأن يقتصر على ما بيده : ولما عبر يزيد جرد النهر أتته جنود مدد من ملوك الترك والصفد فعاد بهم يريد أخذ مرو من الأحنف فخرج إليه الأحنف لما حس به فلم يكن من الترك كبير حرب بل عادوا إلى بلادهم تاركين يزيد جرد ولما رأى ذلك ترك البلاد ثانية وعبر النهر أما أهل خراسان فإنهم تعاقبوا مع الأحنف وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا من الأكاسة فكانوا كأنما هم في ملكهم إلا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل فاغتنبوا

ثم وجه سراقة فصائل للجبال المحيطة بأرمينية موقان وتفليس وجبال اللان

فتح أهل البصرة

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد توج فتحها سارية بن زعيم الدؤلي ثم فتح فساو دارا مجرد وفتح عثمان بن أبي العاص اصطخر . وفتح سهيل بن عدى كرمان : وفتح عاصم بن عمرو بجمستان ، وفتح الحكم بن عمرو التغلبي مكران وما يستظرف من الاخبار حديث قيس بن سلمة الأشجعي فإن عمر ولاء قيادة جيش .

(١) بلاد واسعة في شرق البلاد الفارسية وقصبتها مرو وبها نيسابور وهراة وبلخ وطالقان وسرخس وغير ذلك من المدن التي دونها نهر جيحون

لمقاتلة الأكراد فسار إليهم وهزمهم ولما قسم عليهم النفل رأى شيئا من حلية فقال إن هذا لا يبلغ فيكم شيئا فتطيب أنفسكم أن نبعث به إلى أمير المؤمنين فإن له برداً ووهنة قالوا نعم قد طابت أنفسنا فجعل تلك الحلية في سفظ ثم بعث برجل من قومه ليوصل ذلك إلى عمر قال الرسول فأتيت المدينة فإذا عمر يغدى الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعى وهو يدور على القصاع فلما دفعت إليه قال اجلس فجلست في أدنى الناس فإذا طعام فيه خشونة طعامى الذى معى أطيب منه فلما فرغ الناس قال يا يرفاً ارفع قصاعك ثم أدبر فاتبعه فدخل داراً ثم دخل حجرة فاستأذنت وسلمت فأذن لى فدخلت عليه فإذا هو جالس على مسح متكئ على وسادتين من آدم محشوتين ليفاً فنبذ إلى ياحداهما فجلست عليهما وإذا بهما في صفة فيها بيت عليه ستير فقال يا أم كلثوم غداً نأفأخرجت إليه خبزة بزيت في عرضها ما لم يدق فقال يا أم كلثوم ألا تخرجين إلينا تاكلين معننا من هذا فقالت إنى أسمع عندك حس رجل قال نعم ولا أراه من أهل البلد قالت لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتنى كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طاححة امرأته قال أو ما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر ثم قال كل فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا قال فأكلت قليلاً وطعامى الذى معى أطيب منه وأكل فما رأيت أحداً أحسن أكلا منه ما يتابس طعامه بيده ولا فقه ثم قال استقونا لجاموا بس من سلت فقال أعط الرجل قال فشربت قليلاً ثم أخذه فشربت حتى قرع القدر فجهته فقلت حاجتى يا أمير المؤمنين أنارسل سلة بن قيس قال مرحبا بسلة بن قيس ورسوله حدثنى عن المهاجرين كيف هم قلت هم كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم قال كيف اللحم فيهم فإنها شجرة العرب ولا تصالح العرب إلا بشجرتها قلت البقرة بكذا والشاة بكذا ثم أدى إليه رسالته وأخبره خبر الحلية التى اختصه بها سلة فلما نظر إلى نصوصها وثب ثم جعل يده فى خاصرته ثم قال لأشبع الله إذا يعطى عمر ثم قال ما جئت به أم والله لئن تفرق المسلمون فى مشاتهم قبل أن يقسم هذا فيهم لأفعلن بك وبصاحبك الفاقرة قال فارتحلت حتى أتيت سلة فقلت ما بارك الله فيما اختصتني به أقسم هذا فى الناس قبل أن يصيننى وإياك فاقرة ققسمه فيهم ولست فى حاجة إلى أن أنبهكم إلى ما يؤخذ من هذه الحادثة فهى تبين لكم كيف كانت المرأة فيهم فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأى الأعلى فى بيت أمير المؤمنين وكانت

المرأة تتكلم في شأن نفسها كما يتكلم أعظم في الرجال نفسا ثم تبين كيف كان عمر يتنزه عن أموال المسلمين فهذه الحلية شيء قد طابت به أنفسهم ومع ذلك لم يرض إلا أن يردها عليهم فكيف لانكرون قلوبهم بين يديه بصرفها كيف شاء وكيف أحب وإلى هنا انتهى ما تريد قصه عليكم من أمر الفرس وسقوط مملكتها نهائيا بين أيدي المسلمين فقد صار اليهم قطعة من الأرض يحدها من الغرب نهر الفرات ومن الشرق نهر جيحون والسند ومن الجنوب البحر الهندي ومن الشمال بلاد أرمينية كل ذلك في زمن لم يتجاوز سبع سنين كان النصر لهم في جميع المواقع التي زاحفوا فيها أعداءهم وكان لهم اسم جميل عند عامة الفرس عرفوا بالوفاء فإنهم لم يكونوا يتهاونون في أمره كما كان يوصيهم خليفتهم دائما وعرفوا بالعدل في حكمهم حتى شهد لهم بذلك أهل ذمتهم كبيرهم وصغيرهم الملك منهم والسوقة وسنقيض القول فيما كان لهم من الاخلاق والمدنية في عهد عمر عند الفراغ مما كان في أرض الروم

تمّ الجزء الأول ويليه الجزء الثاني